حائز جائزة نوبل للآداب

كنزابورو أوي

اقتلعوا البراعم اقتلوا الأولاد

ترجمة:
ديمتري أڤييرينوس

رواية

مكتبة ١٢٠٨
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

اقتلعوا البراعم
اقتلوا الأولاد

كنزابورو أوي

مكتبة 1208

اقتلعوا البراعم
اقتلوا الأولاد

رواية

ترجمة:
ديمتري أڤييرينوس

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الطبعة الأولى 2022
ISBN: 978-6144-58-555-9

تدقيق لغوي: حسين إبراهيم
صورة الغلاف: لوحة للرسّام عباس مكي
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي

نُشِر في الأصل بعنوان:
Nip the Buds, Shoot the Kids
Copyright © 1958 by Kenzaburo Oe

JAPANFOUNDATION 国際交流基金

نُشِر بدعم من The Japan Foundation

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

مكتبة
t.me/soramnqraa

16 6 23

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375 -11 بيروت، لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

المحتويات

- توطئة 7
- الفصل الأول
  الوصول 23
- الفصل الثاني
  المهمَّة الصغيرة الأولى 47
- الفصل الثالث
  هجمة الوباء ونزوح القرويين 69
- الفصل الرابع
  الإغلاق 83
- الفصل الخامس
  تضامُن المتروكين 103
- الفصل السادس
  الحب 125
- الفصل السابع
  الصيد والعيد في الثلج 141

◀ الفصل الثامن

تفشّي المرض المفاجئ والذعر 161

◀ الفصل التاسع

عودة القرويين وذبح الجندي 181

◀ الفصل العاشر

المحاكمة والطَّرد 201

مكتبة
t.me/soramnqraa

توطئة

«... أنَّ على الإنسان أن يكدح ويأسى، ويتعلَّم وينسى، ويعود إلى الوادي المظلم الذي منه أتى، ليأخذ في الكدح من جديد.»

وليام بليك، قالا، **أو الزوا الأربعة**، الليلة التاسعة

مِموشيري كوتشي 芽むしり仔撃ち (**اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد**، 1958) استهلالٌ روائي واثق بقلم طالب شاب أصبح قبل ظهورها شخصية أدبية وطنية مرموقة. لقد أسعف الحظ كنزابورو أوي في أنّ الكثير من عناصر مجاله القصصي قد تراءى له وهو بعدُ طفل. وُلِدَ سنة 1935، ثالث أبناء أسرة كبيرة، في قرية أوسِه من ولاية إهيمِه، في حضن وادٍ عميق في الأقاصي الجبلية من جزيرة شيكوكو، وهي ذاتها واحدة من أكثر كبريات جزر اليابان انعزالًا وتطرّفًا. كانت مكانة أسرته قريبة من صفوة المجتمع القروي، مرموزًا إليها بالمخزن العائلي، بأرضيَّته الترابية التقليدية، وباحتكار والده رسميًّا صنعة تقشير لحاء الشجر التي كانت توفّر المادة الخام لتصنيع الأوراق المالية. ربَّته جدَّته على الحكايات الشعبيّة والتقاليد الراسخة في

مسقط رأسه الاستثنائي. لقد نشأ كتّاب يابانيون آخرون من القرن العشرين في أماكن نائية على حدّ سواء - كِنجي ميازاوا في ولاية إيواتِه الريفية، أوسامو دازايي في شبه جزيرة تسوغارو البعيدة، كوبو آبِه في منتشوريا - لكن يبدو أن أوي قد شعر منذ البداية باصطفائه رجلًا من الأطراف، من الهوامش، وصيًّا على تراث جماعته الهامشية.

ترعرع الفتى الانطوائي، المواظب على درسه، في الجو غير الواقعي السائد في اليابان أوان الحرب. في روايته **أوكورِته كِتا سبينن** 遅れて きた青年 (**الولد الذي جاء متأخرًا**، 1962)، نجده يصف الطقوس القومية التي كابدها تلاميذ المدارس النموذجيون في ذلك الأوان. كان المدرّس يسأل كل تلميذ: «ماذا تراك تفعل إذا أَمَرَك الإمبراطور أن تموت؟»، فيجيب كلٌّ منهم عند سؤاله: «أبقرُ بطني وأموت، يا سيدي». راح راوي القصة يتعذّب لعلمه أن إجابته كانت كاذبة. أوي ذاته حلم بذلك الإله المرعب - الإمبراطور - كطائر أبيض عظيم ينقضُّ عليه من السماء. في مناسبة أخرى، كما تذكَّر لاحقًا، جاء قاتل كلاب محترف وأمر بمصادرة جلود جميع كلاب القرية ليستعملها الجيش. أطاع القرويون الأمر طاعة عمياء، فجاؤوا إليه بحيواناتهم جميعًا. ذبحها قاتل الكلاب بالفأس وسلخها وأخذ الجلود، لكنّ القرويين عثروا في وقت لاحق على الجلود ملقاةً خارج القرية. رأى أوي في هذه الحادثة اختباره الأول لعبثيَّة العنف.

مات أبوه في أثناء الحرب؛ ألـمَّ به من ثمّ اضطراب آخر مع هزيمة اليابان، حين تكلَّم الإمبراطور - الإله الحي - على موجات المذياع للمرّة الأولى بصوت رجل عادي معلنًا استسلام البلاد. بُعيد ذلك، ظهر

الأميركيون، يوزّعون الحلوى بدلًا من القنابل الحارقة. انقلبت القيم التي نشأ عليها أوي: أصبح أكثر مدرّسيه تعصبًا لتقديس القيم العسكرية أشدَّ المتحمّسين للديمقراطية. أنهى تعليمه في ظلّ نظام الدمَقرَطة الجديد الذي فرضته سلطات الاحتلال، وهو نظام تعرَّض لفضيحة مدوّية في أعقاب «التطهير الأحمر» بحقّ الشيوعيين الذي توَّلته سلطات الاحتلال الأميركي في مستهلّ الحرب الكورية. بذا امتزجت نظرة أوي من على حافة ثقافته، وحنينُه إلى بساطات طفولته الجوهرية، مع بصيرة نقدية ثاقبة.

عرف أوي العشق للمرّة الأولى حين وقع في هوى الرياضيات، لكنّ اهتماماته سرعان ما تغيّرت. «كنت حتى ذلك الوقت فتى مولعًا بالرياضيات. غير أنّني فقدت اهتمامي بالرياضيات وأخذت أقرأ الأدب... [في سنتي الأولى في الإعدادية] حفظت كتاب الإعدادية المدرسي وكتاب الثانوية العليا، ولم يبقَ من ثمّ ما أفعله». هذا الميل العلمي المبكر لديه، إن دلَّ مسبقًا على شيء فهو يدلُّ على طبيعة النهج الذي اعتمده: نهجٌ عقلي للغاية عن سابق قصد، يقف على النقيض من التيار «العفوي» المناوئ للعقلانية، السائد في الآداب اليابانية. حين تقدَّم إلى جامعة طوكيو النخبوية سنة 1954، كان ذلك ليدرس الأدب الفرنسي. في محادثة مع كازوو إشيغورو، تذكَّر كيف «توفيت جدَّتي حوالى ذلك الوقت، وكانت أمّي تتقدَّم في السن. كانت حكايات قريتي الخرافية وتقاليدها وفولكلورها في طور الضياع. في غضون ذلك، ها أنا ذا مقيم في طوكيو، أتخيّل تلك الأمور وأحاول أن أتذكّرها. ثمّ أخذ فعل الإصرار على التذكّر وفعل الإبداع يتداخلان. وذلك هو السبب الذي

حدا بي إلى البدء في كتابة الروايات. حاولت كتابتها مستعمِلًا أساليب الأدب الفرنسي التي عكفت على دراستها».

بدأت قصصه الأولى في الظهور في المجلّات الطلابية وغيرها من الدوريَّات. وفي سنة 1958 فازت قصته **شيبكو** 飼育 **(طرائد لاستيلاد الماشية)** بجائزة أكوتاغاوا، أبرز جوائز اليابان المخصَّصة للكتَّاب الجدد. تدور أحداث القصة في قرية غير مسمَّاة في زمن الحرب وتروي، في ضوء يكاد أن يكون أسطوريًّا، قيام الجماعة برعاية طيار أميركي أسود. ظهرت **مِموشيري كوتشي (اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد)** هي الأخرى في تلك السنة، وأوي لم يتعدَّ عامه الثالث والعشرين.

بخلاف قصة **شيبكو** (إحدى القصص الواردة في مجموعة **علّمونا كيف نتجاوز جنوننا)** التي دمجت الفتى الراوي في جماعته، تُقدّم رواية **اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد** البطل بوصفه دخيلًا مطلقًا، ولدًا جانحًا نَبَذَه القرويون المتوحّشون، قساة القلب إلى حدٍّ لا يُعقل. إنه لَناصعٌ حدَّ الضغينة سخط أوي على تواطؤ جيل الكبار تواطؤَ قطيع الخرفان مع مغامرة العسكرة الكارثية الوخيمة؛ سخطه على الجنرالات الذين اقتادوا الناس إلى نهاية الطريق ليتخلّوا عنهم بعدئذٍ؛ سخطه على الردَّة الأيديولوجية الجبانة. لقد شدَّد على تجذُّر الرواية في اختباراته الشخصية زمن الحرب. «لم يكن قد مضى على الحرب آنذاك سوى ثلاث عشرة سنة. ارتبطت الحرب بحياتي ارتباطًا عميقًا وكأنها قد انتهت أمس فحسب. كل ما كان عليَّ فعله هو أن أدع اختباراتي للحرب - لا الاختبارات الفعلية، بل الذهنية - تجري مجراها من تلقائها، فأدوّنها». غير أن القرية اللامسمَّاة لا تقلُّ رمزية عن **وهران** ألبير كامو، أو عن

سفينة **بكوُود** في رواية هرمان مِلفيل **موبي ديك** Moby-Dick، أو عن جزيرة وليم غولدنغ المهجورة. يحتل الكتاب - الذي ليس فيه إلا حفنة من أسماء العَلَم ويكاد يخلو عمليًّا من أي إشارة مأنوسة إلى أي زمان أو مكان فعليين - عالَمًا مبهمًا مستقًى من الخيال الأسطوري. ولموضوع الشقيق في محور الحبكة مغزى متعدّد الأوجه، نموذجي في دلالته على هذا البُعد الأسطوري. «وضعتُ في محور بنيان العمل ولدًا فتى بوصفه الشقيق الأكبر وولدًا صغيرًا بوصفه الشقيق الأصغر. وهذا الشقيق الأصغر كثيرًا ما كان الكائن الذي تتجلّى فيه الخنوثة بنظر الشقيق الأكبر». يتمتّع الكائن الخنثى، مثنّى الجنس، بسلطان بدائي أصلي بوصفه الكائن المتسامي عن الاختلاف، نقطة تلاقي قوى الكون المتضادة؛ وهذا المغزى الكوني يطعّم به أوي روايته عبر حيلة الأُخوَّة، مشيرًا إلى أن مطامحه في الرواية تتعدَّى بكثير هاجس النقد أو الهجاء.

في هذه الرواية، يدور السرد حول ابتكار الفتية الجانحين لزمنهم الخاص المستقل المحكوم ذاتيًّا، خارج التاريخ، الزاخر بالغنى الجوهري للكائن «البدائي». «الزمن [...] لن يتحرّك خطوة واحدة بلا أوامر من الراشدين». (ما فتئ أوي يعود إلى هذا الموضوع، إنما بمزيد من الحنكة بعد اطّلاعه على أفكار ميرتشا إلياده). وللدراما هنا بُعد أونطولوجي لا يقلّ أهمية عن البعد السياسي: الغابة المحيطة بالقرية هي فوضى عارمة تشطح عن طوق النظام البشري؛ ليس القرويون القساة مَن يضعون حدًّا لأنشودة الحرية التي يعيشها الفتية، بل الانبعاث المأساوي للموت الذي يختطف حبيبة الراوي وشقيقه. يتعرَّض الفتى للخيانة،

حتى من رفاقه، ويُحرَم من أي عون بشري، ليمضي في النهاية إلى الخواء المظلم لا يلوي على شيء. في وقت لاحق، أصبح أوي واحدًا من قرّاء وليام بليك المتحمّسين، مستشهدًا خصوصًا بالعبارة المستقاة من **قالا، أو الزوا الأربعة** التي تتصدَّر هذه التوطئة بوصفها مفتاحًا لحماسته للشاعر الرؤيوي اللندني الكوكني. إن الجدلية التوافقية في هذين البيتين (دوبيت) بين إيروس وثاناتوس (الحب والموت)، بين الألفا والأوميغا (الألف والياء)، لا تقلّ جوهرية بنظر أوي عن روح التجذّر من جديد re-rooting الحاضرة فيه التي اعتنقها لاحقًا.

كان ردُّ فعل النقَّاد على الرواية حماسيًا على وجه العموم، مع أن أسلوبها دلَّ مسبقًا على سِمة مثيرة للجدل من سمات كتابة أوي. فقد ظلَّ أوي على اهتمامه، في آنٍ معًا، بشعراء غربيين مثل بليك وياتس وبشعراء شرقيين غنائيين مثل كِنجي ميازاو والكوري كيم تشي ها. يتّصف أسلوبه المركَّب، المرصوص، الذي كثيرًا ما يذكّر بكثافة سارتر شبه الهيدغرية [نسبة إلى هيدغر]، بطموح شعري راسخ. كان ثمة أيضًا موقف أيديولوجي من وراء خلافه مع «ضبابية» اليابانيين، وهو موقف مصوغ في تصويرٍ فظٍ منفّر وتركيب جمل متخثّر، مغالٍ في التحديد، يشبه الإنكليزية. وتقوم طريقته المعتادة في العمل على كتابة جملة يابانية بحت أولًا، ثمّ مراجعتها مرتين أو ثلاثًا، وثنيها كلّ مرة عن شكلها المألوف وجعلها أعوص، مشغولة بعناية بالغة، وحمَّالة أوجُه؛ وهذا أبعد ما يكون عن نقاوة الأسلوب الياباني التقليدي، كما يمثّل له كاتب مثل شيغا ناوويا الذي كان وضوحه المعسول يحجب أيديولوجيا أدبية مشبوهة حتى التهوّر، مفادها «الصدق» و«طهارة

الروح»، أيديولوجيا سبق أن اعتنقها يابانيون كثر، ولا سيّما من أجيال ما قبل الحرب.

إنّ هذه الأيديولوجيا ذاتها، المرتكزة إلى العواطف التي يتوافق الكاتب والقراء سلفًا على وصفها بعواطف القلب الصادقة، تعارض الرواية الفكرية معارضة قوية؛ وإنّ تسخير أوي أفكارًا متطوّرة للغاية في بناء أعماله ليؤدي إلى تفاقم خلافه مع أصحاب المذهب التقليدي في الأدب الياباني. يضاف إلى ذلك اعتناقه دور الكاتب البعيد كل البعد عن الجماليّات التقليدية. لقد صرّح أوي، بالاعتماد على كلود ليڤي-شتراوس، أنّ «دور الأدب [...] هو إيجاد مثال للعصر الحالي يشتمل على الماضي والمستقبل وعلى أنموذج إنساني يحيا في ذلك العصر». وفي السياق الياباني، رأى أن هذا الواجب لدى جيله من الكتّاب يتمثّل في أن يكونوا الناطقين عن المبادئ الجديدة لإرشاد الأمّة بعد أن نسفت هزيمة 1945 الأيديولوجيا الاستبدادية التي حكمت اليابان منذ تجديد ميجي سنة 1868.

أعاد أوي النظر لاحقًا في هذه الرواية عبر روايته «**مِموشيري كوتشي سايبان**» 『芽むしり仔撃ち 裁判』 (محاكمة **اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد**، 1980)، حيث يعلّق على العمل الأصلي تعليقًا يهوّل فيه من تطوّر أسلوبه. يستعمل أوي عددًا من تقنيات ما بعد الحداثة (إذ إنه ليس أبدًا أقلّ من كاتب واعٍ ذاتَه وعيًا تامًّا)، فنراه يُورِد شخصية «كاتب» خيالي، منبوذ من جراء رواية اتُّهم فيها قريته مسقط رأسه. يستخبر هذا الكاتب من شقيقه الأصغر عن شقيق آخر، أكبر سنًّا، هو بطل **اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد**، يعود إلى القرية بعد الحرب

في صحبة القوات الأميركية، متنكّرًا في هيئة شقيقه الأصغر (الذي غرق في الفيضان)، وذلك لمحاكمة الجماعة. يتبلّغ القرويون محاضر الجلسات المغلقة عن طريق تمثيل مُعادٍ لمجرياتها يصير عيدًا طقسيًّا تشارك فيه الجماعة بأسرها. وفي النهاية، يخسر المدَّعي قضيته ويغادر إلى أميركا ثمّ يحارب في ڤييتنام حيث يُصاب بالشلل. هذا التعقيد المتنامي إلى حدّ فسيح مثال على ما دأب أوي على ممارسته لاحقًا.

تخرّج أوي من جامعة طوكيو سنة 1959 بأطروحة تخرُّج عن فلسفة سارتر، فتزوج سنة 1960 يوكاري، شقيقة المخرج السينمائي جوزو (تمبوبو) إيتامي، وهو صديق من أيام المدرسة الثانوية في شيكوكو، واستقرّ على حياة كاتب متفرّغ للكتابة. راح يكتب عن وضع اليابان ما بعد الحرب، عن علاقة بلاده الملتبسة مع غزاتها، عن شذوذ المفكّرين الشباب وتحلُّلهم من أعراف المجتمع، خاسرًا بذلك شيئًا من الأصداء الواسعة التي لقيتْها **اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد**، ففي حين نزع كلٌّ من كتّاب هذه الفترة اللامنتمين إلى ترسيخ مجاله المستقل بصفته من شُذّاذ المترو أو القتلة المنحرفين جنسيًّا، قامت قصتا أوي المسلسلتان المنشورتان سنة 1961 بعنوان **سِبنتين** セヴンティーン 政治少年之 (**سبعة عشر**) **وسيبجي شوونن شيشو** 死 (**موت شاب سياسي**) على اغتيال إنجيرو أسانوما، زعيم الحزب الاشتراكي، على يد أوتويا ياماغوتشي، الفتى اليميني ذي السبعة عشر ربيعًا الذي انتحر لاحقًا في السجن. تلك كانت فترة المظاهرات اليسارية الحاشدة ضد إعادة التفاوض بشأن معاهدة التعاون والأمن بين الولايات المتحدة واليابان (أنبو 安保) وأوج التوتر السياسي في

فترة ما بعد الحرب. لقد ملأت ما سُمّيت «مظاهرات أنبو» شوارع طوكيو بمئات آلاف الراديكاليين، وبدت الثورة إمكانية واردة دومًا. في هذا المناخ الملتهب، راح أنصار اليمين المتطرف يشنون هجومًا لاذعًا على القصتين وعلى كاتبهما، وأصدرت المجلة اعتذارًا متذلّلًا عن أي إساءة حصلت وسحبت القصة الثانية من التداول. (حتى يومنا هذا، لا يمكن العثور عليها إلا في بضع مجموعات مكتبات عامة). إذ ذاك عمد الراديكاليون اليساريون إلى التهجّم على جبن أوي. أما أوي نفسه، فقد احتجّ أنّ كلا الطرفين أساء فهم موقفه الذي «لم يتعرَّض للبطل بالسخرية أبدًا، ولا في أي موضع [من القصة]». في وقت لاحق، عزا مصادفات كهذه إلى رسوخ «منظومة الإمبراطور» التي بقيت، على حدّ قوله، بؤرة تركيز لأسوأ الدوافع في الأمَّة اليابانية، كما تجسَّد ذلك دراميًّا في انتحار يوكيو ميشيما الممسرَح المفتعل. لذلك ظلَّت «لعنة منظومة الإمبراطور»، والإعلاء من شأن جميع مراكز القوّة المماثلة على حساب الأطراف مثل أوكيناوا، مرمى لانتقاداته الشرسة.

بُعيد ذلك، أعادت أحداث حياة أوي المأساوية توجيه اهتماماته، حافزةً نموِّه من كاتب كبير إلى كاتب عظيم. ففي تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1962، أقدم صديق قديم، اختصاصي في الاقتصاد، متزوّج من فرنسية ومقيم في باريس، على شنق نفسه في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، تاركًا رسالة يُفصِح فيها عن رعبه أمام المحرقة النووية الكلّية المهدّدة بالوقوع الوشيك. ثمّ، في سنة 1963 ولد ابنه الأول مصابًا بفتق مخي، وهو عاهة في الجمجمة ينتأ فيها نسيج المخ مشكّلًا كتلة حمراء شنيعة. إن صراع أوي المضني بخصوص ما يجب عمله مؤرَّخ

وفق تسلسله الزمني في روايته **كوجينِتكي نا تايكن** 個人的な体験 (**خبرة شخصية**، 1964). وكما لو تحدّيًا للظلمة المتأهّبة لابتلاع الطفل، سمَّاه **هِكاري** 光 (نور). وقد تجسَّدت مشاعره المعذَّبة في أفعاله عندما زار هيروشيما ذلك الصيف لحضور مؤتمر حول نزع السلاح النووي العالمي. ينتهي بون 盆 - «مهرجان جميع النفوس» أو «عيد الأموات» - حين يؤذَن للموتى أن يعودوا إلى راحتهم في زوارق فوانيس تُخَطُّ عليها أسماؤهم ثمّ تُعوَّم على المياه وتُطلَق ليلًا. تقام شعائر مماثلة في هيروشيما وناغازاكي يوم الذكرى السنوية لقصف كلّ من المدينتين، وذلك طلبًا لراحة نفوس الضحايا. صحب أوي إلى هناك صديقًا كانت ابنته قد ماتت لتوّها، وعندما خَطَّ ذلك الصديق اسم ابنته على الفانوس، خطَّ أوي اسم هِكاري، مُدرِكًا بُعيدئذٍ أنه يعامل ابنه وكأنه واحد من الموتى. بعد ذلك بوقت طويل، تذكَّر أنه أضاف اسمه هو أيضًا. عند عودته إلى طوكيو، وافق على إجراء الجراحة التي أغلقت الفتحة في جمجمة هِكاري، على حساب تلف دائم في المخ.

كانت زيارة أوي إلى هيروشيما حاسمة من أكثر من وجه. فقد قابل عددًا من الناجين من قنبلة هيروشيما وأجرى مقابلات معهم، ناشرًا المقابلات وانطباعاته في وقت لاحق في كتاب بعنوان **هيروشيما نووتو** ヒロシマ・ノート (**ملحوظات هيروشيما**، 1964). انصبَّ جميع هذه التأثيرات في مخيّلة أوي لتبدع ذلك الدمج الاستثنائي بين الاهتمامين الخاص والعام، وبين الوعيين الأنطولوجي والتاريخي، في رائعته الصادرة سنة 1967 بعنوان **مَنْنِنْ غَنَنْ نو فوتبوورو** 万延元年のフットボール (**كرة القدم في**

سنة مَنْنِنْ الأولى؛ تُرجِمت إلى الإنكليزية بعنوان الصرخة الصامتة) التي تُستَهَلُّ بولادة طفل مشوَّه وبموت رجل شنق نفسه بعد أن دهن رأسه باللون القرمزي وحشر خيارة في شرجه، وتُختَتَم بافتداء الراوي. كان الكتاب في طور النشر على حلقات حين اكتشف أوي الفكر الديني للعلَّامة-الشاعر الروماني ميرتشا إلياذِه، بتشديده على تطهير التاريخ عبر التكرار الشعائري، مما دفعه إلى سحب المسوَّدة وإعادة صياغتها في عمل أصبح نقطةً فاصلة في سيرته الأدبية، عمل لعلَّه أعظم رواية يابانية صدرت بعد الحرب.

تقدّم **الصرخة الصامتة** مرة ثانية شقيقين آخرين يعودان إلى القرية مسقط رأسيهما: قرية فرَّ مؤسّسها الأسطوري إليها خوفًا من وحش رهيب هو تشوسوكابه الذي يملأ الزمان والمكان. تشوسوكابه كان في واقع الأمر اسم العشيرة التي سيطرت على منطقة شيكوكو التي يأتي منها أوي في القرن السادس عشر، وهذا «الوحش»، بالتالي، هو التاريخ الذي فرَّ منه القرويون لتأسيس زمنهم ذاتي الحكم. غير أن الراوي يعود إلى أصوله ليجابه التاريخ، فيقارع قرنًا من تاريخ الأسرة تتردَّد أصداؤه إلى خلف وأمام عبر الأجيال. أما شقيقه تاكاشي، وهو راديكالي معتلّ الذهن ذو جاذبية قاهرة وخلاصة مرعبة للشخصية الإرهابية، فلديه طرائقه الخاصة العنيفة للتحاور مع التاريخ. تشتمل الرواية على موضوعات عمومية وعلى أدقّ تفاصيل الحياة المعاصرة: وحده أوي بمستطاعه أن يجد مغزى عالميًّا في تكاثر السوبرماركت وإغلاق دكاكين القرى في أوائل الستينيَّات. وقد توسَّع في هذه المقاربة ليتطرّق إلى ما رأى فيه اجتثاث اليابان الحديثة من جذورها

ومحنتها الثقافية. «لا يخطر ببالي أي شعب أو أمَّة تحتاج إلى دليل إلى التعافي الذاتي حاجةَ اليابانيين إليه [...] الذين تُبدي ثقافتهم خليطًا عجيبًا من ثقافتَي العالم الأول والعالم الثالث».

في رواية **دودجايي** غيمو 同時代ゲーム (**ألعاب المعاصَرة**، 1979)، يعود أوي مرة أخرى إلى مجال أصوله لكي يفتديه من التاريخ، مشدّدًا على هامشيَّته ومهوّلًا حربَه المتخيَّلة على إمبراطورية اليابان العظمى. وهو أيضًا يتناول الجرائم التي ترتكبها الجماعة الصغيرة بتسامح أكبر من الجرائم التي ترتكبها الهيئة الاجتماعية الأكبر المناوئة لها. في رواية **إموتيي تو موري نو فوشيغي نو مونوغاتاري** M/Tと森のフシギの物語 (م/ات وحكايات عجائب الغابة، 1986)، يحكي أوي عمليًّا القصة ذاتها، مكرِّرًا نمطًا مألوفًا في أعماله الغزيرة تُستنفَد عبره تمامًا ممكناتُ وضعٍ فريد بعينه عن طريق التكرار والتنويع. وهذا يتطابق مع الكونيَّات المتمحورة على الخيار الحرّ التي يوردها أوي على لسان إحدى شخوصه في خبرة شخصية: «كلَّما اتفق لك أن تقف على مفترق طريقَي الحياة والموت، تجد نفسك أمام كونين اثنين [...] أكوان متنوّعة تنبثق حول كلّ منَّا». غير أن حكايات أوي اللاحقة تضحّي أحيانًا بهذا الإلحاح الوجودي بتنصيبها الجماعة بطلًا لها، وذلك مجاراةً لرغبة الكاتب حديثًا في استعادة هوية راسخة. وهي غالبًا ما تذكّر بالواقعية السحرية التي استكشفها عن طريق نسخته الشخصية المعدَّلة عن «الواقعية الشنيعة» الرابليسية [نسبة إلى فرانسوا رابليه] لميخائيل باختين: إنها رياضة خصبة بنظر أوي الناضج الذي لا يتورّع حتى عن استيعاب مصطلحات الأنواع القصصية الشعبية التي يرغب فيها القراء، كما في رواية الخيال

العلمي الأفضل مبيعًا **شريوو توو** 治療塔 (**برج العلاج**، 1990) التي تتوغّل هي الأخرى عميقًا في اهتماماته البيئية.

أقرَّ أوي أيضًا بأنه استفاد من المذهب البنياني Structuralism، وبذلك أصبح واحدًا من أوائل الكتَّاب العظماء الذين استفادوا من كلتا الموجتين الأولى والثانية من الفكر الفرنسي ما بعد هيدغر: «عن نفسي أقول، بوصفي كاتبًا واحدًا، إنني أقدّر بالغ التقدير الأفكار الثقافية المتنوّعة التي نبعت من البنيانية، من حيث إنها تقدّم حافزًا حيويًّا قويًّا في حقل الأدب». لقد وُصِفَ بأنه «الناطق البليغ بلسان الحداثة الذي قاوم بإصرار بعض مفرزات نظريات ما بعد الحداثة حين وصلت إلى اليابان»؛ لكن هذا الأمر أكثر ارتباطًا بامتصاص النخبة اليابانية المثقّفة، المتفاقمة العقم، للنظريات الأجنبية الموافِقة للموضة من غير نقد ولا تمييز. فعلى الرغم من سهولة تواصل أوي مع الثقافة الفكرية العالمية، إلا أنه أعرب عن شكوكه حول قيمة أعماله بنظر قرَّاء غير يابانيين: «أكتب كتبي بالدرجة الأولى لقرَّاء يابانيين، لا لقرَّاء أجانب. علاوة على ذلك، فإن القرَّاء اليابانيين الذين في بالي هم فئة محدودة فحسب. الناس الذين كتبت من أجلهم أناس من جيلي، أناس عاشوا الاختبارات ذاتها التي عشتها أنا».

هذا التقييم المتشائم بعض الشيء يُناقِضه الإجلالُ الذي يتمتّع به أوي على الصعيد الدولي، وتُناقِضه الترجماتُ العديدة المنشورة. إن الاعتراف بقامته العالمية، وذلك بمنحه جائزة أوروباليا سنة 1990، قد تكرَّس نهائيًّا بحصوله على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1994. لقد نوَّهت لجنة نوبل بكنزابورو أوي بوصفه كاتبًا «يبدع بقوة شعرية

عالَـمًا متخيَّلًا تتكثّف فيه الحياة والأسطورة لتشكيل صورة مُقلِقة عن ورطة البشرية اليوم».

يومذاك تخلَّلت البث التلفزيوني الياباني نشرات خاصة تعلن النبأ. أما أوي فقد نسب نجاحه - بتواضع يتميَّز به - إلى «إنجازات الأدب الياباني الحديث»، مشيدًا بصفة خاصة بسلفَيْه كوبو آبِه وماسوجي إبوسِه. كذلك، بلفتة لا تقلّ عن الأولى تميُّزًا، اعتذر عن قبول الوسام الإمبراطوري للثقافة الذي يُمنَح عادة للفائزين اليابانيين بجائزة نوبل، مستفزًّا احتجاجات غاضبة من حفنة من أنصار اليمين الذين حسبوا اعتذاره إهانة للعرش. أما استجابة عموم الجمهور، فكانت حماسية، مع أنها حائرة، مرتبكة بعض الشيء، حيال أعمال الكاتب نفسها؛ كما حثّ النبأ على بعض التأمّل في موضع اليابان من الثقافة العالمية. إذ ما انفك أوي يطالب بضرورة أن تعيد اليابان معاينة ماضيها وثقافتها، وذلك لكي تجد مستقبلًا أبعد من حاضر «مجتمعها الاستهلاكي شنيع الانتفاخ غرورًا». ولسوف يكون من قبيل المفارقة الساخرة أن يكون انتصار هذا الكاتب، المفطوم على ثقافات أبعد ما تكون عن ثقافة اليابان، هو الذي حرَّض بالضبط إعادة معاينة كهذه.

في محاضرة نوبل بعنوان «اليابان والملتبِس وأنا» التي ألقاها بالإنكليزية، أسهب أوي في الحديث عن المحنة الحالية لليابان التي يمزقها «التِباس هو من القوة والتغلغل بحيث يشقُّ كلا الدولة وشعبها». هذا الوضع الملتبس الذي يعانيه بلده، «الموجَّه نحو التعلُّم من الغرب والحذو حذوه» منذ انطلاقة تحديثه، مع بقائه أمَّة شرقية

آسيوية «حافظت بقوة على ثقافتها التقليدية»، إنما هو بنظر أوي «نوع من المرض المزمن الذي ما انفك سائدًا طوال العصر الحديث». وقد وضع الخطوط العريضة لاستراتيجيَّته في التصدّي للقضية: «كان أسلوبي الأساسي في الكتابة أن أنطلق من شؤوني الشخصية ثمّ أربط الأمر بالمجتمع والدولة والعالم». وقد تطرَّق إلى مسألة ابنه هِكاري الذي، وهو بعدُ طفل، «كان يستجيب فقط لزقزقات الطيور البرية، ولا يستجيب أبدًا للأصوات البشرية»، ومع ذلك «أيقظتْه أصواتُ الطيور على موسيقى باخ وموتسارت». وقد أكَّد على إيمانه «بقوّة الفن الشافية الرفيعة» التي من شأنها أن «تُمكّن الذين يعبّرون عن أنفسهم بكلمات، مثلما تمكّن قرّاءهم، من التعافي من أوجاعهم وأوجاع زمنهم». أما النتيجة الممكنة لحل الالتباس حلًّا نهائيًّا، ألا وهي «هوية يابانية مرغوب فيها»، فقد عرَّفها أوي مستعيرًا مصطلح جورج أورويل، «لائق» كمرادف لـ«إنساني».

وإنه لمن قبيل المفارقة أن أوي، إذ انتهى من ثلاثيَّته **موياغرو ميدوري نو كي** 燃えあがる緑の木 (**الشجرة الخضراء المتّقدة**، 1993-1995)، أعلن أنه سوف يهجر الكتابة القصصية. إذ إن هِكاري، الذي يعيش في طوكيو مع والديه، قد انتصر على الرغم من إعاقته الشديدة عبر مَلَكته الموسيقية الأصيلة، عاكفًا على تأليف موسيقا مبهجة ومؤثِّرة حصدت مبيعات معقولة. في فيلم وثائقي بثَّته هيئة البث الوطنية اليابانية NHK، وصوَّرته قبل منح جائزة نوبل ببضعة شهور بمناسبة حفلة مخصَّصة لموسيقا هِكاري في مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة في هيروشيما، ظهر الأب والابن معًا بوصفهما فنانَين. أما وقد

تمكّن هِكاري من التعبير عن ذاته، فقد صرَّح أوي أنه لم يعد يشعر أنه ملزم بالنطق عنه، وأن كل ما كَتَبَ من قصص لم يتح له أن يفهم ابنًا بوسعه أن يؤلّف موسيقا كهذه. وقد ترك الإمكانية مفتوحة لتجريب المقالات أو قوالب جديدة للكتابة.

ناظرًا إلى **اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد**، بعد كتابتها بوقت طويل، قال أوي عنها: «أحسب أن هذه الرواية كانت بنظري أسعد أعمالي. استطعت فيها أن أطلق سراح ذكريات طفولتي، المرير منها والعذب، لأنسج بها صور الرواية. التذذت بالأمر حتى. لكنني لم أعد أشعر بذلك التحرّر المصاحب لِلَذَّة الكتابة».

پول سانت جون مكنتوش

ماكي سوغياما

الفصل الأول

الوصول

كان اثنان من فتياننا قد لاذا بالفرار ليلًا، لذا فإننا بحلول الفجر لم نكن قد غادرنا بعد. صرفنا وقتًا يسيرًا ننشر معاطفنا الخضراء المتصلّبة، المبتلَّة من الليلة السابقة، في «أشعة الشمس الشاحبة»، ونحن نشاهد النهر الموحِل الجاري أبعد من أشجار التين على الجانب الآخر من الممشى وراء السياج الواطئ. كانت أمطار الأمس الغزيرة قد شقَّقت الدرب، والماء الصافي يتدفق في تلك الشقوق حادَّة الحواف. كان النهر، وقد فاض من جرَّاء المطر والثلج الذائب والماء المتسرّب من الصهريج المثقوب، يهدر بشراسة، حاملًا معه بعيدًا، بسرعة هائلة، جثث كلاب وقطط وجرذان.

إذ ذاك أقبل نسوة القرية وأطفالها يتراكضون على طول الدرب للتحديق إلينا بعيون ممتلئة فضولًا وخجلًا ووقاحة بليدة، يتبادلون همسات محمومة خفيضة وقهقهات حادَّة، الأمر الذي ضايقنا. كنَّا بنظرهم كائنات غريبة تمامًا. ذهب بعضنا حتى السياج، يتباهى أمام القرويات بأعضاء ذكرية فتيَّة كالمشمش المحمرّ. وإذا بامرأة في منتصف العمر تشقُّ لنفسها بمرفقيها طريقًا عبر هياج الأطفال

الضاحك، فاقتربت أكثر لتحملق وشفتاها مزمومتان بإحكام، وضحكت بوجهٍ محتقنٍ وهي تنقل تفاصيل بذيئة لصاحباتها اللواتي حَمَلْنَ أطفالًا. غير أن هذه اللعبة قد تكرَّرت مرَّات كثيرة في عدّة قرى أخرى، فلم نعد نستمتع بردِّ فعل الفلّاحات عديمة الحياء، المبالَغ فيها، حيال أعضائنا التناسلية، المختونة بالطريقة الجارية عادةً على أولاد الإصلاحية.

قرَّرنا أن نتجاهل القرويات الواقفات بعناد خلف السياج وهنَّ يتفرَّسن فينا. راح بعضنا يتمشَّى جيئة وذهابًا على جانبنا من السياج مثل حيوانات في قفص، بينما جلس آخرون على الحجارة المرصوفة التي جفَّفتها الشمس، وراحوا يحدّقون إلى ظلال الأوراق الباهتة على التراب البنّي القاتم، يتتبَّعون بأطراف أصابعهم حوافها المرتعشة الضاربة إلى الزرقة.

وحده شقيقي راح يبادل القرويات التحديق، متّكئًا على السياج ومبلّلًا مقدّمة معطفه على أوراق الكاميليا الصلبة، جلدية القوام، المبرقشة بقطيرات الماء المتكثفة من الضباب. كان أهل القرى بنظر شقيقي مخلوقات غريبة الأطوار تثير فضوله. كان بين الفينة والفينة يُقبل عليَّ مسرعًا ويهذر في أذني بصوت جيَّاش حاد، واصفًا بحماسة عيون الأطفال المرمَدَّة، وشفاههم المتشققة، وأصابع الفلاحات الضخمة، المسودَّة المتكسّرة من جراء العمل. تحت أنظار القرويات الفاحصة كنت أفتخر بوجنتَي شقيقي الورديتين المتوهّجتين، وبجمال قزحيَّتيه البراقتين.

مع ذلك، حتى يشعر غرباء، أشباه حيوانات برية أسيرة، أنهم في مأمن حيال آخرين يراقبونهم، فإن خير ما يفعلونه هو أن يعيشوا عديمي الإرادة، عميانًا، كأنهم حجارة أو زهر أو شجر – أي عيشةً مراقَبةً

بحتة. أما شقيقي، فلأنه أصرَّ أن يكون العين التي تراقب القرويات، كانت تصيبه في وجنتيه طلقات صفراء كثيفة من البصاق كوَّرتها ألسنة النسوة، وحجارة يرميها الأطفال، فلا يلبث، مبتسمًا، أن يمسح وجنتيه بمنديل جيبه الكبير المطرَّز بالطيور ويواصل متعجبًا تحديقه إلى القرويات اللواتي أهنَّه.

ذاك يعني أن شقيقي لم يكن بعدُ قد تعوَّد هذه العيشة المراقَبة، الشبيهة بحال الحيوان في قفص. لكن بقيَّتنا كانوا قد تعوَّدوها قطعًا. واقع الأمر أننا تعوَّدنا أمورًا كثيرة. فما كنَّا نملك إلا أن نواصل المضي في طريقنا، مجبَرين، واحدًا تلو الآخر، على ليّ أجسامنا وأذهاننا لنتكيَّف مع الأمور الكثيرة التي تواجهنا كل يوم. لم يكن تلقّيك الضربَ والنزفُ والسقوطُ مغشيًّا عليك غير البداية فحسب، حتى إن رفيقينا اللذين كُلّفا الاعتناء بكلاب الشرطة مدة شهر أخذا ينقشان البذاءات على الجدران وألواح الأرضيَّات بأصابع فتيَّة شوَّهتها عضَّات الفكوك القوية للكلاب الجائعة وهما يطعمانها كل صباح. لكننا لم نستطع لاحقًا إلا أن نشعر بالتوتر حين عاد رفيقانا الفارَّان، يجرجران نفسيهما خلف رجل الدورية ومأمور الإصلاحية. كانا مجهَزًا عليهما تمامًا.

بينما كان المأمور ورجل الدورية يتحادثان، جلسنا حول رفيقينا الباسلين اللذين أخفقا أيَّما إخفاق. كان سوادٌ يطوّق أعينهما، ودمٌ متخثر عالقًا بشفاههما المشقوقة، وشعرهما ملبَّدًا بالدم. أخرجت الكحول من حقيبة عُدَّتي وغسلت جروحهما وضمَّختها باليود. كان أكبرهما سنًّا وأمتنهما بنيةً مصابًا بكدمة على باطن فخذه من جراء ركلة، لكنه حين رفع ساق سرواله وثناها لم تخطر ببالنا أدنى فكرة عن كيفية علاجها.

قال بأسى: «كنت أنوي الفرار ليلًا إلى المرفأ من طريق الغابة. كنت أنوي ركوب سفينة والذهاب جنوبًا». ضحكنا ضحكة جشَّاء، مع أننا كنَّا جميعًا لا نزال شديدي الانفعال. كان دائم الحنين إلى الجنوب، دائم الكلام على هذا النحو، حتى إننا لقَّبناه مينامي 南 [جنوب].

«لكن بعض الفلاحين عثروا عليَّ، فنلت نصيبي من الضرب المبرّح. مع أني لم أختلس حبَّة بطاطا واحدة. هم يعاملوننا كالجرذان».

شهقنا إعجابًا بشجاعتهما وغضبًا من وحشية الفلاحين.

«هيه، ألم نكد نبلغ الطريق الواصل إلى الميناء؟ حسبك أن تقفز على شاحنة نقل وتنزوي فيها، فتصل إلى الميناء رأسًا».

قال الفتى الأصغر سنًّا بصوتٍ واهن: «آه، أبعد قليلًا فقط».

أردف مينامي وهو يلعق شفتيه: «ذهب الأمر كلُّه سدًى لأن معدتك آلمتك».

قال الفتى «أجل»، وهو لا يزال شاحبًا يعاني من وجع المعدة، مطرقًا رأسه خجلًا.

سأل شقيقي وعيناه مشعَّتان: «هل ضربك الفلاحون؟».

قال مينامي بنبرة يمتزج فيها الفخر بالازدراء: «ماذا؟ لم يَقرُب الأمر الضرب حتى، نفدت قواي وأنا أراوغهم، وكانت أفواههم تزبد وهم يريدون دقَّ مؤخرتي بمعازقهم».

قال شقيقي بنوع من النشوة الحالمة: «آه، معازق على كفلك؟».

حين غادر رجل الدورية بعدما طرد المحتشدين على الجانب الآخر من السياج، نادانا المأمور جميعًا. بدأ بضرب مينامي وشريكه

على شفاههما المشقوقة، ملطخًا ذقنيهما بدم طازج، حكم عليهما من ثمّ بالصوم يومًا واحدًا. كان ذلك حُكمًا مخفَّفًا، وبما أن الطريقة التي اعتمدها في ضربهما لم تكن تشبه طريقة مأمور، أو كانت أشبه بما كنَّا نعدُّه سِمة رجولة حقّة، فقد تعاملنا معه بصفته جزءًا من استعادة كرامة مجموعتنا.

قال المأمور فاتحًا حنجرته الشابة وقد احمرَّت وجنتاه: «أنتم جميعًا، إيَّاكم أن تحاولوا الفرار مرة أخرى. في هذا النوع من القرى المعزولة، كلَّما حاولتم الفرار، سيمسك بكم الفلاحون قبل أن تبلغوا إحدى البلدات. إنهم يبغضونكم بُغضهم للجذام، ولسوف يقتلونكم من غير تردُّد. ستجدون الفرار من هنا أشقّ عليكم من الفرار من سجن».

كان ما قاله صحيحًا. فقد علَّمتنا تجربتنا في الفرار والإخفاق، ونحن نتنقّل بين القرى، أننا كنَّا مطوَّقين بأسوار عملاقة. في قرى الفلاحين، كنَّا مثل الشظايا العالقة بالجلد. في لحظة واحدة لا بدَّ أن يضغط علينا اللحم المتخثّر من الجوانب كلّها ، فنُلفَظ ونُخنَق. كان المزارعون، متأزرين دروع عشائريَّتهم الصلبة، يرفضون السماح للآخرين بالعبور بينهم، ناهيك عن الاستقرار بينهم. كنَّا نحن مجرَّد مجموعة صغيرة تسوقها الريح على بحر لا يستقبل أناسًا من الخارج أبدًا، بل لا يلبث أن يلفظهم.

قال المأمور، مبرزًا نواجذه القوية: «أحسب أننا وجدنا أفضل وسيلة لاحتجازكم؛ فالحرب مفيدة أحيانًا. لم تطاوعني يدي على ضرب مينامي ضربًا قويًّا بما يكفي لكسر أسنانه: لا بدَّ أن بعض الفلاحين يملكون قبضات بديعة حقًّا».

قال مينامي بمرح: «ضربني بمعزقه عجوزٌ مترهّل».

قاطعه المأمور صائحًا: «لا تتكلّمْ بلا إذن! استعدوا للمغادرة بعد خمس دقائق. هدفي أن نبلغ وجهتنا قبل حلول المساء. إذا تلكأتم فلن تأكلوا. هيَّا أسرعوا إذن!»

تفرّقنا متهلّلين واندفعنا نحو زريبة مزرعة دود القز القديمة حيث كنَّا قد سُلّمنا بطاقاتٍ ليوم واحد لجمع حوائجنا. بعد ذلك بخمس دقائق، ونحن نتأهّب للمغادرة، راح شريك مينامي في محاولة الفرار الفاشلة، مطلِقًا تأوُّهات خافتة، يتقيَّأ نتانةً ورديةً شاحبةً عند زاوية السياج. وقفنا في الطابور على درب المشاة ورحنا ننشد نشيد الإصلاحية البطيء، المخنَّث، الداعر والصادم، تصدح أصواتنا باللازمة المحشوة حشوًا بالرموز الدينية، إلى أن هدأت تشنُّجات معدته. أحاط بنا القرويون المندهشون، خمسة عشر فتى يعانون نقص الغذاء وينشدون، لابسين معاطفنا الخضراء الواقية من المطر، وفي صدورنا يغلي الإذلال والغضب الأسود المعتادان.

كان الزمن زمن قتل. كانت الحرب، وكأنها طوفان طويل، قد أرسلت جنونها العميم فطفح على تلافيف مشاعر الناس، وتسرّب إلى كلّ تجويف من تجاويف أجسادهم حتى آخرها، في الغابات والشوارع، وصولًا إلى السماء. حتى إن طيارًا كان قد أطلق رشاشاته بشكل محموم على باحة مبنى القرميد حيث كنَّا نقيم، هابطًا فجأةً من السماء، طيارًا أشقر شابًّا عرَّى مؤخرته؟ بفظاظة داخل جسم طائرته الحربية شبه الشفاف. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، بينما كنَّا سائرين

في الطابور لتلقّي مهامنا تباعًا، صادف أن امرأة كانت قد ماتت لتوّها جوعًا، وجسمها لا يزال مائلًا بالضبط خارج تشابكات الأسلاك الشائكة البغيضة للبوابة، انهارت أمام ناظرنا المأمور تمامًا. في معظم الليل، وأحيانًا في وضح النهار، كانت النيران من الغارات الجوّية تشعل السماء فوق البلدة أو تلطّخها بدخان داكن.

في ذلك الوقت، حين يفقد الراشدون صوابهم ويطلقون العنان لجنونهم في الشوارع، يكفي الإشارة إلى هوسٍ غريبٍ بحبس ذوي الجلد الناعم الملمس في جميع الأنحاء، أو ذوي حبة كستناء صغيرة متوهّجة في الأسفل فحسب؛ أولئك الذين ارتكبوا جُنَحًا تافهة، بمن فيهم مَن يُقدَّر بأنهم أصحاب ميول إجرامية.

مع اشتداد الغارات الجوية، ومع بدء ظهور أعراض استفحال الداء، بدأ أهالي نزلاء الإصلاحية باسترجاعهم، لكنّ أكثرهم لم يأتِ لاصطحاب أولادهم السيّئين المزعجين. لذا فإن المأمورين، وقد استحوذ عليهم الإصرار على التمسُّك بغنائمهم، خطّطوا لعملية إجلاء جماعي للأولاد.

في غضون الأسبوعين اللذين سبقا الإجلاء، كانت الرسائل الأخيرة من الأهل التي يطلبون فيها استرجاع أولادهم قد أُرسِلَت، فكانت تعتمل في النزلاء حمَّى الترقُّب. في الأسبوع الأول، حين حضر أبي، الذي كان مَن بلَّغ عني ذات يوم، منتعلًا حذاءً عسكريًّا وقبعة عامل حربي، مصطحبًا معه شقيقي الأصغر، طار قلبي فرحًا. غير أن واقع الأمر كان أنّ أبي، وقد أنهكه التفتيش عن مكان يُجلي شقيقي إليه، خطرت بباله فكرة انتهاز فرصة الإجلاء الجماعي لأولاد الإصلاحية. شعرتُ بخيبة أمل مريرة. ومع ذلك، بعد أن ذهب أبي إلى البيت، تعانقنا بشدّة.

خرج شقيقي عن طوره، وقد انضمّ إلى الأحداث الجانحين وأُجبر على ارتداء اللباس الموحَّد، فلم يتمالك نفسه انبهارًا وفرحًا طوال اليومين أو الأيام الثلاثة الأولى. بعد ذلك، راح يكلّم الآخرين بلا توقف، وعيناه مبتلَّتان تبجيلًا، يلحُّ في استنطاقهم عن تفاصيل جناياتهم؛ وحين هبط الليل، مستلقيًا معي تحت البطانية ذاتها، ومتنفسًا بصعوبة، راح يفكر مليًّا في التجارب الفظيعة التي سمع عنها لتوّه. إذ ذاك، بما أنه حفظ في ذاكرته قصص الآخرين الدموية الباهرة، فقد شاقه أن يخترع لنفسه جرائم متخيَّلة. كان من حين لآخر يهرع إليَّ ليخبرني، محمرَّ الوجنتين خجلًا، بخيالاتٍ من مثل إطلاقه من بندقيته اللعبة على عين بنت واقتلاعها من محجرها. في النهاية، انسلَّ شقيقي سلسًا كالماء في حياة مجموعتنا. فلعلَّنا نحن الأولاد، في زمن القتل ذاك، زمن الجنون ذاك، كنَّا الوحيدين الذين استطعنا أن ننمّي شعورًا بالتضامن. ثم، بانتهاء أسبوعَي الترقُّب والخيبة، شرعت عصبتنا، بمن فيهم شقيقي، في رحلة هي مزيج عجيب من الفخر والخزي.

المغادرة هي ما جعلتنا نهبُّ منطلقين خارج طوق السياج البرتقالي المتداعي، العجيب على نحوٍ لا يصدَّق؛ لكننا لم نحظَ منها بحرية أكبر. فكأننا كنَّا نسير على امتداد دهليز يصل بين سردابين. فالسياج البرتقالي المزعج استُبدِل به عدد لا يُحصى من المأمورين الجُدد ذوي أيادي مخشوشنة كأيادي الفلاحين ودرجة الحرية التي مُنِحناها في رحلتنا لم تَزِدْ عما تمتَّعنا به داخل السياج. اللذة الجديدة الوحيدة التي حصلنا عليها من خروجنا من السياج كانت أنه صار بوسعنا أن نحدّق إلى عدد كبير من الفتيان «الطاهرين» وأن نسخر منهم.

منذ البداية، كلَّما قمنا بمحاولاتنا المتكرّرة، متعذرة الكبح، للفرار،

كان لا يلبث أن يقبض علينا من جديد كبارٌ معادون في القرى والأحراش والأنهار والحقول ويعيدوننا أقرب إلى الموت، منَّا إلى الحياة. في نظرنا، نحن القادمين من مدينة بعيدة، كانت القرى أشبه بجدار مطاطي شفاف سميك، إذا ما نقبناه سرعان ما يُقذَف بنا خارجًا.

نتيجة لذلك، فإن الحريات الوحيدة التي كان بوسعنا التمتّع بها كانت السير على الدروب القروية التي تهبُّ منها سحب غبار شعواء أو الغوص في الطين حتى الكاحل؛ أو ترقُّب تراخٍ في تيقُّظ المأمور بينما نستريح في معابد أو مزارات أو زرائب ريثما نتمكّن من عقد صفقة سريعة مع القرويين للحصول على شيء من الطعام؛ أو محاولة الصفير وإغواء صبايا القرية ونحن نحرص حرصًا ميؤوسًا منه على أناقة لباسنا الموحَّد الذي لطَّخته مشقَّات السفر.

كان المقدَّر لرحلتنا أن تنتهي في غضون أسبوع. ولكن بما أن مفاوضات استقبالنا بين قائدنا وبين مخاتير القرى باءت بالفشل واحدة بعد الأخرى، فقد كنَّا حينها في الأسبوع الثالث من الرحلة. كان من المفترض أن نصل إلى آخر موقع مقرَّر عصر ذلك اليوم: قرية نائية ضائعة في أعماق الجبال. ولولا الفارَّين لَكنَّا على الأرجح وصلنا ولَكنَّا وقتذاك جالسين نراقب المداولات بين قائدنا وبين شيوخ القرية أو نستريح مستلقين على الأرض.

ما إن خمدت المعنويات العالية التي ألهمها الفارَّان بيننا حتى أسرعنا الخطى في صمت، منحنين إلى أمام، وحقائب عدَّتنا مدفوعة إلى خلف على أوراكنا. راح أكثرنا يمشون غارقين في التفكير، مقتسمين غمًّا كان يعتمل في صدورنا ويتصاعد إلى حناجرنا، ناهيك عن الفتى الذي كان يتأوَّه من أوجاع معدته وهو يسير.

أوشكت رحلتنا على الانتهاء. حتى وإن كنَّا بالكاد نتحرك في الظلمة، طالما الرحلة مستمرة، فعلى الأقل أتيحت لنا فرص جهيضة للفرار. لكننا كلَّما توغلنا في أقاصي البلاد الشاسعة، ووقعنا على قرية نستقر فيها في ما يتعدى أودية الجبال، كان لا يلبث أن ينتابنا شعور بأننا سجناء حفرة سحيقة، تطوّقنا جدران سميكة، شعور أشد حتى من شعورنا حين كنَّا مودَعين داخل سياج الإصلاحية البرتقالي. إذ ذاك كان ينتهي أمرنا. فما إن أطبقت علينا القرى الكثيرة التي ارتحلنا عبرها في ما يشبه الطوق الصلب، لم يعد يلوح لي أن بوسعنا أن ننسلَّ منه فارّين مرة أخرى.

إخفاق مينامي في ما كان على الأرجح محاولة الفرار الأخيرة كان العلَّة الأولى لامتعاضنا جميعًا. اعتمل فينا الاستياء نفسه وشعرنا بغضب مينامي نفسه نحو الفتى الذي أحبط محاولة الفرار، التي طالما انتظرناها بفارغ الصبر، بأمر تافه مثل وجع المعدة. كلَّما ارتفع أنينه، كنَّا نطلق الصفير إظهارًا لعدم اكتراثنا، حتى إن بعضهم راح يرمي الحجارة على مؤخرة الفتى المنكوب.

وحده شقيقي واساه، بغضّ النظر عن غضبنا المتجهّم، واستجوب مينامي عن تفاصيل فراره. غير أن قابلية شقيقي للإثارة ومعنوياته الطيبة لم يكن بمقدورهما أن يبدّدا الغمَّ الذي كان مخيمًا علينا جميعًا. وفي النهاية، ما إن كان التعب ينال منه من فرط المشي، حتى تمضي مجموعتنا قُدُمًا، مطأطأة الرؤوس، في ثيابنا الباهتة، سيئة التفصيل، من غير التفات إلى الكلاب النابحة أو إلى المزارعين وعائلاتهم الذين يهرعون من بيوت المزارع على جانبَي الطريق للتحديق إلينا. وحده المأمور المتين الذي يقودنا كان يسير منتفخ الصدر.

لو أننا مضينا قُدُمًا في سيرنا الفاتر لما أفلحنا أبدًا في بلوغ وجهتنا، حتى لو سرنا حتى بزوغ الفجر. لكننا بعد أن عبرنا بحذر جسرًا خطرًا كاد الفيضان أن يجرفه واتبعنا طريقًا جانبية مفضية إلى الطريق السريعة العريضة الذاهبة إلى الولاية التالية، وقع بصرنا على شبَّان بالزي العسكري ذوي وقار واتقاد رائعان: ثلَّة من طلاب الكلّية الحربية محشودين معًا، ورجال مسلَّحين من الشرطة العسكرية في منتصف العمر واقفين في الشاحنة المخطّطة بالأخضر المركونة على مقربة منهم. وإذ استرجعنا معنوياتنا على الفور، أطلقنا هتافًا وهرعنا صوبهم.

التفت طلاب الحربية عند سماعهم هتافنا، لكنهم وقفوا جامدين ولم يردُّوا. كانوا مسلَّحين بخناجر قصيرة. لقد كانوا، بوجوههم الصارمة، وأفواههم نصف المنفرجة، ورؤوسهم حسنة التكوين، في مثل جمال خيول متقنة الترويض. توقّفنا على بعد حوالى متر منهم وحدَّقنا إليهم بشوق. لم يكلّمهم أحد؛ وهم أيضًا كانوا هادئين، يبدو عليهم الشحوب وقلق البال. طلاب الكلّية الحربية هؤلاء، بملامحهم الرقيقة المضيئة في شمس المساء المتسلّلة عبر أجمّة شجر عارية على المنحدر اللطيف، هؤلاء الجنود الشباب، الصامتون وكأنهم حيارى، كانت أجسامهم تنضح قوّة شديدة، آسرة، كرائحة تفوح من جميع أنحاء أجسامهم. كانت أقوى بكثير منها عندما كان طلاب الحربية يحفرون جذور الصنوبر ويحرقونها لصنع مادة صمغية كثيفة ولزجة كريهة الرائحة أو يتجوّلون في البلدات ببزَّاتهم الأنيقة وثرثرتهم الغبية.

قال مينامي وهو يُدني رأسه من رأسي حتى كادت شفتاه أن تلامسا أذنيَّ، «هيه، لو شاؤوا أن أمارس الجنس معهم لفعلت في أيّ وقت لقاء

حفنة من خبز العسكر، حتى لو انشقت بواسيري وصرت كلّي متورمًا ومرضوضًا».

ندت عنه تنهيدة حسرة، فيما تجمَّع اللعاب عند زاويتي شفتيه الناتئتين استياءً، وهو يحدّق بعينين برّاقتين كالزجاج إلى أرداف طلاب الحربية المدوَّرة، المفلطحة قليلًا.

قال والشعور بالخزي يسري في وجهه: «حين قُبِضَ عليَّ كنت نائمًا مع واحد مثلهم تمامًا».

قلت «إيه؟ لا يجوز لك أن تسمّي نفسك بغيًّا لقاء حفنة من خبز العسكر. من عادتهم أن يصطادوا اللواطيين، حتى لو لم يكونوا بغايا».

قال «هاه» وهو شارد الذهن وتقدَّم وهو يدفع أقرانه جانبًا ليلقي نظرةً فاحصة على أولئك الذين كان يمكن لهم أن يكونوا زبائنه قبل سجنه.

أما شقيقي الذي كان يصغي بشغف إلى جانب المأمور ورجال الشرطة العسكرية وهم يتحدّثون، فقد التفت وجاءني راكضًا، وكتفاه ترتعشان إثارةً، وكلَّمني وعليه سيماء الاهتمام نفسه الذي يبدو عليه حين يهمس بأسراره.

«لقد فرَّ. أحد طلاب الحربية هرب إلى الغابة. الجميع يبحثون عنه. إذا ذهبنا إلى الغابة ستُطلَق علينا النيران».

سألت مندهشًا: «لماذا؟ لماذا فرَّ إلى الغابة؟».

كرَّر مسعورًا: «لقد فرَّ. لقد فرَّ. إنه في الغابة».

حالما تجمَّع رفاقنا من حولنا، كرَّر شقيقي الأنباء مرات عدّة بصوت

رتيب. قصدنا رجال الشرطة العسكرية. أمرنا المأمور بالوقوف جانبًا، ملوّحًا بذراعه ومشيرًا إلى شجرة. ثم أدلى برأيه حول حال الطريق التي سرنا عليها، داعيًا رجال الشرطة العسكرية إلى طرح مزيد من الأسئلة عليه. وإذ تجمَّعنا عند قاعدة شجرة كافور واطئة تنشر أغصانها في كلّ اتّجاه، وقد تعاظمت إثارتنا، غرسنا أقدامنا في الأرض وغمغمنا في حلوقنا، ناظرين، تباعًا، إلى طلاب الحربية الغارقين في الغم، وإلى رجال الشرطة العسكرية يستنطقون المأمور مختالين، وإلى سفح الجبل البني يزداد قتامة تحت غطاء من الأوراق الذابلة، مرسلًا وهجًا أرجوانيًّا، حيث لا بدَّ للفارّ أن يكون مختبئًا. ولكن بما أن وقتًا طويلًا انقضى من غير أن نعرف نتيجة مداولات رجال الشرطة العسكرية، بردت همَّتنا وأخذنا نشعر بالامتعاض.

بعد أن أخذ هبوب هواء المساء البارد يلقي بعباءة من العتمة على ملامح رجال الشرطة العسكرية والمأمور، أقبل رجل يركب دراجة هوائية قديمة الطراز. كلَّمهم، ثم حمَّل دراجته على الشاحنة. صاح رجال الشرطة العسكرية بصوت مرتفع، فاصطف طلّاب الحربية؛ ثم أقبل المأمور إلينا راكضًا.

قال: «قالوا إنهم سيقلُّوننا إلى وجهتنا في شاحنتهم».

استعدنا على الفور معنوياتنا وتزاحمنا صاعدين إلى الشاحنة ونحن نصرخ. وعندما انطلقت، وهي تطلق جلبة ميكانيكية، رأينا رتل طلّاب الحربية يمشي في الاتجاه المعاكس.

راحت الشاحنة، وهي تشخر وتنتفض، تتسلَّق الطريق الليلية المنحدرة الضيقة. في بعض الأماكن، كان ثمة انزلاقات في التربة سبَّبتها

الفيضانات، وعندها وجب علينا أن نترجَّل من الشاحنة. كنَّا ننتظر، ونحن نراقب ممرَّها الخطر، واقفين قبالتها على الطريق الصلصالية الحمراء المرصوفة التي تنيرها مصابيحها الأمامية، مقلّصين أعيننا أمام الوهج. غير أن القروي الكهل الذي جلس فوق الدراجة ضخمة الهيكل قديمة الطراز المطروحة على الشاحنة لم يحاول النزول، بل راح يدخّن تبغًا لاذعًا مصنوعًا من أعشاب مجفّفة. ظلّ هادئًا، متظاهرًا بعدم الاكتراث بنا، لكنّه أخذ أحيانًا يحدّق إلى أكتافنا ورُكَبِنا النحيلة، وعيناه المحتقنتان بالدم احتقانًا فظيعًا تدوران بمشقّة. وفي آخر المطاف، أشاح نظره عنَّا. تباطأت الشاحنة أكثر فأكثر، فيما صوت محرّكها يهدر هديرًا طائشًا في طبقات هواء الليل الكثيفة وهي تجري على الطريق الجبلية الوعرة. كانت أوراق شجر قاتمة مائلة إلى السواد تضغط من جانبي الطريق المتضيّقة، وريح باردة حاملة ضبابًا رطبًا تلسع وجناتنا، تذرُّ الرماد على إثارتنا من دون أن تخمدها تمامًا.

علاوةً على ذلك، كانت الكتفان المتوعّدتان للشرطي العسكري الراكع، الذي أبقى شفتيه مطبقتين بإحكام درءًا للريح العاتية، تردعاننا حتى عن الهمس في ما بيننا. بذا فإنّ رحلتنا في منتصف الليل جرت في صمت، باستثناء تأوُّهات صديقنا المتوجّع. ولكن كلَّما أضاءت مصابيح شاحنتنا الأمامية الوادي القاتم الذي تحفه الأشجار، كأنما يعكسها ماء النهر المتصاعد، أو التمعت فوق الذرى في أعقاب صرخات وحوش الليل التي كانت تتصاعد فجأة من أعماق الغابة، كنَّا نفتّش بأعين فاحصة عن الفارّ الذي قد يكون متواريًا هناك.

إذ ذاك تضافر إرهاق الرحلة الطويلة، وإثارتنا غير المسوَّغة،

واهتزازات الشاحنة، ومراقبة الشرطي العسكري، لتسحبنا إلى نوم عميق، فأرحنا رؤوسنا الثقيلة على الألواح القاسية الخشنة. وبما أن شقيقي كان قد غفا من فوره فقد هدهدتُ رأسه الوسيم بين ذراعيَّ لحماية هجعته الشبيهة بنوم الطفل. غير أني، إذ فعلت ذلك، غرقت بدوري في النوم، مستلقيًا عبر جسمه.

حين فتحت عينيَّ، وقد أيقظتني الهمهمة المهذارة الناجمة عن هجعتي المضطربة والذراع التي تهزّني، تأوَّهت بصوت عالٍ من هذا الإيقاظ غير المزعج الذي أمسى شبه روتيني من جرَّاء الغارات الجوية المتكرّرة. وجدت نفسي ممدَّدًا على الألواح الخشبية وشقيقي يحاول أن يهزَّني لعلَّه يفلح في إيقاظي تمامًا. كان الآخرون جميعًا قد ترجَّلوا من الشاحنة، والقروي، ممطّطًا بدنه القصير، يعاني صعوبة في فك عجلة الدراجة الأمامية العالقة بطرف الشاحنة الخلفي. نهضت واقفًا بسرعة ونفضت الغبار عن ثيابي وضغطت على ذراعَي المقود الباردين الرطبين لأمد له يد العون. كانت الدراجة ثقيلة جدًّا، وقد رماني الرجل بابتسامة ودّية بليدة من فوق ذراعيَّ المشدودتين المرتجفتين. وحين وضع الدراجة على الأرض قفزت من على الشاحنة، لكن شقيقي تردَّد. إذ ذاك رفعتْه ذراعا القروي القويّتان من دون عناء وأنزلتاه، وهو يضحك بخجل وقد تَدغدَغ.

بصوت خفيض يليق بصداقة جديدة كاذبة قال شقيقي: «شكرًا».

قال القروي: «يا هلا»، قابضًا على الدراجة.

في ما يتعدَّى هواء الليل القاتم، وخلف الامتداد المرتسم بغموض للطريق الضيقة الشاحبة، ظهرت نار مضطرمة في الهواء الطلق تجمهر

حولها أناس كثر. ذهب رجال الشرطة العسكرية والمأمور لاستطلاع الأمر. تبعهم القروي، متأرجحًا على دراجته تأرجحًا أخرق. احتشدنا عند الشاحنة، ومؤخرات أعناقنا مقشعرّة الجلد من فرط البرد، ورحنا نراقبهم. كان الجو باردًا. كان صنفًا غريبًا من البرد، بردًا جديدًا يتغلغل حتى صميم كياننا، وكأننا دخلنا إلى مناخ مختلف كل الاختلاف. فكرت بأننا توغّلنا فعلًا في الجبال. كنّا نرتعش كالكلاب، مقتربَين، متكاتفَين. كان ذلك أيضًا بسبب توتر جامد كان يحيط كأشجار الغابة بموقع تلك النار المشتعلة، مولّدًا تجاوبًا متعاطفًا حاذقًا ضمن مجموعتنا. رحت أرقب في صمت رجال الشرطة العسكرية والمأمور يدخلون وسط القرويين ويبدأون النقاش معهم.

أحاط القرويون برجال الشرطة العسكرية والمأمور وأخذوا يتشاورون على عجل، لكنّ مداولاتهم لم تبلغ آذاننا المشدودة بلا طائل. ومع تعوّد عيوننا الظلمة، كان بوسعنا أن نبصر، على ومضات متقطّعة كلّما اشتدّ اندلاع النار، عددًا من طلاب الحربية وحركة القرويين البطيئة الذين كان يحملون رماح خيزران ومعازق. كان ما يجري هناك أشبه بحرب صغيرة. رحنا نراقبها، مشدودي الأعصاب.

عاد القروي الكهل من دائرة الراشدين المتجادلين، وبعض الحطب مكدَّس على قفَّة دراجته الخلفية. طرح الخشب منها وعاد في صمت، ليعود هذه المرة قابضًا على غصن أخضر يتّقد بقوة وينزُّ نُسَغًا. وبينما كان يسند الدراجة إلى جذع شجرة، كوَّمنا الخشب وأوقدنا نارًا. غير أن الخشب احترق قليلًا بشقّ النفس. اندفعنا متبرّمين إلى داخل الغابة المتفرقة الأشجار وعدنا منها بأذرع ملأى بالأوراق اليابسة ورتّبنا بعناية حول النار غصينات ميتة، انكسرت بسهولة بصوت حاد. وبينما ألقى

القروي برأسه في الدخان، نافخًا على ألسنة اللهب بحماس شديد، ظهرت آثار حروق لا تحصى على عنقه المدبوغ بصفرة شديدة، الشبيه بعنق الثور مع كلّ انبساط وانقباض متشنّجين في اللّهب الصغير، ذاك العنق السمين بصلابته الميتة ومظهره المتيبّس.

عندما بدأت النار التي أوقدناها تطقطق بلطف وأخذ دخانٌ منتظم يصعد منها، بدأنا نشعر والقروي بإحساس بالتآزر من قيامنا بإيقاد النار معًا. إلى ذلك، ولأنّ الدم تسارع وراح يتدفّق تحت لحمنا المقشعرّ بردًا، مولّدًا حرارةً تسبّب حكةً في الجلد، لم نتمالك أنفسنا من الاسترخاء. كان شعور القروي مماثلًا لشعورنا. بلا سبب، وقفنا مبتسمين حول النار زكية الرائحة التي كانت الآن تتّقد بشراسة.

سأل شقيقي بصوت خجول: «سيدي، هل أنت حدَّاد؟ هيه، أأنت حدَّاد؟».

قال القروي بسرور: «أجل، عندما كنت في سنّك كنت أستطيع تطريق المناجل».

قال شقيقي بإعجاب صريح: «عظيم، هل بمقدوري أن أقوم بذلك أنا أيضًا؟».

قال القروي. «هي مسألة مِران. هل رأيت دراجتي؟ أعدتُ بناء الدوَّاستين وجعلتهما أمتن». نهض الحدَّاد، وأخرج دراجته من تحت الشجرة، وبسطها عبر حضنه أمام أعيننا المعجبة، وأطلق ضحكة قصيرة وهو يتتبَّع بِكُرَة إبهامه المتشقّقة محور الدوَّاسة المفرط في الثخانة، الأخرق والخشن، لكن الشبيه بطرف من أطراف الإنسان، كالمعزق أو المنجل، وذراع التدوير المهترئة.

قال شقيقي: «لم أكن أدري أن الحدَّادين يعيدون بناء الدراجات».

قال الحدَّاد: «بالطبع لم تكن تدري»، وهو يضع دراجته على التراب الأسود الذي كان ينفث بخارًا من فرط حرارة النار وألقى بقضيبين أو ثلاثة من الحطب في اللهيب. أردف من ثمّ: «لا أحد يعرف ذلك».

وإذ كنَّا نصغي إلى صوت نزيز النسغ، وحركة الهواء الهادئة، وصوت كتل الرماد وهي تسقط، وضحكة القروي العالقة بحنجرته، خطرت ببالنا في صمت دراجة الإصلاحية الواحدة الوحيدة. لا بدَّ أنها الآن متكئة على الجدار الداخلي، ومطّاط عجلتيها التالف المبقّع بالطين يتشقّق...

تصاعدت جلبة قوية حول النار الأخرى. كان رجل ذو صوت نافذ يلقي بالأوامر. وإذ رفعنا رؤوسنا وأمعنّا النظر في الظلمة الكثيفة، استطعنا رؤية الرجال هناك آخذين في الاصطفاف.

سأل أحدنا الحدَّاد. «إنهم طلّاب من الكلّية الحربية، أليسوا كذلك؟ هل هم جميعًا هنا للتدريب، أم أنهم يفتشون عن الفارّ؟».

أجاب الحدّاد عن سؤاله وكأنّه كان يتوقّعه. «آه، إنهم يصطادون في الجبال. ليس طلّاب الحربية فحسب، بل هم والقرويون يصطادون جميعًا سوية. قمنا بتمشيط الجبال طوال ثلاثة أيام دون أن نرى أي شيء. فلو أنه هرب في هذا الاتجاه لاصطدم بطريق مسدودة. إن السبيل الوحيد للوصول إلى قريتنا على الجانب الآخر من الوادي هو بواسطة الترولي. فلا أحد يقدر أن يعبر الوادي بسبب الفيضان. واقع الأمر أننا قمنا بتفتيش هذه الناحية برمَّتها لكننا لم نعثر عليه. سوف نكفّ عن المطاردة ونعود

إلى منازلنا على الجانب الآخر من الوادي. فلا بدَّ من أن الجندي غرق في قاع الوادي».

الصيد، مطاردة القرويين الليلية الصامتة وهم يحملون الرماح والمعازق؛ الجندي الملاحَق، وهو يجري عبر الغابات ويغرق في الوادي المغمور بالماء. تنهَّدنا عميقًا، مستغرقين في صورة المطاردة الدامية التي زعزعت أبداننا. كنَّا حقًّا في أتون الحرب الرهيب! وأزمة مخبّلة، أشبه بالوحش، تطلُّ برأسها القاتم نحونا. آه، الصيد!

قلت: «لا بدَّ أن ذلك كان مروّعًا، الصيد، لا بدَّ أنه كان مروّعًا».

قال الحدَّاد: «إنه رهيب. أسوأ من صيد الخنزير البري. حسبك أن تتخيّل القرويين يركضون ويضربون في الآجام طوال ثلاثة أيام من دون طعام أو شراب». على الرغم من مرارة تلك الكلمات، بدت سحنة الرجل بهيجة في وهج النار الساطع. كرَّر ما قاله على مهل شديد، وانعكاسات اللهب المتلامعة تتألق على شفتيه الغليظتين الرطبتين. «إنه رهيب؛ أن يكون جسمك مغطى بالخدوش في أنحائه كلّها، ومع ذلك لا تقع حتى على أرنب».

سأل شقيقي بدهشة واضحة: «هل تصيدون الأرانب بذلك الصنف من الصيد؟ والأرانب البرية؟».

قال الحدَّاد بصدق: «إذا وقعنا عليها، اصطدناها. الحمام، والدرَّاج، والأرانب».

بينما كان شقيقي ينحني إلى الأمام، وفي نيَّته أن يمطر الحدَّاد بوابل من الأسئلة عن حيواناته الصغيرة المحبوبة، أقبل المأمور وقروي

ضخم بخفة إلى نارنا. إذ ذاك أطبق الحدَّاد فمه واحتضن ركبتيه، مشيرًا إلى أن المحادثة بلغت نهايتها، فتيبَّسنا من جديد.

قال المأمور بنبرة ارتياح: «هو ذا مختار القرية الذي سيعتني بكم. انهضوا وانحنوا. نعم، هكذا».

وقفنا نراقب الرجل الضخم بذقنه الحادة، مرتديًا ثياب عمل قطنية سميكة وقبعة فراء تغطي أذنيه. بادلنا التحديق بعينين جفناهما السفليان متدلّيان؛ لكن بعينين تشعَّان بألقٍ بنيّ حاد.

قال المختار: «الترتيبات لاستقبالكم مهيَّأة منذ ثلاثة أيام»، وحرّك فكَّه بشعيراته الخشنة الناتئة وكأنه يمضغ حبوبًا. تابَع: «بوسعكم أن تستريحوا».

قال المأمور: «أستودعكم عهدة حضرة المختار. فقد قرّرتُ أن أستقل شاحنة الجيش لتوصلني وأعود لمرافقة المجموعة الثانية. أما أنتم، فكونوا مؤدَّبين. اتفقنا؟».

دوَّى صوت المختار، مغطيًا موافقتنا الجماعية: «نحن القرويين سوف نفكّر في ما نفعل، بحسب موقفكم».

«لا تسبّبوا المشكلات. يا قائد المجموعة، إذا كسر أحدهم القواعد اكتب ملاحظة عمَّا جرى. ولسوف أعاقبه حين يتمُّ الإجلاء».

كان هذا النوع من الإجراءات مسلَّطًا علينا طوال الوقت، مقيّدًا ومؤخّرًا أعمالنا، يشدُّنا إلى أسفل، إلى بلبلة يثقلها السخط والإرهاق. تسليم القائمة بالأسماء، التفقُّد؛ تعيين قائد المجموعة؛ بعد ذلك جوقة ضعيفة تؤدّي نشيد الإصلاحية؛ مزارعون متَّسخو الوجوه، بثياب ممزقة، ممسكون بأسلحة، يدفعهم الفضول إلى التجمع تدريجًا

حول مجموعتنا التي أتلفها الجوع. كنَّا جميعًا رثّي الثياب، شديدي العصبية، متوجّسين.

أقبل طلاب الحربية من النار الأخرى سائرين في الرتل للصعود إلى الشاحنة. رحنا نراقبهم بينما كانت الشاحنة تنعطف محدِثةً ضجيجًا كالزعيق، لكنّهم كانوا متعَبين، وجوههم مثقلة بالقنوط، واجمة، طار منها شبابها وجمالها. هم أيضًا كانوا قد قطعوا الدروب الجبليّة بعد المطر، وطافوا بالوادي الذي تتخلَّله انهيارات التربة كبثور الجدري، يطاردون الفارّ، فتبدَّد جمالهم الشهواني، المفعم بالصلابة والحيوية.

فارقنا طلاب الحربية والمأمور يستقلّون متن الشاحنة، ورحنا نصعد الدرب الجبلي الضيّق شديد الانحدار، يقتادنا المزارعون الصامتون المسلّحون برماح الخيزران والمعازق. كانت الأجمات القاتمة تنغلق علينا، ممزّقةً لحومنا المجمَّدة بردًا، ساحبةً دمًا من أصابعنا، من خدودنا، من الجلد بين شحمة الأذن والقذال. ومع اضمحلال الجلبة الصادرة من الشاحنة سمعنا صوت ماء هادر آتيًا من أعماق غابة الليل، فأرهفنا أسماعنا وأسرعنا في سيرنا رأسًا. سرت فينا عدوى سكوت الفلاحين، فلم يجرؤ أيٌّ منَّا على النبس بكلمة فيما قطعنا الغابة وسرنا بمحاذاة جروف الوادي العالية حيث كانت تهبُّ ريح قارسة، قاسية، وحتى حين أفضى بنا السير إلى إفريز حجري مسطَّح.

عند نهاية الإفريز الحجري القاتم كان ثمّة إطارٌ خشبي متين يلتقط الضوء الخافت. وكان ثمّة ترولي لنقل زنود الخشب يقف على مسلك يمتدُّ عبر الوادي. اتَّبعنا تعليمات المختار، فركبنا فيه.

حذَّرنا المختار مرارًا. «إيَّاكم، ثمّ إيَّاكم أن تتحرّكوا»، وذلك بعد أن صاح بإشارة لعامل الرافعة، الذي بدا أنه كان على الجانب الآخر

من الوادي. وتابَع: «إذا تحرَّك أيٌّ منكم فستنقلبون جميعًا وتموتون. لا تتحرّكوا، لا تتحرّكوا البتة».

وقع صوتُه الثقيل الرتيب علينا وقوع أزيز الحشرات، فتراكم على أجسامنا المكسوّة بقشرة من الوسخ واختلط بصوت الماء المتصاعد من قاع الوادي القاتم العميق. انتظرنا المغادرة في سلَّة الترولي الضيّقة، المطليّة بالجير، جالسين بلا حراك، مكوَّمين منهكين بعضنا فوق بعض مثل كلاب شاردة اصطادها صيَّاد الكلاب. «إيَّاكم، ثمّ إيَّاكم أن تتحرّكوا: إذا تحرّك أيٌّ منكم فستنقلبون جميعًا وتموتون. لا تتحرّكوا، لا تتحرّكوا البتة».

ما لَبِثَ الترولي من ثمّ أن انطلق. أخذ يتقدَّم ببطء، ونحن فيه، على طول المسلك عبر الوادي العميق، مهتزًّا بلطف، ودلف إلى سحابة من الأبخرة الكثيفة الخانقة المنبعثة من لحاء الشجر وبراعمه، على امتداد الغابة على الجانب الأقصى، الأشد قتامة من قعر الوادي. راح هواء ليل الشتاء القارس الجاف يلتفّ بإحكام حول السلَّة المنزلقة على طول المسلك الضيق غير المستقر، واليافعون مسمَّرون في داخلها وحبل الأسلاك المعدنيّة المجدولة يسوقهم.

مددتُ ذراعي متلمّسةً بين الأجسام المتلاصقة حتى الاكتظاظ، حتى عثرت على راحة يد شقيقي الليّنة وضغطت عليها بإحكام. تسرَّبت حرارةٌ من أصابعه الضاغطة، المتجاوبة بكلّ قوَّته الواهنة، فجاءتني من النبض الفتيّ حيويةُ مرونةٍ حاذقة، كحيوية أرنب أو سنجاب. ولا بدَّ أن ذلك الشعور إيَّاه قد انتقل من راحة يدي إليه أيضًا. استبدَّ بي الجزع، فجعل شفتيَّ ترتجفان والإرهاق ينتشر في أنحاء جسمي كلّها، ثم يتدفّق

من يدي إلى يد شقيقي؛ ولا بدَّ من أنه كان يعاني ما أعانيه. كنَّا، كشحنة كلاب فقدت إرادة المقاومة، نتعرَّض لهذا العبور الخطر، فكابدناه ونحن نعضُّ على شفاهنا خوفًا.

كانت أصوات صياح راشدين تنمُّ، بلهجة محلّية خشنة، عن سخط شديد، وتتجاوب متقطّعةً من كلا جانبي الوادي فتتصادى حتى قاعه. لكننا لم نفقه منها شيئًا. كل شيء ما خلا رائحة وادي الليل النفَّاذة الغنية وصرير المسلك كان يحتدم فوق رؤوسنا الصغيرة المطأطأة كصوت ريح عاصفة في الليل.

أخذ الفتى الذي كان قد عانى ألم المعدة طوال مسيرتنا الطويلة إلى الوادي في التأوُّه من جديد خلف أسنانه المصطكة. كان يصارع الوجع الذي يعتصر أحشاءه بلا حراك، فيتأوَّه بصوت ضعيف.

قال مينامي ببرود. «ويحك، إيَّاك أن تتقيأ على كتفي».

كتم الفتى صوته المتأوّه، قال «آه» وكأنّه يتنهد. رأيت وجهه الصغير الشاحب ويده الضاغطة على فمه بين أجسام رفاقنا المتكوّمة وخفضت بصري من جديد. ماذا كان بوسعنا أن نفعل حيال الأمر؟ لم يكن أمامنا إلا أن نبقى لاطين حتى تنتهي المركبة المحمَّلة بالفتيان من قطع الوادي.

أخيرًا، حين توقف الترولي بصدمة خفيفة، صاح بنا مزارع شاب، ممتطيًا الحبل الغليظ الملتفّ على جُزْع خشبي ثخين، وهو يدفع بوتد ساند في موضعه:

«ها قد وصلتم. اخرجوا، بسرعة!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

المهمَّة الصغيرة الأولى

أخذنا نهبط، ونحن محاطين بالقرويين الصامتين القابضين على أسلحتهم، الدرب الضيق المنحدر المتوغّل في الغابة الرطبة المظلمة. صوت لحاء الشجر المتجمّد المتشقّق عميقًا في الغابة، وخشخشة الحيوانات الصغيرة وهي تهرب خلسة، وصرخات الطيور الحادّة وضربات أجنحتها المفاجِئة - هذه كلُّها كانت تهدّدنا، ومرارًا ما جعلتنا ننكمش حذرًا. كانت الغابة ليلًا مثل بحر هائج بهدوء. حاصرنا القرويون، من أمام وخلف، وكأننا أسرى حرب، مع أنه لم يكن من داعٍ لذلك. فحتى أشد فتياننا طيشًا لم تواتِهم الشجاعة على الاندفاع في الغابة الشاسعة التي كانت تثور وتهدأ على التناوب، كأنها بحر. بعد عبور الغابة، راحت الطريق تتمادى بعيدًا في الظلمة الشاحبة، مفروشة بحجارة صغيرة صيَّرها المطر والريح مدوَّرة، ملمسها اللطيف تحت القدم جعل النزول أيسر. ثم، أبعد من ذلك، كان ثمة قرية صغيرة، تفترش واديًا مقوَّسًا ضيقًا.

كانت بيوت القرية متلاصقة، متراصّة على نحوٍ كئيب بعضها إلى جانب بعض كالأشجار في الغابة السوداء. احتشدت في صمت

مثل وحوش الغابة، مصطفّةً من حافة الوادي المنخفضة إلى جوفه العميق، تتخلّلها فجوات حينًا، لتعود إلى التلاصق حينًا آخر. خالجنا انفعال مبهم حين توقّفنا ونظرنا إليها من فوق.

شرح لنا المختار «لقد أطفأوا الأضواء بسبب الغارات الجوية، فمأواكم أعلى قليلًا من هذه المجموعة من البيوت، في المعبد الواقع إلى اليمين من برج رصد الحرائق».

أمعنّا النظر، فرأينا، على مرتفَع أشدّ ظلمة حتى يشكّل بداية سفح يؤدي صاعدًا إلى الجبل على الجهة المقابلة تمامًا، برجًا جاثمًا حديديَّ الإطار قصيرًا، يندمج كالشجرة في الغابة إلى خلف، ثم وقع بصرنا من فوق إلى يمينه على مبنى ذي طابق واحد أكبر من بيوت القرية في قاع الوادي، وقبالته، على مبنى آخر كبير ذي طابقين. أحاطت المبنى ذي الطابقين بيوت عدّة أصغر محاذية له، وأبعد من ذلك، بأسوار من الصلصال. حدَّقنا إلى البريق الشاحب للأسوار الصلصالية الخفيضة.

قال شقيقي «أودُّ أن أقيم في ذلك الطابق الأعلى»، فانفجر الضحك بين القرويين إلى جانبنا. كان ضحكهم مشحونًا بقوة خفيَّة ومقصودًا للتهكّم.

كرَّر المختار: «مأواكم هو المبنى ذو الطابق الواحد المقابل له. مفهوم؟».

قال أخي بخيبة أمل صريحة: «آه هذا ما خمَّنته».

مضينا في السير، والقرية تزيدها عتمةً ظلالُ الأشجار العجوز المخيّمة على جانبَيْ الطريق المعبَّد، حاجبةً السماء. وجب علينا بعدئذٍ

أن نسير طويلًا، حتى نزلنا أخيرًا في الوادي، الذي تبيَّن أنه أوسع وأكثر تعقيدًا مما توقّعنا، تتخلّله بضع قطع شاحبة من الأرض مزروعة بخضار غير مجنيَّة أتلفها الصقيع تلمع بين البيوت.مكتبة .. سُر مَن قرأ

كانت البيوت تبدو، بأبوابها الخشبيّة المغلقة، غارقة في النوم، لكننا لحظنا على الفور عيونًا خرزية تتفرّس من أطراف الأبواب المواربة ومن زوايا النوافذ، فكان علينا أن نغضَّ أبصارنا لنتجاهلها. كانت كلاب تنبح.

عند أسفل المنحدر غيَّر موكبنا طريقه، تاركًا وراءه نحو نصف القرويين، وراح يتسلَّق دربًا ضيّقة حادّة الانحدار تمرّ بمحاذاة بئر مفتوحة، عبر نتانة رائحة قمامة قديمة متعفّنة زكمت مناخرنا، لتفضي إلى طريق أخرى معبَّدة. على اليسار، كان ثمة فسحة مفتوحة ومبنى ذو نوافذ عدَّة.

قال المختار: «تلك مدرسة القرية، إنها مغلقة الآن. فالطرق من البلدة قد جرفها الفيضان، والمدرّسون يأبون المجيء. لقد اضطررنا إلى إغلاقها».

كنَّا أشد تعبًا من أن نهتمّ بالمدرسة، والمدرّسين الكسولين، وأطفال القرية المسرورين بعطلتهم الطويلة غير المتوقَّعة. واصلنا السير صامتين، منكّسي الرؤوس. وبينما كنَّا نتسلّق السفح رأينا منشأة شبيهة بمستودع، وبعده مبنى متين البناء، مختلفًا عن البيوت المتداعية، البالية حدَّ الفظاظة والمحاذية لجانبي الطريق التي مررنا بها، محوطًا بجدران تتخلَّلها قَلْبات قصيرة من الدرجات الحجرية.

أبعد منه، كان ثمة معبد ذو حديقة ضيّقة وطُنُف غائرة بما يكفي لحجب السماء. بعد أن وقفنا مصطفّين في الحديقة، مررنا بإجراء الدخول السخيف، المفصَّل بدقة، إلى مأوى جديد: «لا تشعلوا نيرانًا في المبنى؛ لا تلوّثوا المراحيض؛ الوجبات أصلًا سوف يأتيكم بها القرويون». تلقينا هذه النواهي والتحذيرات، مكابدين الأمر برمَّته، مومئين برؤوسنا طائعين.

صاح المختار فجأة بصوت فظ في نهاية خطبته: «مهمَّتكم هي تنظيف حقول الجبل، فلا تتهرَّبوا، كلُّ مَن يُقبض عليه وهو يسرق، أو يوقد نارًا، أو يشاغب، سوف ينهال عليه القريون بالضرب حتى الموت. لا تنسوا أنكم هنا مجرَّد حشرات. مع ذلك، سوف نؤويكم ونطعمكم. تذكروا دومًا أنكم لستم في هذه القرية سوى حشرات لا نفع منها».

وقفنا في الحديقة المعتمة الباردة، فتيانًا متعبين، يمتصّون النوم كما الإسفنجة تمتص الماء، مرهقين إلى حدّ أننا لم نستطع حتّى الكلام. والأنكى من ذلك أننا قبل أن يُسمَح لنا بالدخول كان علينا أن نغسل أقدامنا ونخضع لفحص بدني.

بعدما غادر آخر القرويين، جثمنا في الظلمة بما أنه كان قد أطفأ اللمبة الكهربائية العارية. كنَّا نتلمَّس طريقنا بأصابع مطلية بالملح واللعاب علَّنا نجد حبَّات البطاطا الغليظة في سلة الخيزران، حتى فزنا صابرين بوجبة آخر الليل هذه. رحنا نأكل في صمت حبَّات البطاطا المتعرّقة الباردة أصلًا، وإحساس برواسب رملية يدغدغ الجزء الخلفي من أفواهنا.

ما أفقر الوجبة التي قُدّمت إلينا، الوجبة التي كانت بانتظارنا في نهاية رحلتنا الطويلة! ثلاث سلال ممتلئة بحبَّات البطاطا العجفاء

وحفنة من الملح الصخري القاسي. استبدَّت بنا الخيبة والغضب. ولكن بما أنه لم يكن بمقدورنا أن نفعل غير الأكل فقد رحنا نأكل بصبر. كنَّا جالسين وحولنا جدران بيضاء وعوارض خشبية سميكة ممتدّة بينها على حصير المعبد الرطب الذي كان مفصولًا عن المدخل الضيِّق ذي الأرضية الترابية وعن المرحاض بباب خشبي. مجرَّد جلوسنا هناك جعل داخل المكان خانقًا. لم تكن ثمة غرف أخرى في ذلك المبنى، كما لم يكن هناك قرويون مقيمون فيه.

زادت بقية قليلة من حبَّات البطاطا عن حاجتنا، لكن مِعَدنا في النهاية ما كانت لتتقبَّل أيَّ مزيد من الطعام الرديء؛ كذا فإن النعاس، ممتزجًا بشعور مبهم بالأسى آتٍ من الإشباع، تسرَّب كالماء إلى رؤوسنا اللينة. واحدًا تلو الآخر تركنا السلال، ومسحنا أصابعنا على مؤخرات سراويلنا، ثم استلقينا على ظهورنا، متقاسمين في ما بيننا البطانيات الرقيقة. أخذت عيوننا التي تكيّفت مع الظلمة تستكشف العوارض الخشبية عبر الهواء الضبابي.

كانت تأوُّهات الفتى الذي عانى أوجاع المعدة طوال الرحلة تملأ داخل الغرفة المكتظ، لكن لم يولِه أيٌّ منَّا اهتمامًا. أجهدنا أبصارنا وأصخنا أسماعنا في الظلمة. كانت صرخات حيوانات غامضة، وأصوات لحاء يتشقّق، والضجيج العارم من جراء هبوب الريح المفاجئ، تنهال علينا من الخارج.

بغتةً، استوى شقيقي جالسًا من وضعية نومه، وجبهته متكئة على ظهري. تردَّد لحظة.

قلت بصوت خفيض مكتوم: «ما الأمر؟».

قال بصوت عصبي أجش «أنا عطشان ثمة بئر في الحديقة. أريد أن أذهب لأشرب الماء».

«سأذهب معك».

قال بنبرة منفعلة «لا عليك»، وقد بدا أنّ مشاعره جُرحت، «لست خائفًا».

نهضت قليلًا، ثم اضطجعت من جديد وسمعته ينزل حتى الأرضية الترابية ويحاول فتح الباب المنخفض المفضي إلى الخارج. بدا لي أنه يواجه مشكلة. عبثًا كرَّر جهوده بضع مرات، ثم بعد أن تذمَّر عاد إليَّ وقد بدت الحيرة واضحة عليه.

قال خائبًا: «إنّه موصد من الخارج، لا أدري ما العمل».

سأل مينامي بصوت عالٍ شحن جوَّ الغرفة بالتوتر: «أهو موصد؟ سأحطّمه».

قفز نازلًا على الأرضية الترابية وهجم على الباب المنخفض بعنف، لكن، على عكس توقعاتنا، كلُّ ما فعله هو إطلاق شتائم بذيئة. سمعنا صوت مينامي وهو يرتمي بجرأة على الباب المنخفض، مرتدًّا عنه المرة بعد المرة. لم يتمكّن من معالجته.

قال مينامي بغضب: «أوغاد»، بعدما عاود الصعود من الأرضية الترابية ودفن نفسه تحت بطانية رفيقه. تابَع: «إنهم يريدون أن يبقونا محبوسين. لن يسمحوا لنا بالشرب، ولا حتى بمجرَّد إعطائنا حصة البطاطا نفسها التي يعطونها لخنازيرهم».

خَنَقَنا العطش مثل نوبة مشتركة. أخذ اللعاب يتكثّف في أفواهنا،

وألسنتنا يشلُّها الوجع. كان لا بدَّ لنا من النوم. غير أن الجو كان قارسًا. والأنكى أن العطش أنشب فينا مخالبه. كنَّا نستعمل كل القوّة في أجسامنا المتعبة فقط لنمنع صعود النشيج والتفجّر في حلوقٍ سبق للعطش الرهيب أن خدَّرها.

في صباح اليوم التالي، تحت أنظار رجال القرية الذين أتوا لفتح الباب الخشبي من الخارج، ونسوة القرية اللواتي جئننا بالطعام ملفوفًا بقماش خشن، وأطفال القرية الذين اختلسوا النظر إلينا وهم متوارون خلف الأشجار وزوايا الجدران، رحنا نأكل كرات صلبة من الأرزّ الأسمر، ونزدرد يخنة الخضار بأصابعنا، ونشرب الشاي من آنية من النحاس الأحمر. لم يكن الطعام جيدًا، ولا كافيًا. لكننا أكلنا في صمت.

بعد الوجبة، أقبل الحدَّاد صاعدًا السفح وبندقية صيد على كتفه، فغادر القرويون الآخرون. غير أن الأطفال، المنهمكين في مراقبتنا بشغف، لم يحاولوا حتى تحريك ساكن. وعندما لوَّحنا بأذرعنا وصحنا فيهم، أصروا على البقاء ساكتين، ووجوههم المصْمَتة ترابية اللون خالية من أي تعبير.

تمعَّن الحدَّاد فينا برهة، وتفحّصنا من أعلى إلى أسفل، ثم توجَّه نحو الفتى الذي أنهكته أوجاع المعدة منذ الليلة الفائتة، حتى إنه لم يقرب الطعام الذي جُلب له إلى جواره. وبينما كنَّا نتفرَّس في الحدَّاد صامتين وهو منحنٍ على رفيقنا الشاب المنهك يفحصه عن كثب، التفت بنظره إلينا من فوق كتفه العريض، ونصف ابتسامة مرتبكة مرتسمة حول شفتيه.

«باستثناء هذا الولد، بانتظاركم جميعًا عملٌ تقومون به».

قلت: «عمل؟».

صاح مينامي ممازحًا: «هل سترغموننا على العمل هذا الصباح؟ فلنأخذ اليوم قسطًا من الراحة».

أجاب الحدَّاد باهتياج مرتبك: «ما ستقومون به اليوم لا يقرب من العمل ولو قليلًا، ستدفنون فقط بضعة أشياء صغيرة».

سأل شقيقي وقد استثير فضوله: «ندفن ماذا؟».

ردَّ الحدَّاد ساخطًا: «لا تجبني كلَّ مرة بسؤال، هلمُّوا إلى الخارج وشكّلوا صفًّا».

تدافعنا بصخب وعقدنا أربطة أحذيتنا، ثم اندفعنا خارجين إلى الحديقة. تابع الحدَّاد حديثه إلى الفتى المتهالك؛ ثم، حين أسرع في الخروج، تبعناه نزولًا على السفح. أقبل أطفال القرية متراكضين كسرب النحل خلفنا، لكنهم بقوا على مسافة منَّا. حين التفتنا وأومأنا إليهم مهدّدين، تقهقروا من فورهم، ما لبثوا من ثمَّ أن عادوا يتعقبوننا من جديد وهم يراقبونا بحذر.

كان الصبح قد انبلج عن نهارٍ شتوي صافٍ. كان وسط الطريق المغطى بحجارة مكسَّرة، ممتدةٍ في المنتصف على هيئة تحدُّب بارز كظهر الخنزير، جافًّا وينبعث منه الغبار، لكنّ أعمدة من الجليد، أخذت تُحدث صريرًا لتنهار فجأة ونحن ندوس عليها، بقيت على الحافتين حيث تنتشر بغير اتساق أعشاب برية يابسة مصفرَّة السويقات. أما البرودة، فكانت تخترق الهواء حوالينا كالسهام، حاملةً رائحة نتن خفيفة من روث الخيل المجمَّد.

عند أسفل السفح، كانت ثمة طريق أعرض بقليل، مرصوفة بحجارة مدوَّرة بحجم الطوب وبيوت صغيرة خفيضة، تلك البيوت التي سبق أن رأيناها الليلة الفائتة عبر الهواء القاتم. لكنّها كانت الآن مغمورة بشمس الصباح، فكانت سطوحها المسقوفة بالقش وجدرانها الترابية تعكس بريقًا ذهبيًّا لطيفًا. الجبال التي روَّعتنا إبَّان الليل، والغابة المتفرّقة التي تقطعها الطريق من الوادي، وقوس الأرض الحراجية المائل بانحدار شديد، المحاذي للطريق والمحيط بالقرية، كانت كلها طافحة بضياء أزرق ولمعان بني شاحب، وكان تغريد الطيور يتعالى من كل صوب. أخذت معنوياتنا ترتفع شيئًا فشيئًا، ثم فاضت فجأة، حتى إننا كدنا نشتهي الغناء. كنَّا قد وصلنا إلى القرية التي سوف نقضي فيها ما تبقى من الشتاء وعدّة فصول بعده، وكنَّا مستعدين للعمل. إن العمل لأمر جيد. فحتى الآن، كان العمل الوحيد الذي كُلّفناه هو تشذيب الألعاب، أو زرع البطاطا العبثي في تربة قاحلة، أو في أحسن الأحوال صنع صنادل خشبية النعال. كان سكوت الحدَّاد، وهو يغذُّ في السير منحني الظهر، يضفي على هيئته سمة الكادح الصادق. وسَّعنا مناخرنا مترقبين، وتنشقنا الهواء البارد مرتجفين.

صاح شقيقي: «هناك كلب نافق، انظروا، إنه مجرّد جرو».

دخلنا في أجمة من الأعشاب عند أصل شجرة مشمش خفيضة كان شقيقي قد ركض إليها، فرأيناه.

«هذا الجرو قُتل من جراء داء في المعدة». وبينما هو يصيح، ملتفتًا بوجنتيه المحتقنتين ليواجهنا، هرع إليه صبيَّان أصغر سنًّا. «إنّ بطنه منتفخ».

صرخ الحدَّاد، ووجهه لا يعطي أي انطباع، ملوّحًا بذراعه نحوهما مهدّدًا: «لا تغادروا الرتل من دون إذن».

عجَّل شقيقي ورفيقاه، وقد بدا عليهما الارتباك، في العودة إلى الرتل. شعرت بأنه لم يستطع أن يخفي شعوره بالاستياء من خيانة صداقة الليلة الفائتة مع الحدَّاد.

قال الحدَّاد بنبرة رخوة: «تعال إلى هنا واسحب ذلك الكلب معك»، معاملًا إيَّاه بشيء من المحاباة. ضحكنا، وحار شقيقي في أمره. بيد أن الحدَّاد كرَّر إيعازه بحزم.

«اعقدْ حوله قطعة حبل واسحبْه».

لم يعد شقيقي متردِّدًا، بل سارع إلى التقاط قطعة حبل متيبّسة من فرط تجمُّدها من بين الأعشاب وانحنى فوق الكلب النافق. هتف الصبيَّان الأصغر سنًّا وذهبا لمساعدته.

قال مينامي بصوت خفيض، مفتعلًا كآبةً هازلة: «سوف يشوونه ويرغموننا على أكله، سيكون الأمر مروّعًا».

قلت: «أنت تأكل حتى القطط أو الجرذان أو أي شيء».

قال بصوت ذاهل قليلًا: «ثمة قطّة نافقة هنا»، بالفعل كانت القائمتان الخلفيتان الموبَّرتان الدقيقتان لقطّة بارزتين من بين العشب المعقود عند قدميه. «إنها قطّة مرقطة».

قال الحدَّاد بهدوء: «اسحب معك القطّة أيضًا. لا تتلكَّأ».

بشعور مخنوق نوعًا ما، شددنا بالحبل معًا جثتَي الكلب والقطّة منتفختَي البطن مكزَّزتَي الفكين وسحبناهما معنا.

نزلنا الممر الضيق المكسو بالعشب حيث كان القليل من الثلج المتّسخ لا يزال مطروحًا بجانب مبنى المدرسة البدائي. من هناك نزولًا، كان سفحٌ شديد الانحدار يقود إلى الوادي الضيق الذي ينغلق وكأنه قعر كيس. كان أيضًا نوعٌ ما من النفق المفتوح مثل مهوى منجم مهجور في المرتفع الصغير المقابل، وعنقود من البيوت الصغيرة البالية.

هبطنا السفح بخطى سريعة حتى الوادي.

حيث توارى الممرّ الضيق في المرج المكسو بالصقيع الذائب، لحظنا سقيفة وزريبة. أقحم الحدَّاد أحد كتفيه عبر مدخل السقيفة التي كانت مبنيّة من الحطب غليظ القطع، وصاح.

«هل فُقد أيُّ واحد من منزلك؟».

قال صوت خفيض غليظ: «ولا واحد»، كانت ثمة أصوات تدلُّ على نهوض أحدهم داخل السقيفة المعتمة. «حتى الآن، ولا واحد».

«سأستعير معازقك».

«حسنًا».

دلف الحدَّاد من المدخل الترابي وعاد حاملًا عدة معازق ألقى بها على الأرض الرطبة. كانت هذه معازق مستعملة في الجبال، مزوَّدة برؤوس حديدية غليظة كليلة مثبَّتة على مقابض قصيرة غليظة: معازق ثقيلة جدًّا. تزاحمنا لالتقاطها من الأرض وتنكُّبها. لقد شاقنا وملأنا اعتزازًا أننا أُعطينا أدوات؛ وأكثر حتى: أننا أُعطينا عِتادًا زراعيًّا متينًا مخصَّصًا للرجال، وكأننا رجال حقيقيون.

غير أن سلوك الحدَّاد نحونا لم يكن ملائمًا كل الملاءمة لرجال

حقيقيين. فقد لقَّم بندقيته وصوَّبها نحونا بعناية بينما كنَّا نلتقط الأدوات ونتنكَّبها. خرج القروي من السقيفة ونظر إلينا وإلى الجثّتين اللتين سحبناهما معنا من غير أن يغيّر البتة من تعبير وجهه. أدهشنا قليلًا جمود حسّه، لكنَّ الجلد المترهّل تحت عينيه مثل كيسين من المخاط بدا وكأنه موشك أن يتورَّم، فيُغمض عينيه ويبعث به إلى النوم.

قال الرجل ببطء، وكأنه ضَجِر: «هل هذا كل شيء لهذا الصباح؟».

قال الحدَّاد: «ستكون بقرتك هي التالية».

قال الرجل ممتعضًا: «إذا ذهبت البقرة سوف ينتهي أمري. أعني إذا ذهبت بقرتي سوف ينتهي أمري».

هزَّ الحدَّاد رأسه وأشار علينا أن نهبط إلى المرج. حَرِصَ على ألا يتقدَّمنا ويدير لنا ظهره بينما نحمل الأدوات التي كان بإمكاننا أن نستعملها كأسلحة. ركضنا نازلين إلى نهاية الوادي حيث كان نهره الضيق يلمع في الشمس. كان يسري هناك نسيم لطيف، أثقل وأكثف من الهواء في القرية، جالبًا قليلًا من الدفء.

استدرنا ونظرنا إلى أعلى باتجاه سفح الوادي. كان أطفال القرية قادمين نزولًا بسرعة وراء الحدَّاد، وبيوت القرية جاثمة على السفح كسرب من الطيور حين رفعنا أبصارنا لرؤية السماء الزرقاء الباردة القاسية. أشار الحدَّاد إلينا أن نتحرَّك إلى اليمين، ملوحًا بذراعه بعنف. مشينا بين أعشاب ذوات سوق خشنة تخدش جلودنا، وعَلِقَ طين وبذور شَعراء لأعشاب بَقْلية بالأطراف المتخشِّبة للجثّتين اللتين كانتا كالنبات لا تُحرّكان ساكنًا.

إذ ذاك توقفنا فجأةً قبل أن نبلغ رابية من الأشياء الغريبة المكوَّمة،

ونحن نتنفّس بشدّة، بأحذيتنا الثقيلة التي اتّسخت من التخويض في الطين.

كلاب، قطط، فئران حقل، ماعز، وحتى مُهَر - عشرات من الجِيَف الحيوانية كانت مكدَّسة، مشكِّلةً تلّة صغيرة، تتفسَّخ في هدوء وتؤدة. كانت أسنان الحيوانات مطبقة، عيونها ذائبة، قوائمها متخشّبة. كان لحمها ودمها الميتان قد تحوّلا إلى مخاط سميك جعل العشب الذابل الأصفر والطين حواليها دبقًا - إنما بغرابة، مفعمًا بالحياة، صامدًا ضدّ هجمة الانحلال الشرسة - وكان ثمة ما لا يحصى من الآذان.

ذباب الشتاء السمين كان ينقضّ على الحيوانات كثلجٍ أسود، مرتفعًا عنها قليلًا بانتظام، عازفًا موسيقى ممتلئة بالصمت أغرقت رؤوسنا. أصابتنا الصدمة بالدوار.

«آآآه»، تنهَّد شقيقي. أمام جِيَف الحيوانات المكدَّسة هذه، كان الكلب الأحمر الذي سحبه بالحبل يبدو عديم المعنى، مبتذلًا، مثله مثل العشب أو التراب.

قال الحدَّاد: «احفروا حفرة وادفنوها، لا تقفوا حولي مشدوهين كالبلهاء... هيَّا إلى العمل!».

بيد أننا وقفنا هناك ذاهلين فحسب، وسط رائحة نتنة كان بوسعنا أن نشمَّها عبر مسامات وجوهنا، فما بالك بمناخرنا، مثل سائل لزج يتدفّق من الحيوانات المتكتّلة. كان النَتَنُ المتدفق، متلويًا وملتفًّا، مشبعًا بشيء يعذِّبنا. الأطفال الذين تشمَّموا بلهفة، بأنوفهم الصغيرة الملتصقة بخلفية كلبة في أوان النَّزو، الأطفال الذين واتتهم الشجاعة

والرغبة الطائشة في الاستمتاع، وإنْ لبرهة قصيرة، بالالتذاذ الخطير بالتربيت بسرعة على ظهر كلب مهتاج، بوسعهم أن يرصدوا الإستشارات والإغواءات البشرية المرهفة في نتن الجيف الحيوانية. شَخَصْنا بصرنا، حتى كادت أن تخرج من محاجرها، وتنفَّسنا بشهوة.

نادى صوت وراءنا، خجولًا حَيِيًّا لكنه مستبدّ، بلهجة قروية مرخَّمة «ثمة واحدة أخرى هنا».

استدرنا وأبصرنا أحد أطفال القرية الذين كانوا قد تجمهروا على رابية على مسافة قريبة منَّا، يدلّي جرذًا صغيرًا ذا بطن منتفخ بين رؤوس أصابعه.

صاح الحدَّاد، وقد برزت أوردة رقبته: «يا لك من أحمق! إيَّاك أن تلمسه! هل نسيت التعليمات؟ عد إلى البيت واغسل يديك».

نفض الصبي عنه فرخ الجرذ بعيدًا وهو يرتجف وركض متسلقًا السفح المؤدي إلى القرية. رحنا، متحيّرين، نرقب الحدَّاد يتعقَّب بعينيه طفل القرية، ووجهه يتحرَّق بغضب الصالحين.

قال وهو يكظم غضبه: «اذهبوا والتقطوا ذاك من على الأرض».

لكن لم يجرؤ أيٌّ على الذهاب والتقاطه. فقد شممنا في الجرذ نذير شؤم غريب.

قال الحدَّاد وقد لطَّف من حدّة نبرته: «اذهبوا وخذوه. إيه، ما بالكم؟».

شرعتُ في الجري. وما إن صرخ أطفال القرية وهربوا حتى انحنيت والتقطت ذنب الجرذ المنكمش القاسي بين السبابة والإبهام وعدت به. متجاهلًا نظرة اللوم في عيني شقيقي، ألقيت بالجرذ على قمة جبل

الحيوانات التي واصلت بلا نهاية نداءها الأبكم. ارتدَّ الجرذ عن ظهر قطّ بلا وبر أبيضَ من تعرُّضه للمطر، ثم انزلق نازلًا على حيوانات أخرى، وانسلَّ تحت الكفلين الناتئين العاريين لعنزة. سَرَت في مجموعتنا موجة من الضحك، خفّفت على الفور من حدَّة التوتر.

قال الحدَّاد وقد تشجّع: «طيب، تابعوا».

باستعمال المعازق، أخذنا نحفر في التراب البني الملبَّد بالعشب الذابل والأوراق الميتة. كان السطح لينًا، فانصاع بسهولة. عندما انكشفت من تحت التراب يرقات حمراء وبيضاء سمينة وضفادع وزَبَّابات في سبات، قُتلت على الفور بضربات مسدَّدة جيدًا من معازقنا. سرعان ما انقشع الضباب الرقيق الذي تخلَّل الوادي، لكن الجِيَف الحيوانية المكدَّسة ملأت الجو برائحة نَتَن لم تتلاشَ أبدًا، مثل ضباب آخر في أعقابه.

كنَّا نحفر حفرة مستطيلة بعرض مترين وطول ثلاثة أمتار. بعد الطبقة اللينة، ظهرت طبقة أصلب بقليل تحوي حصى بلورية بيضاء. وكلَّما ضربت المعازق، رشح ماءٌ بارد. نور شمس الشتاء الشاحب جعل وجناتنا وجبهاتنا تفصد عرقًا. ومع تعمُّق الحفرة، قلَّ عدد القادرين على العمل فيها. ألقيت عني المعزق ومسحت العرق من على جبهتي. اقترب أطفال القرية من جديد خائفين. لحظتُ بنتًا، قذالها مسودٌّ من كثرة الوسخ؛ سرقت مني شفتاها المبوّزتان وأنفها المفلطح وعيناها السقيمتان الدامعتان لذّة إخافتها. ففي القرى التي مررنا بها في أثناء رحلتنا، ما أكثر مَن أرعبتهنَّ من البنات من ذاك الصنف حتى سئمت الأمر. عندما كانت البنات يقرفصن للتبوّل، وقد عرَّين

مؤخّراتهن الصغيرة الضامرة، كنَّا ننقض عليهن فجأةً ونحن نصرخ. غير أن الاستمرار في هذه اللعبة لم يعد يثير اهتمامنا. كنت أبغضُ أطفال القرى وأحتقرهم حقًّا.

صاح الحدَّاد وهو يدنو منّا: «ويحك، لا تتراخَ».

قلت مستأنفًا العمل: «آه. لبارودة الصيد تلك ماسورة ضخمة».

قال الحدَّاد مهدّدًا، ساحبًا البندقية من يدي الممدودة: «إنها بندقية لصيد الدببة؛ وبوسعها أن تصرع الرجال أيضًا، إذا سبَّبتم لي أي متاعب، سأُرديكم قتلى. قتلكم بنظرنا أمرٌ يسير».

قلت مجروحًا «أعلم إذا لمس أطفال القرية جرذًا نافقًا فقد تصيبهم جراثيم. أما إذا لمسناه نحن فالأمر لا يهم. صح؟».

تلعثم الحدَّاد مرتبكًا: «ماذا؟».

سألت: «هل تفشَّى وباء حيواني؟»، مشيرًا بذقني نحو رفاقي الذين بدأوا بإلقاء الجيف الحيوانية في الحفرة الجديدة. «أيُّ صنف من الأوبئة هو؟».

قال الحدَّاد بدهاء: «أنَّى لي أن أعرف؟ حتى الطبيب لا يعرف».

«لا يهمُّ الأمر إذا نفقت الحيوانات. هل أسوأ ما يمكن أن يفعل هو أن يقتل حصانًا؟» قلتها بدهاء أشدّ حتى من الحدَّاد، وقد أخذه سؤالي على حين غُرّة.

قال بنَفَس واحد: «مات أناس أيضًا».

صاح صبي من القرية تغلَّب فضوله على خوفه، مبرزًا رأسه من

وراء الحدَّاد: «هناك رجل كوري مات أيضًا، انظرْ، هناك راية قد رُفعت، أليس كذلك؟».

رفعنا أنظارنا إلى مجموعة من البيوت البالية بشكل لا يصدَّق، متكتّلة على سفح الجبل أبعد من الوادي. كانت راية ورقية بلون قرمزي باهت ترفرف في الريح على واحد من البيوت الأبعد. لم تكن ثمة هبَّات ريح في الوادي، ولكن اعتبارًا من منتصف الطريق صعودًا إلى الجبل، لا بدَّ من أن ريحًا تهبُّ طوال اليوم، تفوح منها رائحة التراب والأوراق الجديدة. هناك فوق، ما كنتَ لتشمّ رائحة كلاب نافقة تتفسَّخ...

أغلق صبي القرية الخجول فمه بإحكام وأنا أردف بالسؤال: «هناك؟ رجل كوري مات هناك؟».

أجاب الحدَّاد عن الطفل: «إنها مستوطنة الكوريين؛ مات رجل واحد فقط. لا ندري إن كانت مِيتة بسبب المرض نفسه الذي أصاب الحيوانات أم لا».

كان رفاقي يحاولون حمل عجل ثقيل الوزن كان بطنه قد انفجر، فاندلق منه لحم مكتنز ودم وسوائل البدن. بدا وكأن بوسع الداء الخبيث الذي أصاب العجل القوي أن يصيب بسهولة البشر أيضًا.

صاح طفل آخر من فرط الإثارة: «هناك امرأة عُزلت نصف ميتة في المستودع، لأنها تناولت خضارًا فاسدة وأكلتها؛ هذا ما يقوله الجميع».

«إذا كان الأمر وباءً، عليكم أن تضعوها في مستشفى للحجر الصحي. فظيع الأمر حين يأخذ بالانتشار. سوف يقتل الجميع».

قال الحدَّاد بنبرة كالحة: «ليس هناك مستشفى للحجر الصحي، ليس عندنا هذا الصنف من الأشياء».

ألححتُ: «عندما يتفشّى الوباء في القرية بأسرها، ماذا تنوون أن تفعلوا؟».

«سوف تفرُّ القرية برمَّتها. نهرب ونترك المرضى. تلك هي القاعدة. عندما يتفشّى الوباء في قريتنا، تعتني بنا القرى المجاورة. وبالعكس، إذا تفشّى الوباء في قرى أخرى، ترانا نستضيف الذين هربوا إلى قريتنا ونطعمهم. قبل عشرين سنة، حين تفشّى الكوليرا، مكثنا في القرية المجاورة مدة ثلاثة أشهر».

قبل عشرين سنة: كانت العبارة في مثل بساطة خرافة ومهابتها، وقد أثارت مخيّلتي. قبل عشرين سنة، في غياهب التاريخ، كان القرويون قد لاذوا بالفرار، متخلّين عن الضحايا المتألّمين المتأوّهين. وهذا الناجي، القريب مني بما يكفي لشمّ رائحة جسمه، يكلّمني.

سألتُ، غير قادر على الكف عن اللهاث: «ولم لا تهربون هذه المرّة؟».

قال «ماذا؟ هذه المرّة؟ لم يتفشَّ الوباء بعيدًا جدًّا. ماتت الحيوانات، ومرض شخصان، مات أحدهما. هذا كل ما في الأمر».

ما لبث الحدَّاد أن أغلق فمه بإحكام، وزمَّ شفتيه، وأشاح بوجهه عني. ركضت عائدًا وانضممت إلى كدح رفاقي. حملنا مختلف الحيوانات، بما فيها كلب ضئيل، وألقينا بها أرضًا فوق الحيوانات الأخرى التي كانت ملقية متراصّة في الحفرة. كان معظم الحيوانات في طور التفسّخ،

وعندما انسلخ الجلد عن خلفياتها ملتصقًا بيديَّ شعرت بالجراثيم المنبعثة من الحيوانات تهاجمني أسرابًا بقوة مرعبة، فسرى عرقٌ بارد على ظهري. بحلول الوقت الذي تخدَّر فيه حسُّ الشم عندي من جرّاء الرائحة النتنة كان ذلك الشعور قد تلاشى من وعيي. وعندما نظرنا إلى أعلى بنفاد صبر ونحن ننهي حمل الحيوانات ونهيل التراب فوقها، كانت الشمس تشع في السماء الضيقة، تحدُّها جبال من الجانبين، وكان ضياء الظهيرة على أشده ينصبُّ منهمرًا بقوة.

قال الحدَّاد: «عندما ننتهي من الغداء سنرصُّ التراب على الحفرة. اذهبوا واغسلوا أيديكم بعناية في النهر».

ركضنا نازلين إلى النهر الضيّق في قاع الوادي ونحن نهتف، ملوّحين بأذرعنا المطليّة بالطين. كان ثمة أحجار مخمليّة مكسوّة بطحالب جافة وساقية هزيلة من الماء الصافي تجري في ما بينها. عندما وضعنا أصابعنا فيها سرى في أجسامنا وجع شرس. ولكن بينما كنَّا نفرك أصابعنا المحمرَّة والمتورّمة والمشلولة من فرط البرد ظهرت للحيظات أقواس قزح صغيرة بينها، وجعل بريق الشمس النابض ضحكاتٍ سعيدةً تتصاعد من حناجرنا.

قلت بصوت عالٍ: «اغسلوا بعناية، فهناك جحافل من الجراثيم. إذا لمسكم شخص لم يغتسل، ستنتقل إليكم عدوى الوباء».

صاح مينامي ممازحًا، وهو يرشش الماء، «داء الكلاب، داء الجرذان، داء القطط، داء الخنافس».

ضحكنا جميعًا بصوت عالٍ وصحنا بعضنا في بعض، لكن أحد

الفتيان سكت فجأة، وشنَّج وجنتيه، وأمعن النظر عبر سطح الماء. سرت عدوى سكوته على الفور في الجميع، فتكوَّمنا، ظهر واحدنا إلى ظهر الآخر، وحدَّقنا إلى ما كان يشير إليه بإصبعه المرتجف.

صاح شقيقي مندهشًا: «إنه سلطعون».

كان سلطعونًا بالفعل. عبر الماء الملوَّن بلون السماء الشاحب، على الرمل الأسمر المصفرّ، كانت القوائم المدرَّعة لسلطعون بحجم راحة يد طفل تبرّز قليلًا من بين الصخور. كانت أوبار بنية على الحروف الناتئة على امتداد كل قائمة من قوائمه تتماوج مع التيار. غمّس شقيقي يده في الماء بحذر شديد وقرَّبها من قوائم السلطعون. ثم لمسته ربما إحدى أصابعه، وإذا بالماء يتكدَّر بدوامة من التراب والرمل، وحين عاد صافيًا لم يبقَ أي شيء. ضحكنا ضحكة جشَّاء واستنشقنا رائحة النهر، رائحة الماء والرمل العادية، عبر أنوفنا المنتعشة.

كان الحدَّاد يصيح مغتاظًا: «تعالوا هنا، تعالوا هنا، ماذا تفعلون؟».

في طريق عودتنا إلى المعبد، ونحن نتسلّق السفح، ساحقين العشب الذابل، ثم ماضين على امتداد طريق القرية المرصوف بالحجر، اعترض سيرنا القرويون الذين كانون متجمهرين أمام المبنى الشبيه بالمستودع. وإذ كانوا يختلسون النظر باهتمام عبر مدخل المستودع المفتوح، لم يولوا موكبنا المتوقّف أي انتباه. ركض أطفال القرية بوجل في محاذاتنا ودلفوا بين رهط الراشدين. من داخل المستودع، تعالى نحيب فتاة شابة أخرسنا جميعًا.

خرج رجل ذو جبهة صلعاء بشكل ملحوظ وأذنين كبيرتين ناشزتين

من مدخل المستودع حاملًا حقيبة جلدية قديمة منتفخة. وحين هزَّ رأسه بعنف، سرت بين القرويين همهمة قلقة ودخل عدد منهم إلى المستودع.

قال الحدَّاد، وصوته يعلو علوًّا غير طبيعي وسط صمت القرويين المغتم، «كيف تسير الأمور، دكتور؟».

قال الرجل بغطرسة واضحة: «طيب...» من دون أن يجيب عن سؤال الحدَّاد مباشرة، واقتحم طريقه بين القرويين نحونا.

تفحَّصنا بنظره مليًّا. لم يكن مستحبًّا أن تحدّق إليك عينا ذلك الرجل البنيّتان الطينيّتان المتعبتان، والشعور الغريب بما تركه وراءه موصدًا في المستودع وصلنا عبره، فهوَّل الأمر علينا.

قال الرجل بصوت منخفض أجش: «من القائد؟ قائدكم».

مرتبكًا بشدّة، شجّعتني عيون رفاقي وحثّتني على تمتمة جواب متلعثم.

«أنا هو، ولكن لا يهمُّ مَن هو في الحقيقة».

قال الرجل: «حقًّا؟ لقد فحصت صديقكم المريض. غدًا ربما، تعال إلى القرية المجاورة للحصول على دواء. سأرسم لك خارطة».

أخرج دفترًا من الحقيبة المنتفخة، ورسم فيه بقلم رصاص خارطة مفصَّلة، ثم انتزع الصفحة ودفع بها في يدي الممدودة. قبل أن أحشرها في جيب صدري حاولت أن أقرأها، فقط للتأكّد، لكن الخارطة البسيطة لم تنقل إليَّ أي معنى واضح.

بينما حاولت أن أستفسر من الرجل، الذي بدا أنه طبيب، عن حال

رفيقنا، خرج المختار من المستودع ممسكًا بالفتاة المنتحبة واقتادها بعيدًا باتجاه السفح. عويل الفتاة، وكأنّ جلدها يحترق في أنحاء جسمها كله، أرغمنا أن نغصَّ بالسكوت مثل حيوانات بكماء.

الفصل الثالث

هجمة الوباء ونزوح القرويين

ذهبنا عصرًا لرصّ التراب على الحفرة التي دُفنت فيها الحيوانات. بعد أن انتهينا من تناول طعامنا البسيط، لبثنا وقتًا طويلًا جالسين على شرفة المعبد الضيّقة، نغتنم ضياء شمس الشتاء الضعيف على أجسامنا المكدودة، لكنّ الحدَّاد الذي أشرف على أعمالنا لم يأتِ عن طريق السفح بعد الحديقة. وقف أطفال القرية شديدو الاتّساخ، الذين تغيّرت أساريرهم قليلًا، مكتوفي الأذرع، محدّقين إلينا بانتباه. كلَّما هدَّدناهم تفرَّقوا مذعورين كالكلاب، وسرعان ما كانوا يتجمَّعون من جديد. سرعان ما سئمنا لعبة المطاردة من طرف واحد هذه، فتجاهلناهم تجاهُلنا للشجر والعشب، وانصرفنا إلى ألعابنا نحن. ففي الحاصل، كان هذا أوّل قسط من الراحة نناله منذ قدومنا إلى القرية.

أخذ بعضنا يرتّب حقيبة عدَّته، ناشرًا نفائسَه - أنابيب سرية أو مقابض برونزية، سلاسل مبقّعة بالدم لاستعمالها أسلحةً وقطع من الزجاج المضادّ للرصاص - في نور الشمس وملمّعًا إياها بقطع من قماش. انصرف آخرون إلى إنهاء نموذج طائرة منحوت من قطعة من الخشب اللين. كان على مينامي أن يعالج شرجه الملتهب التهابًا مزمنًا

من جراء تفانيه في هواه. فقد جعل صاحبه المطيع يفركه بشيء من الكمية القليلة من المرهم المتبقيّة في علبة السلولويد التي أخرجها من حقيبة عدَّته. كان عليه أن يتّخذ وضعية مُذِلَّة، كحيوان صغير يتغوَّط، ليعالج الناحية المصابة، لكنه كلَّما سخر منه أحد، وثب من فوره، وسرواله نازل، وضرب العدو الوقح. كنَّا مرتاحين، وللمرة الأولى في اليومين الماضيين، صرفنا العصر متكاسلين. وحده الفتى الذي كان يعاني ألم المعدة في أثناء الرحلة، وقد أضحى الآن أضعف حتى من أن يتأوَّه، استلقى مكوَّمًا على نفسه ووجهه مقلوب. ولكن ماذا كان بوسعنا أن نفعل من أجله؟

فجأةً، أضحى الجو باردًا، وهبَّت ريح، وبزغ الغسق من ذرى الأشجار التي حجبت الضوء عن السماء الخفيضة. ثم جاءتنا نسوة القرية الصامتات بوجبة المساء، وبعد أن تناولنا عشاءنا على عجل، أُغلِقَت الأبواب الخشبية كلُّها من جديد وأُقفِلَت من الخارج. أما الحدَّاد الذي حضر ونحن نتناول وجبتنا، فقد لزم الصمت، ووجهه منقبض الأسارير، وعزف عن الالتفات إلى أسئلتنا المتضمّنة إجاباتها. وما إنْ وجدنا أنفسنا مسجونين وحدنا داخل المعبد المظلم، أخذت تنبعث رائحة غريبة من عمل الصباح كانت قد تشرَّبتها أجسامنا، وثيابنا، وبالأخص أرواحنا، وامتزجت بهواء الغرفة العَطِن. مع ذلك، حاولنا أن نستدرج النوم أمام أعيننا وفي دواخل نفوسنا، من فرط ما كنَّا مقهورين من التعب الذي ملأ أجسامنا، ونحن مستلقين تحت وطأة الجو الثقيل.

غير أن أنفاس رفيقنا المريض المتشنّجة وصرخات الحيوانات الآتية من غابة الليل وطقطقة الأشجار خارج الباب الخشبي قبضت علينا

فجأةً، حتى شقَّ علينا النوم. فضلًا عن ذلك، تصاعدت من هنا وهناك نأمات، حركات تنمُّ عن لذَّات مختلسة ومكتومة، لكني من ناحيتي كنت أشد تعبًا من أن آبه لها.

في وقت لاحق من تلك الليلة مات رفيقنا الذي طال به العذاب. في تلك اللحظة استيقظنا فجأة. لا لأننا تأثّرنا بأي جلبة صاخبة وبإحساس بحضور مفاجئ، بل على العكس من ذلك تمامًا. إبَّان نومنا الضحل، تلاشى صوت هادئ واحد، وغاب كائن واحد. ذلك الشعور الغريب المختلف أخذنا جميعًا على حين غُرّة. استوينا جالسين في الظلام. فجأةً هزَّ الهواءَ القاتمَ النشيجُ الخافتُ لأحد الصبية الأصغر سنًّا. أخبرنا، وهو يذرف الدموع، بالكارثة التي حلَّت بصديقنا. فهمنا على الفور. متلمّسين سبيلنا في العتمة، تجمَّعنا حول جثمان الفتى، الذي سرعان ما أخذ يَبْترد ويتيبَّس، وكان صاحبُه عند هبوط الليل فحسب لا يزال رفيقنا. تدافعنا بمرافقنا حتى تلاصقت أجسامنا الدافئة ولمسنا اللحم الذي كان قد فقد حرارته الحيوية، ثم سحبنا أذرعنا وكأنّنا نكصنا إلى الوراء.

فجأةً، أخذ اثنان منَّا يصيحان، متشبثَين بالباب الخشبي المفضي إلى الخارج. سرت العدوى منهما إلينا جميعًا وفجَّرت حالة من الذعر العام. رحنا نصرخ ونخبط على الباب، ضاغطين عليه بأجسامنا، وكأننا نريد أن نبتعد أكثر ما يمكن عن الجثة.

«يا ناس! يا هو! هيَّا، افتحوا! يا ناس! الفتى المريض مات».

صرخنا: «يا ناس! يا ناس!». لكنّ جوقة أصواتنا المتداخلة لم تحمل

أي معنى واضح، مثل صرخات الحيوانات في غابة الليل. شعرنا من ثَمَّ وكأنّ الأسى وحده صبَّ إشراقه من ذلك الدفع والتزاحم، من تلك الأصوات المشوَّشة، المنتشرة حتى السماء وأعماق الوادي.

بعد أن انقضى وقت طويل وضعفت أصواتنا وكلَّت من فرط الإنهاك والبحَّة، سمعنا خطى مهتاجة لحشدٍ مقبل من الطريق أمام الحديقة، وقد صدر من القفل على الباب الخشبي صوت صاخب. سكتنا وانتظرنا. لكنّ القرويين تردّدوا قبل الدخول وسلَّطوا من خارج الباب ضوء مصباح يدوي إلى الداخل. رأيت أمامي وجه شقيقي الباهر، المبقّع بالدموع. ثم رأيت المختار والحدَّاد يدخلان، مسدّدَين بندقيتيهما من الورك وهما يراقباننا بحذر. لزمنا الصمت. وتنفّسنا بشدّة. كانا في مثل توتّر آمري السجن المسلَّحين إذ يُخمِدون تمرّدًا للسجناء، يعضَّان على شفاههما ويوسّعان مناخرهما.

دمدم المختار. «ما الأمر، أيها الأشقياء؟ فيمَ كلُّ هذا الصخب؟ ما الأمر؟».

حاولت أن أشرح الوضع، مبتلعًا ريقي لأطرّي حلقي المبحوح، لكن لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك. فالشعاع الصادر من المصباح اليدوي الذي كان الحدَّاد يلوّح به في يسراه وقع على المتوفّى واستقر عليه. اقتربا من رفيقنا الميت، وأحذيتهما طويلة الرقبة تدوس على الحصير تمامًا، وتحت أنظارنا الفاحصة بصمت، تشنّجت ملامحهما في ارتياب. ثم انحنيا، ممسكَين بالمصباح اليدوي، وتفحَّصا الجثة. في دائرة الضوء الأصفر الباهت، كان ثمة رأس ضئيل شاحب بائس، والجلد المتيبّس أشبه بقشرة فاكهة، وتحت الأنف لطخة من الدم المتخثّر. الجفنان

الثقيلان شدَّتهما إلى الخلف أصابع خشنة، والذراعان طُويتا واحدة فوق الأخرى حول معدته.

كان المنظر بشعًا. أخذ غضب قاتم عارم على رجلَي القرية، اللذين واصلا إضاءة مصباحهما اليدوي وهما يتفحَّصانه بفظاظة، يعتمل ملتهبًا في صدورنا. فلو أنهما مضيا في فحصهما البدني المهين، لصرخ فيهما بعضنا وانقض عليهما. غير أنهما نهضا فجأةً وخرجا إلى الحديقة، تاركَين الجثة وراءهما.

كان قمر متأخِّر قد أطلَّ لتوّه. عبر الشق الضيّق في الباب الخشبي الذي تُرِك مفتوحًا، رأينا قرويين محتشدين في تجمُّعات قاتمة يتكلَّمون بصوت خفيض قبالة المختار والحدَّاد. ربما بسبب انفعالهم، كانت مناقشاتهم تدور بلهجة أشبه بقُباع الخنازير لم نفقه منها شيئًا، ولم يكن بوسعنا إلا أن نحدّق إليهم وكأنهم زمرة متزاحمة من الكلاب النابحة.

صاح المختار بنبرة قاسية وكأنه يلقي أوامر، تَبِعَ ذلك صمت طويل. صاح المختار مرّة أخرى، فتفرَّق جمع القرويين وأخذوا يعبرون الحديقة. وعندما قفز الحدَّاد إلى الشرفة وشرع في إغلاق الباب الخشبي، حاولت أن أستجوبه. بدا أسود الهيئة، مع ميل إلى البني، والقمر يشعُّ على ظهره، وأغلق الباب، غير مُبْدٍ أيَّ رغبة في التساهل معي. غير أنه غادر متعجّلًا من غير أن يقفله. تجمَّعنا جلوسًا في الزاوية، أبعد ما يمكن عن الجثة، وكلٌّ منَّا يحتضن ركبتيه، ورحنا نصغي إلى خطوات راشدي القرية وهي تبتعد، شاعرين في دواخلنا بانفعالنا يهمد ويخبو مثل صوت. لم نعد نعرف لحظتئذٍ لماذا صرخنا وخبطنا على الباب الخشبي. لم يكن بمقدور أطفال فعل أيّ شيء بخصوص الميت.

أظهر شقيقي وجهه، ملطّخًا بالشحم والرماد، فبدا رماديًّا حديديَّ اللون في الضوء المنبعث من ثقب عقدة بالباب. نظر نحوي، وعيناه البنّيتان تبرقان كزبيبتين، وآثار الدموع والخوف ما تزال فيهما.

قلت: «ما الأمر؟».

مرَّر لسانه حول شفتيه، اللتين استردّتا من فورهما لونهما الزاهي ولُدونتهما.

«أشعر بالبرد».

قلت وأنا ألمس كتفيه المرتعدين: «ماذا دهاك، ألست لابسًا معطفك؟».

قال وهو يلوي رأسه نحو الجثة: «أعرته لذاك الفتى لأنه كان متجمدًا من فرط البرد».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«في أثناء النهار؟».

«أجل».

قلت له غاضبًا: «لا جدوى من تركه عليه الآن، عليك استرداده».

قال «آه»، على نحو مبهم، خافضًا عينيه.

قلت: «سأستردُّه لك»، ونهضت. تَبِعَني من فوره، وكأنّه خائف من البقاء وحده.

كان عليَّ، لكي أستردَّ معطف شقيقي الأخضر، أن أدفع جثة الولد الثقيلة وأحرّكها بعنف ملحوظ. وأنا أنتزع المعطف من على جثة الولد التي ترجّحت من غير ثبات وانقلبتْ. شعرتُ بعيون رفاقي في الظلمة تحدجني. غير أنّه لم يكن بوسعي أن أفعل غير ما فعلت.

فاحت من المعطف رائحة فاكهة متفكّكة بفعل مواد كيميائية، لا بفعل الجراثيم الطويل؛ رائحة تفسُّخ غير عضوي. لم يدفع شقيقي بذراعيه في المعطف، بل علّقه على كتفيه وانحنى محدّقًا إلى وجه الفتى الميت الذي طفا منه بياض شبحي. ثم أخذ جسمه ينتفض وهو ينشج نشيجًا هادئًا.

كرَّر وهو يغصُّ بشهقاته «كان صديقي، كان صديقي».

خلفه، لمحتُ الوجه الصغير، الشبيه بوجه عصفور، لرفيقنا الذي صحبنا في الرحلة الطويلة، مقلوبًا إلى أعلى متيبّسًا، وفيه عيناه الداكنتان الباردتان المفتوحتان على اتّساعهما. سالت الدموع على وجنتيَّ وارتميتُ على كتفيّ شقيقي.

عانقتُ شقيقي وأنهضته، وعدنا إلى الزاوية، تاركَين رفيقنا الذي تحوَّل من جديد إلى جثة وعيناه لا تزالان مفتوحتين. حتى بعد أن جلسنا وسط رهطنا المتجمّع، استمر شقيقي في اهتزازه على وقع الشهقات القصيرة، الأمر الذي جدَّد أسفي وأسف رفاقي وجعله أسوأ.

لزمنا الصمت والهدوء وقتًا طويلًا. تعالى فجأةً رنين جرس الإنذار. انتابنا قلق وشنفنا آذاننا، لكنّ الجرس سرعان ما توقّف، ولم يطل الأمر بعدئذٍ حتى تعالى هياجٌ هائل من أسفل السفح، حول طريق القرية المرصوف. راح الهياج ينتشر هادرًا كالموج في أنحاء القرية كلّها. خطوات الناس، ضجيج ارتطامٍ أشبه بجلبةِ أثاثٍ يُنقَل، صهيل خيول مفاجئ. تلا ذلك نباح كلاب متواصل وصرخات رضَّع مكبوتة.

سرعان ما تجمَّع الصوت عند أسفل السفح وكأنه أخذ يتحرّك ببطء. فتّشتُ في الظلمة عن وجه مينامي ووجدته يبحث عني.

تفرَّس كلٌّ منَّا في عينيّ الآخر، وتقاربنا بما يكفي حتى أوشكت جبهتانا أن تتماسّا.

قال مينامي بصوت خفيض: «ماذا يجري؟».

قلت: «دعنا نذهب ونرى».

نهضنا قافزَين وضغطنا بكتفينا بأقوى ما نستطيع على الباب الخشبي الذي نسي الحدَّاد أن يقفله. انفتح الباب في صخب، فقفزتُ وميناميي حافيين إلى الحديقة الباردة، يتبعنا شقيقي. صاح مينامي بصوت لاسع في رفاقنا الذين كانوا يسارعون إلى النهوض:

«أنتم، ابقوا في الداخل واحرسوا الجثة، وإلا ستأتي الكلاب البرية وتأكلها».

صُحتُ بدوري: «ابقوا وانتظروا، سوف أعاقب كلّ مَن يخرج».

أبدى رفاقي استياءهم، لكنهم لم يحاولوا الخروج. جريتُ وميناميي وشقيقي نازلين الدرب عبر الحديقة.

عندما وصلنا إلى الزاوية المطِلَّة على الطريق العريضة عبر الثغرة في الجدار الحجري الواطئ، راكضين على الحصى البارد تحت أخامص أقدامنا الحافية، أتانا صوت اللغط والخطوات المكبوت بشدّة، إنما المتصاعد، يهبُّ باتجاهنا على ريح الليل الحاملة غشاوة الضباب. رأينا عندئذٍ فجأةً حشدًا بشريًّا يتحرّك على امتداد الطريق، فكادت أنفاسنا تنقطع من الصدمة.

في ضوء القمر الرمادي الكامد المائل إلى الزرقة، كانت هيئاتٌ شبحيّة تتقدّم في السير ببطء، منحنيةً تحت عبء الأمتعة الثقيلة

على ظهورها. كان الأطفال والنساء والشيوخ، ناهيك بالرجال الراشدين، يحملون على ظهورهم رزم الأمتعة ويمسكون صررًا بأيديهم. تلاهم صوت العربات ذوات الدولابين تسحق الحجارة، والماعز والمواشي تسحبها النسوة. كان ضوء القمر يضفي على وبر ظهور الماعز الناتئة الخشن الأبيض مسحةً من اللمعان الرطب، تاركًا أثرًا مماثلًا على رؤوس الأطفال.

كان الحشد يصعد الطريق كتلةً واحدة، ورجلان مسلَّحان ببندقيتين يتبعانه في المؤخرة، لتأمين الحماية على الأرجح، لكنّ الأمر بدا وكأنهما يقودان القرويين كالرعاة نحو وجهة مجهولة، بما يشبه اقتياد المواشي إلى المسلخ. سار القرويون بخطًى متثاقلة في صمت مطبق، مَحْنيي الظهور. وبعد نزوحهم، بدا الطريق والبيوت الصغيرة على امتداده رهيبة الخواء في ضوء القمر.

«آه»، تنهَّد شقيقي بضعف، وكأنه كاد يغمى عليه من فرط الدهشة.

«آه»، تأوَّه مينامي، «هؤلاء..».

قال شقيقي: «حتى الماعز، إنهم يأخذون المواشي حتى».

قال ميناني غاضبًا: «إنّهم يفرُّون»، مدركًا فجأةً ما حدث، «إنّهم في هذا الوقت من الليل يفرُّون».

قلت: «أجل، إنهم يفرُّون».

خيَّم علينا السكوت وقفزنا من فوق الجدار الحجري، وعبرنا حقلًا ضيقًا، وركضنا باتجاه الطريق. كان هواء آخر الليل البارد، المُثقَل بالضباب، يلسع وجناتنا وأجفاننا مثل مسحوق قاسٍ، غير أنّ دماءنا كانت

تغلي كما لو كانت متسمّمة سخطًا، وكنَّا جامحين كحيوانات برية. على الطريق، كان بذار متناثر على طول خط القرويين الفارّين يعكس ضوء القمر شاحبًا. وإذ أسرعنا بخطى مكتومة، اختبأنا بين الأغصان المتدلّية لشجرة مشمش عجوز وأخذنا نراقب القرويين وهم يصعدون إلى قمة الطريق المنحنية. وعندما اختفوا مرة أخرى، انتقلنا إلى مكان نستطيع منه أن نبصر حرس المؤخرة، متراكضين كحيوانات صغيرة.

قال شقيقي، مقلّدًا نبرة مينامي: «إنهم يفرُّون». كان صوته أجشَّ وكأنه مستشيط حنقًا، لكنه ضعيف على نحوٍ غريب. «إنهم يأخذون الماعز حتى».

قال مينامي أيضًا: «إنهم يفرُّون، لماذا؟».

حدَّقت ومينامي، الذي كان يرشق اللعاب رذاذًا من شفتيه المنفوختين وقد استدارت عيناه مثل عينيّ رضيع، كلٌّ منَّا في الآخر.

كذبتُ بحذر: «لا أدري، ليس عندي أدنى فكرة».

دمدم ميناني وقرض أظافره سخطًا. ارتفع من الأعالي فوقنا صوت صراخ طفل من حشد القرويين الماضين، تكتمه، على ما سُمِع، يدُ راشد موضوعة على فمه الصغير. وعوع كلب بحزن، وارتعدت كتفا شقيقي.

قال مينامي: «هلا فررنا نحن أيضًا وانضممنا إليهم؟».

قلت: «لن يلبث الناظر أن يأتي إلى هذه القرية وهو يقتاد المجموعة التالية».

«لا أبالي؛ لقد فرَّ القرويون، فلنمضِ ولننضمَّ إليهم».

غير أنني ومينامي كنَّا نعلم أنه لو كانت لدى أهالي القرية أي

نية لاصطحابنا لما حبسونا داخل المعبد المظلم. كنَّا نعلم أنهم يفرُّون خلسة في ضوء القمر ولا نية عندهم لاصطحابنا معهم. لذا واصلت تعقُّبهم، مختبئًا بين الظلال على كلّ من جانبي الطريق، بدلًا من العودة أدباري ومناداة رفاقنا. ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك؟

فجأةً، سمعنا صوت خطوات متعجّلة قادمة من الطريق نزولًا، وما إن احتمينا بأجمة من الشجيرات المتفرّقة مطلية بقطيرات الضباب حتى تراءى لنا الحدَّاد يجري بمحاذاتنا في ضوء القمر أمام أبصارنا تمامًا. كان يجري نازلًا التلَّة ملتوي الجسم، مثبِّتًا بدن البندقية المعلّقة على ظهره بذراعه على وركه لمنعها من الترجّح. جعل الأمل جلدنا يتوهّج بكُلّيته. بدا وكأن كتلة القرويين الرئيسة تنتظر حيث كانت الطريق تدلف إلى الغابة. آه، لا يزال هناك وقت، فكّرت. سننجو من الترك في وادٍ يتفشّى فيه وباء رهيب.

غير أن توقّعي ما لبث أن انهار خائبًا. تقريبًا على الفور، عاد الحدَّاد يركض وهو يحمل سلَّة ضخمة على ذراعه اليمنى. كان يلهث أنفاسًا جليدية، مرئية بوضوح حتى في العتمة. عندئذٍ ارتعبنا من مرأى أرنب أبيض يتقافز مذعورًا داخل سلَّته. ثم ما لبثت جلبة القرويين أن بدأت بالتحرّك من جديد، غير أننا جلسنا ولم نحرك ساكنًا. كان الخدر قد سرى في أقدامنا الحافية فبدت متورّمة تمامًا. كما سرت البرودة صاعدةً وشاعت في أجسامنا المتورّدة. التفت مينامي إليَّ. تفرّستُ في وجهه الذي كان مزيجًا عجيبًا من الفجاجة المَرَضيَّة المرهفة والولدنة، أشبه بحيوان فتي. كانت تقاسيمه برمَّتها ترتعش، وانفتح فمه من دون أن يقدر على إصدار صوت. وفي لحظة، أخذت الدموع ترشح من عينيه.

قال، وصوته محموم يكاد لا يقوى على التسرّب من حنجرته: «ســـــ.. سأخبر الجميع. سأخبرهم كيف تخلّوا عنّا».

ركض من ثمَّ خارج الأجمة، مؤدّيًا حركة فاحشة مضحكة. محتضنًا كتفَي شقيقي، نهضتُ على مهل وخرجت من المخبأ. وقفنا مكشوفين تمامًا في ضوء القمر، لكنّ القرويين صاروا بعيدين عن الأنظار على امتداد الطريق الداخلة إلى الغابة، بحيث لم يعد بوسعنا إلّا أن نسمع بين الفينة والأخرى كلبًا نابحًا في ما يتعدّاه، ثمّ جلبة مينامي الصاخبة وهو يركض نازلًا الطريق بأقصى ما يملك من سرعة.

مضينا على غير هدى صاعدَين حتى حافة الغابة وجلسنا على ركام واطئ. كان القمر شبه محتجب وراء أشجار الغابة، وبزوغ النهار يُنير السماء الرمادية الكثيفة من خلف ببريق متلألئ. كان الجَوّ قارس البرودة، والضباب الذي أخذ يتكاثف يحدُّ من مدى البصر. لم أكن وشقيقي ندري ماذا نفعل. فحتى لو عُدنا أدراجنا راكضَين واستنهضنا رفاقنا لما كان لفعلنا من جدوى. فوق ذلك، كنتُ من التعب بحيث كان من الصعب أن أتجشّم عناء السير خطوة واحدة أخرى حتى.

قلت بصوت مبلَّل بالدموع: «نَمْ قليلًا».

قال شقيقي: «رائحة معطفي نتنة»، ضاغطًا جبينه على خاصرتي وململمًا نفسه عليَّ، «لا أريد أن ألبس هذا المعطف».

قلت له مشجعًا: «حين تصعد الشمس سنغسله في النهر»، مع أنني تساءلت إن كان بإمكاننا أن نغسل أي شيء في ذلك النهر الضئيل الضيق.

قال متلوّيًا وهو يضغط بجسمه عليَّ: «أجل، فلنغسله».

قلت: «سرعان ما سيجفّ ما إن تأخذ الريح بالهبوب»، ووضعت يدي على ظهره وأخذتُ أهدهده بلطف: «خيرها ريح الجنوب».

قال واهنًا بصوت يذوب سلفًا في النوم: «في الصباح سرعان ما سيجفّ»، ثم تثاءب تثاؤبًا قصيرًا، وما لبث أن استغرق في نوم عميق في تلك الوضعية غير المريحة.

وجدتُني منهكًا ومهزومًا، ووحدي تمامًا. رفعت يدي عن شقيقي، واحتضنت ركبتيَّ خافضًا رأسي. كان المعطف الذي يغطيه قد احتفظ قطعًا برائحة الجثة، تاركًا لدي انطباعًا مبهمًا عائمًا. فكّرت بكل ما أوتيت من قوّة بغسل المعطف في النهر حين يأتي الفجر وبتجفيفه في ريح جنوبية. كنت في حاجة إلى التفكير في أمر ما بكل ما أوتيت من قوة. لم أشأ أن أفكر بأنني متروك.

الفصل الرابع

الإغلاق

كانت القرية فجرًا ساكنةً سكون الموت: ما من ديكٍ صاح، ولا حيوانات أليفة نبحت. راحت شمس الصباح، بيضاء وناعمة كالمسحوق، تغمر البيوت الخاملة الموهنة، والأشجار، والأزقة، وغور الوادي السحيق الذي يضمُّها جميعًا في كنفه. غمرت القرية كالماء القراح ولم تلقِ بأي ظلّ على أرجلنا، نحن الفتيان المتروكين، ونحن نسير الهوينى على امتداد الطريق، ذارعين السفح صعودًا ونزولًا.

أيًّا كان ما حصل، لم يكن بمقدورنا أن نبقى داخل المعبد المظلم، حيث أردنا أن نبتعد عن جثة رفيقنا التي كانت تفوح منها رائحة رطوبة وهي مسجَّاة هناك في صمت مثل شجرة أو مثل بيت. لذا أخذنا نمشي الهوينى نازلين على طريق القرية الذي كان كئيبًا ومهجورًا مثل كثيب بجانب بحر مائج، وعيوننا منتفخة من عدم النوم، منحنين إلى أمام، أيدينا مدسوسة في جيوب معاطفنا.

كان الجزع يثقل علينا، لكننا مشينا في صمت اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، يستأنس واحدنا بالآخر على طريق القرية المغطاة بالصقيع، وكلَّما وقعنا على رفاق آخرين مقبلين علينا نزولًا والسخط بادٍ على

قسماتهم، تبادلنا ابتسامات صامتة وأشار واحدنا للآخر بالصفير، يحرّكنا إحساس عجيب بتنافُرٍ محتدم. طغت قليلًا علينا القرية الخالية تمامًا من أهاليها، قشرة القرية الخاوية المنبوذة، وضقنا ذرعًا بالوضع الذي وقعنا فيه، كما في المرّات التي كنَّا فيها نقوم واجباتنا الدراسية. فبعد أن خفَّ الانفعال العنيف الذي انتابنا حين علمنا بنزوح القرويين والساعة التي تلت ذلك، شعرنا وكأن من شأن إظهارنا للاحترام الصامت تجاه الحالة العجيبة لخواء القرية أن يجعلنا ننفجر مقهقهين ما لم نطبق أسناننا الخلفية بإحكام. وفي غياب مُشرِف علينا، لم يكن ثمة ما نقوم به. لم نَدْرِ ماذا نفعل. لذا أخذنا، ببطء وإصرار، نذرع الطريق صعودًا ونزولًا.

كانت القرية هادئة، والسماء المخيّمة على الوادي قد صفت إلى أزرق شاحب حيّ مؤثر. بدت خاصرة الجبل ذي المنجم المهجور المطلّ على الوادي مباشرة وكأنّ أسماكًا صغيرة كثيرة تسبح بشراسة كلَّما أظهرت أوراق الشجيرات وجوهها الرمادية المفضَّضة عند هبوب الريح. بعد فينة قصيرة، كان بحر أوراق الشجر فوق الطريق التي كنَّا نمشي عليها يضطرب، مُظهِرًا أن الريح قد غيّرت اتجاهها. غير أن الريح لم تهبط إلى مستوى رؤوسنا وأكتافنا، والشمس كانت دافئة. كان كل بيت مقفلًا بقفل حلقي حديدي متين أو بمزالج مشبوكة بسلاسل وكان صامتًا. مشينا الهوينى بين البيوت.

عندما أضاءت الشمس قمة الجبل كان الوقت ظهرًا. ونحن نمشي على الطريق سمعنا الساعات الجدارية في البيوت المختومة والمهجورة تخبر عن الوقت. إذ ذاك، بلا إنذار، جاءنا الجوع مهدِّدًا. حابسين أنفاسنا وخائفين بعض الشيء، جلبنا حقائب عدَّتنا، الحاوية

بعض البسكويت القاسي، من الغرفة التي كان رفيقنا الميت مستلقيًا فيها ينتن، وعدنا إلى الساحة أمام المدرسة حيث أكلنا. والسبب الوحيد الذي حدا بالجميع إلى التجمّع هناك كان وجود مضخّة يدوية صغيرة تقطر خيطًا من الماء العكر حين يضخُّ المرء منها بكلّ قوته. غير أنّ ذاك لم يكن سببًا خاصًّا. لم يكن واضحًا لنا، هو الآخر، سبب لزومنا هذا الصمت العجيب المضحك، المثقَل بارتباك غير طبيعي. لقد كنَّا، أغلب الظن، وحدنا المتروكين في القرية الصامتة، وكان يجمع بيننا شعور بالانسحاق تحت وطأة المفاجأة نفسها. وبما أنّنا كنَّا نتقاسم الحالة نفسها والشعور ذاته، فأيّ انشقاق يمكن أن يوجد بيننا؟

غير أنه بانتهاء الوجبة حرَّضت مِعَدنا الملأى عند بعضنا تعبًا مزعجًا، فيما سبَّبت لبعضنا الآخر شعورًا أحمق بالرضا، فأخذت ألسنتنا تتحرّك في اتجاهات متعاكسة.

سألني أحد رفاقي: «لماذا هربوا؟ هل تدري؟».

سأل شقيقي الذي كان جالسًا بجانبي محتضنًا ركبتيه، ورأسه على أحد الجانبين: «لماذا فعلوا ذلك؟».

قلت: «لا أدري».

مرّة أخرى، خيَّم على القرية والوادي صمتٌ فاتر، راسمًا طوقًا من حولنا، وتردَّدت الأصداء. استلقينا على صفائح الرصف الحجرية أو اتّكأنا على جذوع الشجر، وعيوننا مرفوعة، نحدّق شاردي الذهن إلى السماء التي تسرَّبت على نحوٍ غريب إلى الأجزاء الخلفية من رؤوسنا.

قال مينامي وهو ينهض فجأةً وينظر إليَّ: «أنت، هيه، أنت، ألعلَّك لم تشرب الماء من هذه البئر، أم تُراك فعلت؟».

قلت مرتبكًا: «ماذا تعني؟».

أمطرني مينامي بالأسئلة غير هازل: «لم لا؟ أعلم أنك لم تفعل لأنك خائف من الطاعون. لقد هرب أهالي القرية مرتعبين من الوباء وتركونا وسط أسراب الجراثيم».

سرى الانفعال في الجميع. فكّرت أن عليَّ أن أعيد إليهم توازنهم، وإلا أصابهم القنوط وبدأوا بالعنف. كانت مشكلة ملحَّة عندي أيضًا.

قلت وأنا ألوي شفتيَّ كما لو كنت أهزأ من مينامي: «طاعون؟ لم يخطر ببالي قط أمر كهذا».

قال: «فماذا عن القروية التي ماتت في المستودع؟ وماذا عن رفيقنا؟».

قلت: «كان مريضًا قبل أن نأتي إلى هنا. ألم يكن مريضًا، يا رفاق؟».

قال مينامي بعد شيء من التفكير: «هناك الحيوانات أيضًا، لقد نفق عدد هائل من الحيوانات».

طفت ذكرى منظر الجِيَف المكدَّسة للحيوانات التي كنَّا قد دفنَّاها أمس، برائحتها النتنة وأزعجتني حقًّا، ما كان السبب...؟

قلت: «داء الجرذان، داء نزو الأرنب»، مؤكدًا على سخريتي: «كلّ مَن يخاف ذلك، فليهربْ مع القرويين!».

قال مينامي: «سأهرب من أجل ذلك»، معلّقًا حقيبة عدَّته على كتفه وواقفًا بنشاط، مبديًا عزمه: «لا أريد أن أموت. بإمكانكم أن تبقوا هنا، متأوّهين من الطاعون، وتنتظروا قدوم الناظر مع المجموعة التالية».

واحدًا إثر الآخر، نهض رفاقنا وتبعوه، حتى لم يبقَ منَّا إلّاي وشقيقي.

حدَّق كلٌّ منَّا في وجه الآخر. كان الجلد الناعم حول فم شقيقي يرتجف جزعًا. عندما بدأ مينامي والآخرون يصعدون على الطريق المرصوفة تبعناهم، مُظهِرَين عدم موافقتنا بترك حقيبتينا وراءنا عن قصد.

تسلَّقتُ وشقيقي الطريق المتعرّجة الصاعدة على السفح، ومنها إلى طريق الغابة التي تراكمت عليها عاليةً أكداس أوراق الشجر الرطبة الميتة، محافظَين على مسافة قصيرة بيننا وبين فريق مينامي، وذراع كلّ منَّا يطوّق كتف الآخر. حاولنا أن نباهي برباطنا الأخوي لمعارضة الآخرين، لكنني لم أكن واثقًا من قدرتنا على البقاء في القرية بعد مغادرتهم. لذا عندما ضغط شقيقي بشدة على جانبي بذراعه المطوّقة ورفع بصره محدّقًا إليَّ بعينين محمومتين تجاهلتُه بقسوة. كانت عيناه تسألان: «أتساءل عمَّا إذا كان الوباء هو حقًّا السبب؛ هل مات الزبَّاب (*) وغيره أيضًا من الوباء؟». كرّرت من ثمّ لنفسي: لا أدري، كيف لي أن أعرف أمرًا كهذا؟

بعد أن خرج مينامي والآخرون من الغابة، توقّفوا مذهولين عند رأس مسار الترولي، فما لبثنا، أنا وشقيقي، أن نسينا نفسنا وهرعنا إليهم. كان الشرخ الصغير بيننا قد تلاشى أصلًا، فحدَّقنا إلى الطرف الآخر من المسار كمجموعة واحدة، كمجموعة من المذهولين. بعد ذلك تنهَّدنا بمرارة.

على القسم الآخر من مسار الترولي عبر الوادي، أقرب إلى خاصرة الجبل المقابلة، كان ثمة ما يشبه المتراس الخبيث المبني من أغصان

(*) حيوان من الثدييات يشبه الفأر، ذو أنف طويل مدبَّب وعينين وأذنين صغيرتين، يقتات بالحشرات. (المترجم)

الشجر المقطوعة وألواح الخشب وعوارض السكك الحديدية والصخور، حائلًا دوننا والعبور. فمجرَّد محاولة الاجتياز من فوق ذلك المتراس المرصوص على المسار الضيق كان يعني السقوط حتمًا في قعر الوادي، والأرجل عالقة في الصخور وقطع الخشب المنهارة. ارتفع ذاك المتراس أمامنا كالجدار المنيع؛ علاوة على ذلك، أقيم هناك بمثابة فخ مليء بعدم الاستقرار الخطير. وفي غور الوادي كان يستعر الصوت الشرس للماء المتبقّي من الفيضان المتواصل في روافد النهر العليا. ما أوقفنا في البداية كان الحيرة والانقطاع القصير في تحكيم العقل من هول المفاجأة. فمع أن فكرة عبور الوادي والمغادرة لم تخطر ببالي أصلًا، استُدرجت إلى مزاجهم وغصصت، مكتفيًا بالصمت.

ثم ما لبثنا أن رأينا، عبر أغصان الأشجار العالية التي يعصف بها الشتاء، رجلًا يظهر من كوخ الترولي على الطرف البعيد. صرخ مينامي أولًا، وبعد ذلك رفعنا جميعًا حناجرنا بالصياح.

نادينا «يا هو! يا هو!» ملوّحين بأذرعنا وبقضبان، علَّنا نلفت انتباه الرجل على الطرف البعيد. كانت أصواتنا المدوّية فوق بعضها بعضًا والمتصادية في الوادي أشبه بجوقة كئيبة.

«يا هو! يا هو! نحن لا نزال هنا! يا هو!».

بدا واضحًا أن الوجه الأسمر الصغير على الطرف البعيد قد لحظنا، فما لبث أن سحب بارودة صيد من على كتفه ووضعها أمام صدره، ثم تحرّك بسرعة إلى أول المسار على يسار الكوخ. أسبلنا أذرعنا وتوقّفنا عن المناداة من حناجرنا المجروحة. لقد فهمنا. كان الرجل قد انتقل إلى نقطة أفضل لمراقبة تلك الأرواح التي قد يسوّل لها يأسُها أن تتجرّأ على السير

قُدُمًا على امتداد المسار نحو الطرف الآخر. لقد بُني المتراس كي يعيقنا، وعلاوة على ذلك، كان هناك خفير يقوم على الحراسة. كنّا معزولين.

جعلنا الغضب المفاجئ نتحرّق غيظًا، فأخذْنا نطلق الشتائم صائحين عبر الطرف الآخر من الوادي. غير أنّ صيحاتنا المستهجِنة وقعت في الوادي وانصهرت في صوى النهر في قعره قبل أن تبلغ الرجل الجاثي على السفح الذي كان مغطى بأشجار البلوط العارية، مسدّدًا بارودته نحو المسار. كان غضبنا متميزًا، وكنا مستوحشين.

قال مينامي بصوت يتهدَّج غضبًا: «تلك العصبة تفعل أمورًا مقزّزة فعلًا، سيطلقون النار على كل الذين يحاولون عبور الجسر ويصطادونهم واحدًا واحدًا. أليس هذا مقزّزًا؟».

سأل شقيقي وعيناه مغرورقتان بالدموع: «لماذا؟ لماذا يطلقون النار؟». كان صوته متهدّجًا كالطفل: «يصطادوننا واحدًا واحدًا...؟».

قال آخرٌ من المجموعة والدموع تترقرق في عينيه: «لسنا أعداءهم حتى»، وقد أثاره هياج شقيقي: «لسنا أعداءهم».

صاح مينامي: «لكي يعزلونا، كفُّوا عن النحيب. يريدون عزلنا، أما تفهمون؟».

قال شقيقي بصوت واهن: «ولماذا يريدون عزلنا؟» وقد روَّعه عنف صوت مينامي.

قال مينامي: «أنت، أنا، جميعنا أُصِبنا بعدوى الطاعون، خافوا أن ننشر الجراثيم في كل مكان، فعزلونا ليشاهدونا ننفق كالكلاب أو الزبَّاب».

قلت على سبيل إبلاغ الرفاق الآخرين: «لكننا لم نصب بالطاعون»، صارخًا في وجه مينامي: «إنّهم يظنون فقط أننا مصابون به. هل تقيّأ أي واحد منّا منذ هذا الصباح؟ هل تفشّت بقع حُمر في أنحاء جسم أيٍّ منّا؟ أم أصيب أيٌّ منّا بالقمل؟».

ظلّوا جميعًا صامتين. عَضَضْتُ بشدّة على شفتي وأنا أُنصت إلى صدى صوتي المقتضب.

قال مينامي بعد قليل: «فلنعد أدراجنا»، أفضِّل أن يصيبني الطاعون على أن تصيبني رصاصة».

ركل من ثمَّ مؤخِّرة الصبي أمامه مطلقًا ما يشبه النبحة وأخذ يجري. تبعته وركضت نازلًا الطريق الذي يخترق الغابة. رُحت أركض خبط عشواء، منقطع النَّفَس، محاولًا اللحاق بمينامي الذي كان يركض لا يلوي على شيء، وبلغته عندما توقّف خائر القوى عند حافة الغابة. لوهلة، راح كلانا يلهث، غير قادرَين على النبس بصوت. ثم أقبل رفاقنا الأصغر سنًّا، يتعقّبوننا على مبعدة، راكضين وراءنا، وأصواتهم تدوّي في الغابة، مثل هبَّة ريح مفاجئة تُنذر بعاصفة. بدا كأن ضوضاءهم تصدر بدافع الجزع، مثل صرخة.

قلت لمينامي بصوتٍ أجش: «أنت، إيَّاك وذكر الطاعون مرة أخرى، إذا بدأوا بالزعيق بسببك فسأجعلك تندم على ذلك».

استجمع قواه للردّ على تهديدي، مشرئبًّ الذقن، لكنه لم يقاوم فعلًا. اكتفى بلزوم الصمت، مبديًا سحنةً متبرّمة، مغتاظة.

قلت: «اتفقنا؟ ولا أنا سأذكره».

قال بنبرة مبهمة: «أجل». بدا وكأنه يتفكّر في أمر آخر، وأخذ فجأةً يتبجّح.

«إذا أردنا الفرار، الأمر سهل؛ حتى إذا كانوا يحرسون مسار الترولي، لسنا محتجَزين في حفرة».

لكنّني كنت أعلم حق العلم أنه كان يخادع. لزمت الصمت، شاعرًا بنظرته المغتاظة على وجهي. كان حسبي أن أستعيد شهادة القرويين الذين تعقَّبوا طالب الحربية، وعمق الوادي، وقوة التيار الذي رأيناه بأم العين، لكي أتيقّن من تعذّر الفرار.

قال مينامي ردًّا على إنكاري المكتوم: «بوسعنا سريعًا أن نتسلَّق الجانب الآخر من الجبل»، مع أنَّ صوته سرعان ما فقد قوّته الصَّلِفَة.

قلت: «سيُرديك القرويون على الجانب الآخر من الجبل نصف مقتول، تمامًا مثلما فعلوا بك حين فررت من قبل».

كان سدُّ مسار الترولي «رمزًا» إلى جرعة العِداء المركّزة للمزارعين من أهالي البلدات العديدة المحيطة بالقرية المطلَّة على الوادي التي أُوصِدَت دوننا. كان واضحًا أنه يتعذّر علينا مجابهته واقتحام سبيل لنا عبره.

قال مينامي متأوّهًا: «نصف مقتول فررت ثلاث مرات وقُتلت نصف قتلة ثلاث مرات. فقط هذه المرّة يوجد رجل متأهّب ببارودة صيد. عاونت ذات مرّة على ذبح كلاب وماشية مريضة. أتفهم؟ عجول تتأوّه مرضًا؛ بمطرقة بحجم رؤوسها».

صُحت بجنون: «كُفَّ عن هذا، إذا لم تكن تريد أن أضربك، إيَّاك أن تتفوَّه بشيء كهذا ثانية».

قال متأهبًا لهجومي: «سوف تفهم قريبًا، لضرب عجل مريض على الوجه الصحيح لا بُدَّ من رجال ثلاثة لإيقافه على قوائمه. كان دوري أن أصرف انتباهه بالماء أو العشب».

كنت على وشك الإمساك بخناقه. لكنّ عينيه في لحظة اغرورقتا بالدموع. كبحت نفسي، متنفسًا بصعوبة.

قال: «أترى؟» ماسحًا دموعه بظاهر يده: «لقد فعلتُ ذلك حقًّا».

قلت: «ذلك يختلف عن عزلنا. ولا واحد منَّا مريض».

قال بنكد: «لا أقدر أن أعبّر عن الأمر تمامًا، تذكّرت وقت قتلت العجول. تذكّرت الأمر فجأة».

كدت أذعن لحالة السخط المحزنة التي هبطت عليه. لم أعد أستطيع إخفاء ارتجاف شفتي، الذي لم يكن سببه الغضب فحسب.

قلت: «لكن ليس بوسعنا أن نفعل شيئًا، أليس كذلك؟ كفاك نحيبًا. نحن معزولون. ليس بوسعنا فعل شيء».

لحق بنا رفاقنا، بمن فيهم شقيقي. وحين أحاطوا بي وبمينامي، حدَّق كلٌّ منَّا في عيني الآخر كخير صديقين.

ليس في نيتي أن أبرّر ما بدأناه يومذاك في وقتٍ متأخّر من العصر. ولا واحد منَّا بتَّ في الأمر أو أصدر حكمًا بخصوصه. فمع أن الأمر غير سوي إلّا أنه قد بدأ بداية طبيعية للغاية؛ كتلك المرحلة من اليفاع حين تطول أفخاذ الأطفال فجأة.

ما فعلناه أولًا كان اختيار كلّ منَّا بيتًا، أو بيتًا لكلّ اثنين، ثم اقتحام

الأبواب المغلقة بعنف. ومن غير أن نَخبَر خفقان القلب والإثارة التي ترافق السرقة عادة، اكتشفنا الطعام المخبوء.

اخترتُ وشقيقي بيتًا ذا جدار مخطَّط عند إحدى نهايتَي الطريق المرصوف المؤدّي إلى الوادي. حين نزعت القفل عن الباب وحطُّمت المزلاج بالحجر الذي جلبه شقيقي، اندفع، حَذِرًا لكنْ ذكيًّا مثل سمكة رشيقة إلى الداخل المعتم.

كان باطن البيت مظلمًا، كأنّه جزء من الغابة التي هجرها الناس. وحدها رائحة الناس تخلَّفت في الداخل، الذي بدأ بالتحلُّل، من دون نضارة «الحياة» المنعشة. لم تكن ثمة عيون غرباء معلَّقة على الجدران المكسوَّة بالجصّ الخشن، ولا عوارض سوداء مكشوفة، ولا قطع أثاث ثقيلة مقلوبة تحفر في الحصير المبسوط على الأرضية، لتراقبنا من الخبايا الداخلية حين تسلَّلنا إلى بيت الأغراب. لم يكن من أغراب، وأكثر من ذلك حتى، لم يكن ثمة ناس. لقد تخلَّى عنه الناس.

قمت وشقيقي، ونحن ندوس بلا مبالاة على الثياب الداخلية المتروكة على عجل، متناثرةً فوق الحصير وعلى ألواح الأرضية الخشبية، بالكشف عن أكياس رزّ مخبوءة، وسمكة مقدَّدة صغيرة، وعن قطيرات من صلصة الصويا باقية في قعر زجاجة قديمة مصدوعة، فحملناها خارجًا إلى الطريق وكأننا نقطف زهورًا على جانب الطريق. كنَّا نعمل ببطءٍ وصمت. بعد أن دخلتُ وخرجت عدّة مرات، وبينما كنت أرمي علبة وجبة من فول الصويا المطحون فوق كومة الطعام على ألواح الرصف الحجرية، ناداني مينامي، بوجه ملتوٍ، وهو يحاول سحب كيس

مليء بصنف ما من الطعام خارج بيت صغير مسقوف بالقش على الزاوية.

قال مكتئبًا: «لم يسبق لي قط أن اقترفت السرقة بحقارة كهذه».

صُحت ردًّا عليه: «ما حال شيئك الآن؟»، إذ إنه كان عادةً يفاخر بالانتصاب الهائل الذي يحصل له كلَّما اقترف جريمة.

«مرتخٍ كدميةِ بنتٍ من الخِرَق».

سرعان ما تلاشى صوته، تاركًا أصداء شعور خاوٍ، فما لبثتُ أن عدت إلى «سرقتي الحقيرة». أصررنا عليها لأنه لم يكن عندنا ما نفعله سواها. لكنّ ذلك العمل المبتذل الآثم لم يكن ينطوي على ما يكفي من القناعة به للاستمرار فيه. كانت البيوت صغيرة، والسلع كانت رديئة. ناهيك بأنها لم تستثر فضولنا ولو للحظة. قرّرت وشقيقي أن نحمل أكثر ما نستطيع أن نتدبَّره من حصتنا إلى الساحة أمام المدرسة. في الساحة، كان رفاقنا قد سبقونا إلى تكويم غنائمهم. كانت كلّها عبارة عن أكياس رثّة بائسة من الطعام، كلّ ما في الأمر أنّ من شأنها أن تؤمّن لنا فترة طويلة بعض الشيء من الكفاف. كان الفتيان منهكين، وقد بدوا شاعرين نوعًا ما بالخجل من الحصاد المتكوّم أمامهم. علَّقنا عَرَضًا على المكتشفات، ثم عدنا إلى أسفل السفح لجلب بقية قطوفنا.

أطلق شقيقي صيحة قصيرة مكبوتة: «هيه انظر هناك».

توتّرت عضلاتي الرخوة فجأة في أنحاء جسمي كلّها، وعاد الدم يجري إلى رأسي. أمام الكومة المتبقّية من السلع، وقف فتى كوري يتفرَّس فينا، حاملًا على عاتقه كيسًا من الرز. غلَّفني الصمت حول

الوادي، وصيحات رفاقي البليدة فجأةً، وضياء الشمس في ذلك الوقت المتأخّر من العصر، فتقدَّمت ببطء، مُحملِقًا في غريمي بغيظ، وجلدي محمرٌّ كلُّه. وقع كيس الأرزّ من على كتفه، وبينما كان يخفض رأسه وينحني، وثبت عليه.

جولة العنف الأولى من غير متَّسع للتنفّس: أظافر كلّ منَّا تنشب في لحم الآخر، جسمان متصادمان، سيقان مشتبكة. وقعنا على حجارة الرصف وتدحرجنا من غير صوت، نركل ونُطبِق بأكواعنا كالمقص. تعاركنا في صمت، بكلّ ما أوتينا من قوة. كانت لجسم الفتى الكوري رائحة نفَّاذة وكان ثقيلًا. وجدتُني مسمَّرًا على الأرض تحت وطأة جسمه، وذراعي اليمنى ممسوكة بمرفقه، وكنت عاجزًا عن الحركة. نشبت أصابع ثخينة في منخريَّ وبدأ الدم يسيل على طول فكي. لم أستطع تخليص رأسي من تحت صدر غريمي. لكنّه بينما يفعل ما يفعل، لم يكن يستطيع تحريك جسمه هو الآخر، وكان يتنفّس بصعوبة. تمكّنت أخيرًا من تخليص ذراعي اليسرى، فمددت أصابعي وحككت على الأرض. سمعت صوت خطوات شقيقي تقترب وصريفَ الفتى الكوري المهدّد؛ ثم ما لبث شقيقي أن ألقى بكتلة من الحجر الصلب في يدي. ضربت غريمي على مؤخّر عنقه بقبضة صيَّرها الحجر أكبر وأثقل.

تأوَّه الفتى الكوري، وارتخى، وانزلق من على جسمي. نهضت وأنا أغطي منخريَّ بيدي. كان عدوي، مستلقيًا هناك، بوجهه الطفولي المدوَّر الممتلئ، وبشفتيه السمينتين، وبعينيه الوادعتين، ينظر إليَّ. أدنيت قدمي، التي كانت متأهّبة لركل ضفيرته الشمسية العزلاء بأقصى ما أملك من قسوة، والتفتُّ إلى شقيقي. تراجع إلى تحت الأشجار على

جانب الطريق، ويداه على خاصرتيه، وفتح عينيه المغرورقتين بالدموع على اتّساعهما وراح يتفرَّس فينا.

أومأت إليه هزًّا بذقني بأن يأتي ولملمت متاعنا. أخيرًا، منعته من أخذ كيس الأرزّ الذي كان الصبي الكوري قد حاول اختلاسه. لم يعد في نيَّتي أخذه معنا. ثم عدنا صعودًا على السفح، تاركَين العدو مستلقيًا هناك وهو يراقب حركاتنا.

قال شقيقي بصوت عالٍ، ووجهه مغطى بالدموع: «أنت قوي، يا أخي».

قلت ملتفتًا، وأنفي يقطر دمًا فوق السلع التي كنت أحملها: «هو أيضًا قوي». كان الفتى الكوري، وهو يعرج حاملًا الكيس، على وشك عبور الجسر القصير الضيّق غير المعبَّد عبر الوادي. لا بدَّ أنه كان في طريقه إلى بيته في المستوطنة الكورية على خاصرة الرابية المقابلة. لم نكن وحدنا الذين تُركوا، فكّرت، وشعور مبهم يعتمل متصاعدًا فيَّ. بيد أن الدم ما انفك يسيل من أنفي، بحيث بدا أن صدري ويديَّ والطعام ستتلطّخ جميعًا بالدم ما لم أحني رأسي إلى خلف. لم يقوَ شقيقي على الانتظار، فتركني أتخلَّف وأنا ماضٍ في المشي ببطء وذهب يجري صاعدًا الطريق المعبَّد لإخبار الآخرين بقتالي مع الفتى الكوري الذي كان قد ظهر فجأة.

اضطرب رفاقي عندما أدركوا أن أناسًا آخرين سوانا قد بقوا. غير أننا وجدنا مساءً «جارة» أخرى متروكة.

كنَّا وقتئذٍ نقوم باختيار مساكننا وطهو طعام العشاء. استولينا على البيوت، كلٌّ منَّا بحسب ذوقه. انتقيتُ وشقيقي مبنى شبيهًا بمستودع أعلى السفح، مطلًّا على ساحة المدرسة، كان أغلب الظن صومعة للحبوب

أوان الحصاد، ذي ردهة ترابية تتناثر فيها سلال قش فارغة وحبّات ذرة، وذي أرضية واطئة من ألواح الخشب ستكون مثابة مكان نستقرّ فيه، فوضعنا فيها الطعام الذي فزنا به بالإضافة إلى بطانية قديمة مزركشة بالزهور. وبينما كنت أجلب حطبًا وأكدّسه على الأرضية الترابية، قطف شقيقي خضارًا من الحقل الصغير خلف المخزن واختلس قِدْرًا من مزرعة مجاورة. وضعنا في القِدْر قطعًا من الخضار المفرومة والسمك المقدَّد وبضع حفنات من الأرزّ، وذهبنا لضخ الماء فيه أمام المدرسة.

راح رفاقنا يتسكّعون دائريًّا أمام المستودع، مسترقين النظر إلى داخله عبر الباب المفتوح. كانت شمس المساء تلقي بظلالٍ بلون العنب على أجسامهم غير الناضجة، لكن متينة البنية، المتلاصقة والمتكوّمة بعضها فوق بعض. غمرهم العجب جميعًا. ركضت وشقيقي نحوهم، فرأينا، داخل المستودع المعتم، جثة مسجَّاة ومغطاة بقطعة قماش، وإلى جانبها، بنتًا جالسة، ذاهلة لكنّها مع ذلك مفعمة بالعِداء. تفرَّستُ فيها مع رفاقي، لاهثًا. لم أستطع كبح تنهيدة دهشة.

قال مينامي بحماسةٍ بصوت خفيض محموم، وهو يدفع حشد الفتيان جانبًا مقبلًا عليَّ: «لقد تُركتْ في منتصف الجنازة لأنّ الجميع فرُّوا. إنهم يفعلون أشياء مقزّزة».

قلت «آه»، وحدَّقت إلى رأس البنت الصغير، الجامد، بعينيه المرعوبتين المثبَّتتين علينا، وإلى جبين الجثمان المسجَّى، مرئيًّا تحت يدها المتأرجحة تأرجحًا طفيفًا، مثل نبات. كان الهواء الخارجي، الملوَّن بمسحة خفيفة من بريق المساء الذهبي، قد بدأ لتوّه بالتسرُّب إلى الداخل.

«شُمَّ الرائحة جيدًا، إنه ينتن»، قالها مينامي متنشّقًا. «إنّها عينها رائحة كلب نافق».

«مَن وجدهما؟».

قال مقهقهًا بعصبية: «فكّر أحدهم في النوم هنا، امرأة ميتة وبنت مجنونة. كان أحدهم يريد أن ينام معهما».

قلت: «الآن، أنتم جميعًا، غضُّوا أبصاركم»، مشمئزًّا من رؤية فم البنت، نصف المفتوح خوفًا، بلثّته الوردية، وخدَّيها المتوتّرين المرتجفين، وكلُّها متسخ ويكاد يخلو من أيّ جمال. كما لم أكن أريد رؤية الجثة.

قال مينامي: «مَن فتح الباب، فليغلقه».

بينما كان أحد رفاقنا متجهًا بخوف إلى الباب، ارتجف وجه البنت مثل إنذار مسبق بانهمار الدموع. إذ ذاك، عندما كان الباب موشكًا أن يُغلَق، أتى نشيج من ورائه. باتت البنت على الفور لغزًا ونَمَتْ واتّسعت. عَلِقَ الباب على نحوٍ أخرق ولم ينغلق كما ينبغي، لكنّ الفتى المكلَّف إغلاقه جمد وهو في منتصف مهمَّته، مرتجف الظهر، وقد أخذ منه الخوف كلَّ مأخذ. وهكذا وقفنا جامدين لوهلة قصيرة. غير أنّ الأمر كان مروّعًا. إذ ذاك، عاد كلٌّ منَّا إلى مسكنه وحِمْلٌ ثقيلٌ ينوء به ذهنه، وانصرفنا إلى شأن طهو العشاء.

بعدما أشعلنا النار في الأخشاب المكوَّمة على الأرضية الترابية، وضعنا القِدْر على اللهب الصغير، وإذ انتظرنا ونحن نكابد جوعًا لا يصدَّق، تناقشنا حول جارتنا الجديدة المزعجة.

قال شقيقي متفكرًا: «تلك الفتاة. لا بدَّ أنها جُنَّت لأنّ أمّها ماتت».

«كيف عرفتَ أنها مجنونة؟».

قال بصوت مبهم: «تلك البنت الوسخة، أليست وسخة؟».

قلت بصوت متأوّه: «أجل. كانت وسخة بعض الشيء».

طُهِيَت عصيدة الأرزّ بسرعة خارقة، فكدنا لا نصدّق. والطعم هو الآخر لم يكن سيئًا. تناولنا وليمتنا صامتَين بلهفة ما بعدها لهفة، مستعمِلَين المِزْوَدة التي نحتفظ بها في حقائبنا. أدفأت ألسنةُ اللهب في كومة الحطب وسط الأرضية الترابية الجوَ داخل المخزن، وفاحت رائحة رطبة غامضة وفاضت. بعد أن شبعنا تمامًا، ارتخى جسمانا دفئًا ارتخاءَ حيوان رخوي، فاضطجعنا على القش المبسوط فوق ألواح الأرضية، ملتحفَين بالبطانية. كان الوقت ليلًا: كنَّا مطلَقي السَّراح في القرية. كان علينا أن نحمل نفسَيْنا على النوم. أغلق شقيقي عينيه، ساحبًا البطانية الخشنة التي كانت تفوح منها رائحة العرق والدهن حتى ذقنه، وراح يتنفّس برفق. حسبتُني قد آخذ المتبقّي من العصيدة إلى البنت في المستودع، لكنّ الأمر لم يكن يستحق المشقّة. فوق ذلك، كنت خائفًا من جثّة المرأة المنتفخة المسجَّاة بقربها. أخذت صورة الجثمان الذي رأيته في ضوء المساء الخافت تنتصب أمامي. كذلك رفيقنا الميت، المستلقي ووجهه إلى أعلى في مبنى المعبد الذي بات مهجورًا. خطر الموت ببالي فانتابتني مشاعر غصَّ بها صدري وجفَّفت حلقي، واعتملت جذبًا ودفعًا في أحشائي. كان الأمر أشبه بداءٍ مزمن أُصبت به. فما إن يأخذ ذلك الشعور والاضطراب بالاعتمال في جسمي برمَّته، حتى أجدني غير قادر على التخلّص منه ريثما أستسلم للنوم. وما كنت لأستطيع

استحضاره بالقوة ذاتها نهارًا. ظهري وفخذاي كانت تنضح عرقًا غزيرًا، وإذ غمرني، غرقت فيه حتى الرأس. «الموت»، عندي، كان انعدام وجودي بعد انقضاء مئة سنة من الزمن، وبعد انقضاء بضع مئات من السنين، انعدام وجودي في مستقبل بعيد بلا حدّ. حتى في ذلك المستقبل النائي سوف تندلع حروب، وسوف يُرسَل أولاد إلى إصلاحيات، فيتعهَّر بعضهم مع اللواطيين، فيما يحيا بعضهم الآخر حياة جنسيّة سوية نوعًا ما. لكني حينذاك لن أكون موجودًا. عضضت شفتيَّ وأنا أغلي غضبًا، والجزع قابض على صدري، ورحت أتأمّل. لا بدَّ الآن من أن عددًا لا يحصى من الجراثيم يتدفّق من الجثّتَيْن جاعلًا الهواء في الوادي الضيق دبقًا لزجًا. والأسوأ أنه لم يكن بوسعنا أن نفعل شيئًا. اقشعرّ بدني رعبًا.

قال شقيقي: «ماذا دهاك؟».

قلت بصوت أجش: «لا شيء. عد إلى النوم، سريعًا».

قال بخجل بعدما ظل ساكتًا لفترة قصيرة: «ألا تشعر بالبرد؟ هناك تيار هواء بارد يدخل».

نهضتُ فجأةً وذهبت لتغطية الشقوق في الباب الخشبي الأمامي، نازعًا أحد حصائر القش من الأرضية. عبر أحد الشقوق، رأيت لهبًا لطيفًا ينبعث من حطب محترق في مكان ما حوالى المستوطنة الكورية على خاصرة الجبل المقابل، يومض مثل إشارة. لقد أشعل نارًا، فكّرت، شاعرًا بإحساس دافئ صغير، أشبه بالصداقة، عميقًا في جسمي، مثل برعم. عادت إليَّ الكدمات الخفيفة في كل أنحاء جسمي والوجع في منخريَّ في ما يشبه اللذّة. كان قويًّا حقًّا؛ بعض الكوريين أقوياء جدًّا، لذا عندما نتقاتل يستغرق الأمر بعض الوقت.

قال شقيقي بصوت متملّق: «أرني فتّاحة العُلَب-الجَمَل خاصّتك، هيَّا، قليلًا فقط».

أخرجتُ فتّاحة علب على شكل رأس جمل من حقيبة عدّتي ووضعتها في يده الممدودة. كانت غير ذات نفع الآن، لكني وشقيقي كنّا نفضّلها أكثر من أي شيء آخر، وكان يريدني أن أعطيه إيّاها. حين انسللت تحت البطانية مرة أخرى، التصق بي بظهره، بظهره الدافئ الأليف.

قلت بلطف: «هيه ألست خائفًا؟».

قال وقد غلبه النعاس بعد أن تثاءب تثاؤبًا واهنًا: «ماذا؟ فتّاحة العُلَب-الجَمَل، أما تعيرني إيّاها بعض الوقت؟ هل أستطيع الاحتفاظ بها في حقيبتي؟».

قلت بشهامة: «على أن تعيدها إليَّ لاحقًا».

أوشكت النار على الأرضية الترابية أن تخمد، بينما تتصادى حوالينا صرخات الحيوانات في الغابة المحيطة بالوادي، وخفقات أجنحة الطيور المفاجئة، وأصوات لحاء الشجر يتشقّق في البرد. طغت عليَّ صورة الموت المستفزّة، الميئوس منها، القاهرة، بينما كنت أبذل جهدًا موجعًا للخلود إلى النوم؛ فما أشدّ غيرتي حين سمعت تنفُّس شقيقي الهادئ، حتى كدت أفقد مشاعر الحنان التي شعرت بها نحوه! داخل القرية، كان المتروكون والموتى غير المدفونين إما نائمين وإما يعانون الأرق؛ خارج القرية، كان جميع القوم الخبثاء غارقين في النوم.

الفصل الخامس

تضامُن المتروكين

صباح اليوم التالي، للمرّة الثانية، طهوتُ وشقيقي عصيدةً في صمت فعلي، أجهزنا عليها من ثمَّ ونحن جالسان قبالة النار على الأرضية الترابية. لم نكن نشعر بأي شهية، لا أنا ولا هو. كانت القرية ساكنة سكونًا مطلقًا.

في الخارج، كان ضياء شمس الشتاء الضعيف اللطيف يغمر كل شيء، وأعمدة الصقيع على جانبي الطريق تتفتَّت. رفع كلٌّ منَّا ياقة معطفه حول عنقه ونزلنا على السفح. كان رفاقنا يجثمون مقرفصين أو يتجوّلون على غير هدى في الساحة أمام المدرسة. وقد جاء الهواء الكسول، والخمول الذي استبدَّ بهم، وسريا فيَّ سريان السُّم.

اقتعدنا حجرًا في إحدى زوايا الساحة واحتضن كلٌّ منَّا ركبتيه. أخذت المجموعة حول مينامي تلعب لعبة التقافز، لكن بينما راحوا يلعبونها على مضض وبقلَّة اكتراث، استبدَّ الغيظ رويدًا بنفوس المتفرّجين. فمع أنها كانت تستلزم القيام بحركة قوية، لم تكن في الحاصل مثيرة للاهتمام بأكثر من جلوس المرء محتضنًا ركبتيه. بعدما ملَّ مينامي والآخرون لعبة التقافز، شكَّلوا دائرة، وتركوا سراويلهم تنزلق،

وشرعوا بطونهم للريح تهبُّ عليها. ضحكات فاحشة وتهكّمات صاخبة. راحت ذكورهم، مغمورةً بضياء الشمس الساطع، تنتصب رويدًا، ثم ترتخي رويدًا، ثم لا تلبث أن تنتصب من جديد. تواصلت حركة أعضائهم التناسلية وقتًا طويلًا تحت أنظار الجميع، مستقلةً عن قوة الشهوة الفظّة أو عن هدوء الإشباع. ولم يكن الأمر مثيرًا للاهتمام هو الآخر.

في أثناء تلك اللعبة الخاملة، طفقنا نحدّق إلى ساعة جدارية قديمة جاء بها أحد رفاقنا إلى الخارج أو حاولنا، ونحن ننظر إلى السماء، أن نخمّن الوقت من موقع الشمس. لكنّ الوقت كان يمرّ ببطء، لا بل ببساطة لا يريد أن يمرّ. الوقت لا يتحرّك على الإطلاق، فكّرتُ مغتاظًا. الوقت، مثل حيوان أليف، لا يتحرّك من غير رقابة البشر الصارمة. الزمن، مثله كمثل حصان أو خروف، لن يتحرّك خطوة واحدة بلا أوامر من الراشدين. نحن حالة ثابتةٌ في ركود الزمن. ولا حيلة لنا في ذلك البتة. إنما ليس ثمة ما هو أقسى، وأشد إغاظة، وكالسُّم، أكثر إنهاكًا في أعماق جسمك من كونك حبيسًا لا تفعل شيئًا. نهضتُ وأنا أرتعش.

قال شقيقي: «هيه؟» ناظرًا إلى أعلى بعينين شاردتين، دونما تركيز.

قلت: «سأعطي بقية العصيدة للبنت في المستودع»، وقد طرأت الفكرة على بالي فجأةً.

قال بفتور: «طيّب»، مطأطئًا رأسه ومبديًا قذاله، الذي كان نحيلًا وقذرًا، لكنّه كشف مع ذلك عن جمالٍ يفطر القلب. تابع: «سأذهب وأفتّش عن بعض الخضار طيّبة المذاق».

قلت: «يحسن بك أن تجد بعض الملفوف الصيني»، وجريت صاعدًا السفح إلى صومعة الحبوب، تاركًا شقيقي خلفي.

كانت العصيدة قد تخثّرت وابتردت في قعر قِدْر الطهي. تردَّدتُ لمّا رأيتها، لكنني لم أصرف النظر عن خطّتي. لم يكن عندي شيء آخر أفعله. فبنظرنا، نحن المعزولين في القرية، كان كل شيء في مثل برودة العصيدة وقوامها، يرفض الذوبان برفق. فكرت، وأنا أجري عائدًا، كم الطريق بعيدة حقًّا عن الرقّة والدفء، ومثلها الأشجار عديمة الأوراق، ومبنى المدرسة، ورفاقي المقرفصون، الجاثمون كالبهائم.

كان باب المخزن الثقيل مغلقًا، تاركًا شقًّا ضيقًا. اختلستُ النظر إلى الداخل، فأربكني أن أرى وجه البنت أمامي بالضبط، ينيره الضوء الأبيض الذي يسبح فيه الهباء على نحوٍ غير طبيعي. كانت تنظر إليَّ بثبات، وعيناها منتفختان من قلّة النوم. وخلف كتفيها الضيّقتين، كانت الجثة لا تزال تحدّق إلى أعلى. كانت البنت قد ابتعدت عنها بسبب الرائحة، وتحاول استنشاق هواء نقي عبر شقّ الباب، فكّرتُ، شاعرًا باشمئزاز جديد يعتمل فيَّ. سارعتُ إلى دفع القِدْر عبر شقّ الباب.

وقفت البنت فجأةً، مرعوبة. الغريب أنّ صوتي المضطرب كان أجش وخَجِلًا.

«هيه، أنتِ، كُلي هذا، هيَّا».

انحنت في صمت، نزقةً كعصفور. نطقتُ من جديد، غاضبًا من نبرة صوتي البطيئة الغبية.

«أمك ماتت، أليس كذلك؟ هيَّا، كُلي».

غطَّت أذنيها ولزمت الصمت بإصرار. استدرتُ بعنف وجريت صاعدًا الطريق، عاضًّا على شفتيَّ غضبًا. همهمتُ لنفسي بصوت أجش «يا لي من أحمق! يا لي من أحمق!» لاعنًا البنت، مع علمي أنني لو أوقفت سيل شتائمي لبكيت. لا بدَّ أن شيئًا ما انتابني.

حين عدتُ إلى الساحة، كان رفاقي متجمّعين، يتوسّطهم شقيقي، منحنيًا بتعبير محموم على وجهه وممسكًا بين ركبتيه، بدلًا من رأس ملفوف صيني، كلبًا رثًّا متوسط الحجم، غير صحيّ المظهر نوعًا ما. كان الكلب يفرك خطمه على صدره على نحو أليف ويوعوع كأنه يتضوّر جوعًا.

سألت: «ويحك، ذاك المخلوق، أين وجدته؟»، وكنت منقطع النَّفَس من الدهشة: «ذاك الكلب، أين كان؟».

جاء جوابه تأتأة، ووجهه المظلَّل بلون النحاس يبدي برمَّته مزيجًا يتعذّر لجمه من الفخر والفرح والحيرة.

قاطع مينامي بصوت مستاء اختلط فيه الحسد والازدراء: «إنه عاجز عن الكلام من فرط سروره بالعثور على الكلب، فلنضربه حتى الموت ولنأكله».

انتفضت كتفا شقيقي واحتضن الكلب. وإذ رفع نظره، راح يحملق في مينامي بشراسة وهو يطفح بالتوتر.

قال مينامي: «انظروا، انظروا»، وقد استاء من تجهُّم شقيقي، مشدّدًا على نبرة الاحتقار: «إنه يتشبَّث بالكلب ويأبى تركه. فهو يجعل شيئه الذي بحجم البنصر والذي يترجرج كذنب الكلب يقسو».

تحمَّل شقيقي قهقهات الفتية الصاخبة، عاضًّا على شفتيه ومرتجفًا سخطًا.

قلتُ جازمًا، زاجرًا مينامي والآخرين: «خذه وأعطِه بعض السمك المقدَّد، لا تولِهم أيَّ اهتمام».

تبع الفتية الأصغر سنًّا شقيقي، الذي استعاد رباطة جأشه وهو يقود الكلب إلى صومعة الحبوب، صافرًا له برشقات قصيرة. حدَّق مينامي إليَّ بعينين تعكسان نصف ابتسامة مفتعلة، ثم ركل حجرًا بطرف حذائه. بما أنّ كلينا كان يشعر بالضجر، فمن الجيد لو أن أمرًا ما قُيّض له أن يحصل، لكننا لم نكن نملك طاقة على التقاتل.

كنَّا ساخطين من مماطلة الوقت العنيدة ومن الصمت المغلّف للوادي، فبدأنا نشعر بالتعب. وكنَّا نتوقع أمرًا ما. كلُّ ما من شأنه أن يرمّم سلامتنا وعنفواننا كان مرحَّبًا به، بما في ذلك عودة القرويين حتى. كنَّا قد اقتحمنا بيوتهم ونهبناها واحتللنا أماكن معيشتهم، لكننا ما عدنا نعرف أصلًا إن كنَّا نكره أولئك الذين تخلوا عنَّا أم لم نكن.

في وقت مبكر من العصر، ذهبت إلى المخزن لاسترجاع القِدْر لطهو عصيدة للغداء، وهو مشروع لم يحرّك شهيَّتي أصلًا إلا بشقّ النَفْس. كانت قِدْر الطهي، وقد فرغت تمامًا، قد دُفِعَت إلى الخارج عند الباب بالضبط. استرقتُ النظر إلى الداخل وحدَّقتُ وهلة قصيرة إلى عينيّ البنت الواهنتين، اللتين فقدتا حذرهما رويدًا رويدًا. لكن كلانا لم ينبس ببنت شفة. بعد تناول الوجبة، قسمت بقايا الطعام، فأعطيت نصفها للكلب الذي كان يفرك رأسه بورك شقيقي دون أن يحاول

المغادرة، وأخذتُ النصف الآخر للبنت. حدَّقتْ من العتمة وراء الباب إلى القِدْر الممدودة إليها. لكنها ما كانت لتبسط إليها يدًا وتأخذها. وضعتُها على الأرض، وبما أنني شعرت أنها ربما تريد ماءً، ذهبت إلى المضخّة أمام المدرسة لملء الدورق القديم.

حين عدت، كانت البنت تمضغُ الطعام من القِدْر بلهفة. أشرّتُ لها إلى القارورة، مع أنها لا تزال تبدي سيماء جامدة، وعدت أدراجي راضيًا جدًّا. أما كلب شقيقي، فما اكتفى بالإجهاز على حصَّته من عصيدتنا فحسب، بل راح يلتهم مختلف صنوف المأكولات التي طرحها رفاقنا أمامه.

في أواخر العصر، بعد انقضاء الوقت المتخثّر كثيفًا، رأينا فتى يحمل على ظهره حزمة ضخمة مغلَّفة بقماش أبيض ينزل ببطء على الدرب الضيّقة الآتية من المستوطنة الكورية إلى الوادي الذي كان يقطع مواربًا خاصرة الجبل المقابلة من منتصفها. أدركنا على الفور أنه غريمي في العراك وأن الشيء الذي يحمله على ظهره، مع أنه مغلَّف بالقماش، كان بالطبع جثة راشد ميت. تسمَّرنا في أماكننا ذاهلين.

طفقنا بلهفةٍ نراقب الفتى الكوري يشدُّ على نحوٍ أخرق أطرافه القوية لحمل الوزن الثقيل. حين اختفى رأسه والكتلة البيضاء خلف مبنى المدرسة نزلنا على الممشى، الذي كان مملوءًا بهواء رطب، تفوح منه رائحة البول، يتسرَّب من سقوف القشّ على امتداده، والذي أفضى بنا إلى السفح المعشوشب المؤدّي إلى الوادي. قطعنا من ثمَّ طريقنا ببطء نزولًا على جانبنا من السفح بينما كان الفتى الكوري يهبط. كان واضحًا أنه لَحَظَنا، لكنه أصرَّ على خفض بصره وتجاهلنا إلى أن بلغ

المرج المنبسط على أرضية الوادي، بجانب النهر الضيق بالضبط، حيث كانت ثمار جهودنا الأولى في القرية ترقد مدفونة.

بعد ذلك، وضع الكتلة أرضًا على المرج، ورمى مجموعتنا الصامتة بلمحة واحدة سريعة من عينيه الثاقبتين، ثم مضى صاعدًا الدرب الضيقة بسرعة رهيبة وعاد نازلًا وهو يحمل مجرفة على كتفه كأنها بندقية. صَعَقَنا ما هو مقبل عليه، حتى قبل أن يباشر حفر المرج عند الكتلة البيضاء التي وضعها أرضًا بالضبط. فكما أنه ينوي دفن ميته هو، كذلك سننوي دفن ميتنا نحن. استنطق بعضنا بعضًا بنظرات محمومة.

قال مينامي: «وَيْحكم، فلندفنه».

قلت: «فلنفعل»، مستمدًّا بعض القوة.

قال بسرعة مقاطعًا إيَّاي: «سنحمله إلى هنا. احفر أنت حفرة، أنت واثنان أو ثلاثة من الآخرين».

أومأتُ موافقًا وركضت إلى المبنى الشبيه بالمخزن الذي كانت المجارف فيه. كان شقيقي جاثمًا أعلى السفح، ممسّدًا ظهر الكلب المذعور، الذي كان يوعوع ويهزُّ ذيله منذ أن ظهر الفتى الكوري.

باشرنا العمل. كنت أعلم أن شقيقي يتحرَّق إلى الانضمام إلينا، ولكن حين كادت الحفرة تجهز وأقبل مينامي والآخرون نازلين يحملون رفيقنا السابق ملفوفًا ببطانية، أطلق الكلب عواءً مروّعًا وكأنه يُخنَق، وأخذ يتلوَّى ويدفع رأسه بين ساقَي شقيقي، فلم أستطع أن أناديه للعمل.

من الخبرة التي اكتسبناها حين دفنَّا جيف الكلاب والقطط

والجرذان إلى آخر ما هنالك، كنَّا نعلم أن علينا جعل الحفرة ذات عرض وعمق لا يستهان بهما لدفن جثمان بشري. لذا بعدما وضع مينامي والآخرون الجثة على الأرض، ملفوفةً بالبطانية بإحكام، عند أعلى المرج خلف كومة التراب الصغيرة حيث كنَّا قد دفنَّا الحيوانات، أتوا لمساعدتنا في الحَفر. على الجانب الآخر من الوادي، كان الفتى الكوري، رافعًا المجرفة بساعديه وكتفيه حتى تصير شبه شاقولية، يحفر حفرة لميته.

بعد أن بدأنا نتعرّق في ملابسنا الداخلية السميكة، ومع ظهور التراب العالق في الداخل الذي تفوح منه رائحة عفن، حملنا الشيء المغلَّف بالبطانية إلى الحفرة ووضعناه فيها، لكن الحفرة ظلَّت أكثر ضحالة من أن تتّسع لها. أخرجنا الحزمة، وقد باتت ملوّثة بالتراب الجديد، وانصرفنا إلى الحَفر من جديد ورحنا ننهال عليها بالمجارف.

لاح لنا أنّ العمل على الجانب البعيد من الوادي لم يكن هو الآخر يجري على ما يرام. أخذ الماء الجوفي ينزُّ من قعر الحفرة التي حفرناها. وضعنا الجثة الملفوفة بالبطانية في بركة الماء البني المُحمرّ المتعمّقة سريعًا. تاركًا مينامي والآخرين الذين واروا الجثمان الثرى وكأنهم يغرسون البصل، وانهمكوا من ثمّ في تغطيته بالتراب الناعم، ذهبتُ واقتعدت مكانًا بجانب شقيقي الذي كان جاثمًا مع الكلب الممسوك بين ركبتيه. من ذروة المرج حيث كنَّا متراصَّين، كانت الحفرة التي دفنَّا فيها ميتنا والحفرة التي دفنَّا فيها ذلك العدد الضخم من الجيف الحيوانية تبدوان وكأنهما بداية متتالية منتظمة، كأنهما نقطتَي علَّام. لاحت لي قبور بسيطة متجاورة إلى ما لا نهاية من نقطتَي العلَّام هاتين، وبينها فواصل

متساوية، جثث لا تحصى ينبغي التخلّص منها. فبوجود ساحات المعارك في العالم كلّها، كم من الناس سوف يموتون؟ وكم من الناس أكثر سوف يحفرون الحُفر لدفنهم؟ بدا لي أن قبرنا الوحيد سوف يتمدَّد إلى الأبد حتّى المسكونة بأسرها.

صديقنا الآن مستلقٍ في التراب، والماء الجوفي ينفذ إلى جلده وشعره وأنسجة شرجه الطرية. والماء الجوفي يتدفّق تحت سطح الأرض بعد أن تسرَّب عبر جِيَف بهائم لا تحصى، ومآله في النهاية أن تمتصّه جذور العشب الصلبة.

شعرتُ بالانسحاق، فتوانيتُ عن التفكير في الأمر. نهضتُ ونظرتُ عبر النهر. كان الفتى الكوري هو الآخر قد أنهى دفن ميّته. كان يصارع لحمل حجر قريب من كبر الحجم بحيث أنه لم يتمكّن من تطويقه بذراعيه إلا بشقّ النَفْس. فهمتُ نيَّته البديعة. إمّا أنّه أراد وضع الحجر نصبًا تذكاريًّا للميت، وإمّا أنّه أراد وضعه مثابة غطاء ثقيل خشية أن تقوم الجثة في جنح الليل. أيًّا ما كان الأمر، مسلكٌ كهذا كان ضربًا من البطولة، وقد راق لروحي التي باتت في الحضيض. ركضت هابطًا السفح وربَّتُّ على كتف مينامي الذي كان يكدّس كومة تراب على القبر.

قال: «هيه؟»، رافعًا وجهه المحتقن بالدم.

قلت: «انظر»، مشيرًا إلى الجانب الآخر، مع أنّ الأعشاب الطويلة وتموّجات الأرض كانت تخفي الفتى الكوري المنحني فوق الحجر: «إنه في ورطة؛ هيَّا نساعده».

رمقني مينامي بنظرة متحيّرة. لكنّه تبعني حين ركضتُ من غير تردُّد. قفزنا من فوق النهر وركضنا عبر الأعشاب على الطرف الآخر.

استقام بدن الفتى الكوري الضخم بسرعة، مستعدًّا للهجوم، وراح يرقبنا ونحن نقترب.

صحتُ، ملوحًا بذراعيَّ: «سنعاونك. ذلك الحجر ثقيل، أليس كذلك؟ سنمدُّ لك يد العون».

قال مينامي: «لن تقوى على حمله بمفردك».

نظر الفتى إلينا بعينين مليئتين بالريبة، ثم أخذ تعبيرٌ حائر ينتشر رويدًا من شفتيه السميكتين. اقتربنا منه مسبلي الأذرع، مُبديَين أنه ليس في نيَّتنا شنُّ هجوم غادر. تورَّد وجهه، ربما من الارتباك والإثارة. عاونَّاه على نقل الحجر. وعندما استقرّ الحجر بأمان فوق رابية التراب، تنهَّدنا بارتياح واستقام ثلاثتنا والتفت كلٌّ منَّا إلى صاحبيه. كنَّا جميعًا حائرين بسبب تبطُّلنا المفاجئ، وشعرنا بالحرج.

سأل مينامي، مرتبكًا، بصوت علق في حنجرته: «هل كان حيُّكم هو الذي يطيّر راية الورق الحمراء؟ هل ماتت أمك؟».

صرَّح الفتى الكوري، محركًا شفتيه ببطء: «إنه أبي. مات أبي. أمي فرَّت مع القرويين».

سأل مينامي: «ولماذا لم تهرب أنت أيضًا؟».

قال: «مات أبي، فلم أهرب».

قال مينامي مغمغمًا: «آه، أبوك»، ثم سدَّ فمه، وقد رضي بالإجابة أخيرًا. نقَّل الفتى الكوري عينيه البرّاقتين بينه وبيني، ثم حدَّق إلى منخريَّ الأحمرين المنتفخين. بادلته التحديق إلى الكدمات الزرقاء المسودَّة الكثيرة على وجهه العريض المفلطح. لاح على شفتي غريمي ما يشبه الابتسامة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألت مستعجلًا: «ما اسمك؟ إيه؟».

«لـي». خفض الفتى رأسه ليخفي ابتسامة لم يستطع لجمها ارتسمت سريعًا عبر وجنتيه وكتب اسمه على سطح الركام الترابي المنحدر بلطف بإصبعِ صندلِ القشّ المضفور الذي كان يرتديه من غير جاربين.

«أوه»، ندت عني غمغمة آتية من مكان عميق في حلقي، لكنني في الواقع كنت مبهورًا بجمال رسم الحرف الواحد 裡 المتشكّل من الخطوط التي رسمها. «اسمك لـي، أليس كذلك؟».

قال لـي: «لقد نسيتُ ما جرى صباحئذٍ»، وهو لا يزال خافضًا بصره.

نظر كلٌّ منَّا إلى عينَي الآخر وابتسم من غير سبب. أدركتُ أن لـي بدأ يروق لي.

سأل لـي مينامي: «هل دفنتموه؟» متظاهرًا بعدم الاكتراث، بحميميَّة إنسان مثله: «لقد مات أحدهم، أليس كذلك؟».

«واحد من أصحابنا».

أردفت، متذكرًا فجأة: «هناك جثة أخرى: ماتت امرأة في المستودع، هذا يعني أن ثلاثة أشخاص في القرية ماتوا».

قال لـي، وقد بدا عليه الاهتمام: «المرأة التي أُجلِيَت إلى المستودع، هل دفنتموها؟».

قلت: «لا، لم ندفنها بعد».

قال مينامي كَمَن له سلطان: «أيّ ضحية للطاعون لم يُدفَن بعد سينقل العدوى إلى الأحياء، سمعت هذا من الناظر في الإصلاحية».

قلت: «بوسعنا أن نُخرجها وندفنها، لأن البنت بقيت هناك معها».

صاح لـي: «أعرف تلك البنت»، مُظهِرًا أسنانه البيضاء العريضة، وعيناه تشعان فخرًا: «سأكلّمها».

قال مينامي بصوت عالٍ: «سندفنها إذن»، تماشيًا مع نبرة لـي: «سندفن أي شيء».

أحطنا بلـي من الجانبين وقفزنا عبر الساقية عائدين إلى رفاقنا المنتظرين بفارغ الصبر.

أخذتُ على عاتقي حفر حفرة بحجم أكبر من الحفرة التي حفرناها لرفيقنا، نواري فيها جثة المرأة التي تولّى لـي والآخرون أمر جلبها إلى الأسفل. ركض لـي ومينامي، مصطحبَين نصف الفتية، صاعدين السفح شديد الانحدار، منزلقين المرّة تلو الأخرى على العشب الأخضر المغطّى بالأوراق والقضبان الذاوية الصفراء، وهم يوعوعون مثل أبناء قبيلة من الهمج.

لمّا كنّا متعوّدين أصلًا على حَفر الحُفر، سار العمل على قدم وساق. رحنا نخوض في الطين، منقسمين إلى فريقين ينهالون بالمجارف وينبشون التراب. أخذت الحشرات تزحف من تحت السطح، فطفقنا ندوس عليها من فورنا. في تلك الأثناء، بدا أن لـي والآخرين كانوا يتجادلون والبنت أمام الجثمان في المستودع، فلم يعودوا رغم مرور وقت ليس بالقليل. بعد انقضاء وقت طويل، سمعنا أصواتًا عالية آتية من الطريق. تركتُ المجموعة تنهي ما بدأناه وذهبت صاعدًا الدرب الطيني، التي كانت تجفّ على مهل بعد ذوبان الصقيع في المرج الذي خلّف بِركًا موحلة.

ثمّ، كما هو متوقَّع، أقبل مينامي ومساعدوه، يمشون بخطى

منتظمة على طول الطريق، حاملين المرأة الميتة على أكتافهم، وقد لفُّوها ببطانية وملاءات بيضاء، وكأنهم يحملون عِجلًا مكسور القوائم. عاونهم الآخرون بأذرع ممدودة، بينما كان طويل القامة لـي منحنيًا يكلّم البنت التي ظلّت على حِدة من الرهط، وإن كانت تتبعه باهتمام شديد. مرّ بي حَمَلَةُ النعش وأنا واقف بجانب حجارة الرصف أراقبهم. ثم جاءت البنت، شاحبة الوجه، بشفتين متشقّقتين وعينين مغرورقتين بالدموع. لم تلتفت إليَّ، إذ ظلّت عيناها مثبّتتين إلى أمام مباشرة، وكتفاها ترتجفان من نشيجٍ مكبوت.

راح لـي يواسيها بلهفة: «انظري، لا حيلة لنا في الأمر، إنها ميتة، أمك ماتت، أليس كذلك؟ إنها تنتن، ولا بدَّ لنا من دفنها».

نزلت بعدهما مباشرة. كان فريقي منهمكًا في نقب التراب في صمت. ربما لأنهم شعروا بشيء من الحياء حيال البنت، ولأنه لم يكن عندهم ما يفعلونه سوى ذلك. وقف أفراد فريق مينامي حاملين الجثمان بأذرعهم. توقّفت البنت عند أعلى المرج، متجاهلةً نداءات لـي، وجلست، رافضةً الدنو من أي مكان قرب الحفرة. راحت تشاهد العمل الجاري والدموع تترقرق على خدّيها، وكتفاها ترتعشان من فرط النشيج.

قام رفاقنا بمَهَمّة متعهّدي الدفن بمهارة، فوضعوا الجثمان في أسفل الحفرة وأهالوا عليه التراب. طفقت البنت تنشج ووجهها مدفون بين ركبتيها. شعرتُ ولـي بالحرج من الوقوف على مقربة، فتركنا البنت الباكية ونزلنا إلى مسرح العمليات.

سأل مينامي لـي وهو مقبل: «هلَّا وضعنا حجارة فوقهما؟ لا أدري ما ينبغي عمله بعد مراسم الدفن وخلافه».

قال لـي: «عليكم بتسوية التراب. دوسوا عليه بأقدامكم ورصُّوه».

تردَّدنا. وقفنا من ثمّ بحذر شديد على ركامَي التراب الطريين، غير المرتفعين كثيرًا، فوق الجثث التي تقاسمت المثوى عينه. لم يقوَ شقيقي على البقاء على حدة، فذهب وانضمّ إلى الآخرين الذين كانوا يدوسون على قبر الحيوانات.

ما إن حذوت حذو لـي وأخذت أدوس على التراب ببطء حتى غرقت سلاسل الجبال المحيطة بالوادي في لون أحمر قاتم، ووحدها السماء المسائية فوق القرية الهادئة ظلّت بيضاء. لم يلبث الغسق الهابط أن أسبغ على مشقة وطء أقدامنا مغزى مهيبًا ومحدّدًا. كان الأمر مماثلًا لصورة «الموت» التي لا تطاق، صورة الموت التي اعتادت زيارتي ليلًا فحسب، قابضةً على صدري ومستقطرةً العرق من أنحاء جلدي كلِّها. انصرفنا إلى عملنا الجليل بحماسة متجدِّدة.

درج اليابانيون الأقدمون، وقد روَّعتهم فكرة بعث أمواتهم إلى الحياة، على طيّ أطراف الجثث وتكديس ألواح حجرية هائلة الوزن فوق قبورهم. نحن أيضًا دسنا على التراب لتسويته بأقدام دبَّت فيها القوة خشية أن يقوم صديقنا، الذي كان رفيقًا لنا ذات يوم، حيًّا من تحت التراب ويثور هائجًا في القرية التي تُرِك فيها الأطفال وحدهم معزولين.

ما لبثنا، على حين غرّة، أن طفقنا ندوس على التراب في صمت، مشكّلين بأجسامنا المتراصّة وأذرعنا المتشابكة حلقة ضيّقة، منتعشين بهواء الليل الذي هبط كثيفًا، وذريرات الضباب البارد، وريح الشتاء القارسة. بدأنا نشكّل رباطًا متينًا بين ذواتنا الحائرة. تحت طبقة التراب السطحية الرقيقة، التي اختزنت من دفء النهار الشحيح أكثر من الضباب أو من

إهابنا المقشعرّ، المبثَّر كجلد الإوز، كانوا مستلقين، أذرعهم وسيقانهم مسحوبة إلى أعلى، عيونهم القاتمة الباردة متوارية تحت أجفان ميتة، وديدان متلوّية آخذة في العبث بالأجزاء الحميمة بين أفخاذهم.

لقد بثّوا الرعب في فرائصنا، مثل طيور ترفرف بأجنحتها عند أقدامنا، لكنهم كانوا أقرب إلينا من الراشدين المتنكّبين بنادق الصيد على الطرف الآخر من الوادي خلف المتراس، الراشدين الجبناء من «الخارج» الذين كانوا لنا بالمرصاد. كان الليل قد هبط، وبما أنه لم يكن ثمة أحد يناديا بأصوات عذبة من صفوف البيوت الميتة، فقد طفقنا ندوس على التراب بأرجلنا في صمت مدة طويلة، متشبّثين بأكتاف بعضنا بعضًا.

صباح اليوم التالي، عندما خرجتُ ببقايا الطعام من الفطور، كانت الفتاة تتشمَّس على الدرجات الحجرية الواطئة أمام المستودع. للمرّة الأولى أخذت مني قِدْر الطهي حين ناولتها إيَّاها. جعلتني بادِرتها ألتهب في أنحاء جسمي كلّها. خطر ببالي أن أظلّ واقفًا أتفرّج ريثما تنتهي من الطعام. لكنها لم تباشر الطعام لبعض الوقت.

قلت بخشونة: «عند الغداء، تعالي وكُلي حيث نقيم»، وجريتُ مبتعدًا من دون أن أنتظر إجابة.

حان وقت الغداء، ولم تكن الفتاة قد لبَّت دعوتي بعد. مصطحبًا شقيقي الذي اقتاد الكلب، أخذتُ لها طعامًا مرّة أخرى. أحنت رأسها خفيضًا، ممسّدةً الكلب بأصابع قصيرة مرهفة، بينما ظلّت واقفة على حدة. عدت وأنا مسرور جدًّا أنّ الفتاة بدأت تألفني.

بما أن الجو كان باردًا للغاية وقت الغداء، أوقدتُ نارًا على أرضية الصومعة الترابية، واستلقيت قربها، وأصبت شيئًا قليلًا من النوم.

جاء شقيقي يوقظني. حثّني صوته شبه المتلعثم على الاندفاع خارجًا إلى الطريق، حيث كانت الشمس لا تزال عالية.

صاح: «لـي يناديـنا»، ورذاذ اللعاب يتطاير من زاويتي فمه: «يقول إنه سيُري الجندي للجميع».

صحت فيه: «أي جندي؟» وقد أصابتني عدوى التلعثم.

«الجندي؛ الجندي الفارّ».

دفعتُ كتفه بضراوة، وسارعت إلى نزول السفح. كان لـي في الساحة أمام المدرسة، ووجهه المتورّد، منتفخًا مثل ثمرة كاكي ناضجة، يحمرُّ ويحمرُّ من فرط الحماسة. كان مينامي والآخرون أكثر حماسةً حتى من لـي.

قلت للـي: «حقًّا، جندي؟» وأنفاسي تخرج متقطّعة كالشهقات.

قال بحذر، ممتلئًا بالريبة: «عِدوني ألا تخبروا القرويين، لن تحنثوا بوعدكم، لن تخونوني، أليس كذلك؟».

كرّرت بغضب: «حقًّا، جندي؟».

قال: «إذا وعدت، حذارِ من إفشاء السر».

التفتُّ وزأرت في الجميع: «لست واشيًا. سوف نصرع كلَّ مَن تُسوّل له نفسه فعل شيء كهذا».

«اتفقنا... فليُقسم الجميع على لزوم الصمت».

أقسم الرهط كلّه، فرادى وجماعة، يمينًا مغلّظة على التزام العهد.

تكلّم مينامي، وقد احتدَّ صوته من فرط السخط واللهفة، كأنه يكاد يتوعَّد لـي الذي كان لا يزال متردّدًا:

«أنت تعاملنا معاملة الكلاب. كفَّ عن هذا، وإلا جعلناك تندم».

حسم لـي أمره، فأومأ موافقًا. أحطنا به وركضنا نازلين الطريق. بدا متوتّرًا، وكأنه بدأ يشعر بالندم على إفشاء سرّه، فلا يجيب عن أسئلتنا أصلًا إلا بشقّ النَفْس. لكنّنا، مصرين على مضايقته، عبرنا الجسر القصير وتسلّقنا الدرب المنحدِر المؤدّي إلى المستوطنة الكورية. تذكّرتُ طلاب الحربية وهم واقفون على أُهبة الاستعداد بجانب الشاحنة وزمرة الصيادين القَتَلة من القرية ممسكون برماح الخيزران، يفتّشون عن الفارّ. لا بدَّ من أن تفادي تطويقهم والهرب عبر الوادي كان من المشقّة بمكان.

سألتُ سؤال المجموعة الملحاح مرّة أخرى بصوت قوي، وذراعي حول كتفَي لـي: «أين وجدت الجندي؟ هيًّا، خبّر».

قال متلعثمًا: «لا أدري حقًّا. كان أصلًا لاجئًا في مستوطنتنا منذ بعض الوقت. إنه ينام نهارًا في المنجم المهجور، ويأتي ليلًا لتناول وجباته».

استفسر مينامي: «إذًا فهو في المنجم الآن؟».

«إنه الآن في منزلي، لأن القرويين والقوم من مستوطنتنا فرُّوا».

قال شقيقي بصوت متحمّس: «وماذا يفعل؟ هيًّا، قل لنا ماذا يفعل؟».

أجاب لـي ممتعضًا: «سأريكم إيَّاه الآن»، ثم أطبق فمه ساكتًا.

كانت المستوطنة الكورية عبارة عن بيوت كالمخازن، أفقر حتى من بيوت القرية وذات طُنُف أخفض من طُنُفها. وحيث إن الطرق كانت تعدم حجارة الرصف، كان الغبار يتصاعد من الأرض العطشى. وبما أنّ البيوت كانت تولي ظهورها للغابة مباشرة، امتدّت أغصان أشجار التنوب الكثيفة تتمادى مخيّمةً على الطريق. واصلنا سيرنا، وحلوقنا قد جفَّت من فرط الإثارة، مطيعين لي، وخطواتنا تثير الغبار كثيفًا.

توقّف لـي عند نهاية صف البيوت، أمام باب البيت المنخفض ذي اللوحين، الذي نخرته الديدان فشوَّهته، البيت عينه الذي رأينا الراية الحمراء مرفرفةً عليه، فتوقّفنا أيضًا. أعطى عندئذٍ إشارة صغيرة خفيَّة ومضى صاعدًا الدرب الضيّقة المؤدّية إلى الجزء الخلفي من المنزل. انتظرنا. انفتح الباب المنخفض فجأة، وأبرز لـي رأسه من الداخل واستدعانا بصوت وقور كئيب:

«تفضلوا بالدخول».

دخلنا ورأينا، بعيون تعوَّدت الظلمة تدريجًا، رجلًا مضطجعًا على حصائر من القَشّ ممدودة على الأرضية الترابية يرفع الجزء العلوي من جسمه ببطء. حدَّقنا إليه جميعًا، حابسين أنفاسنا، وبعضنا متكوّم فوق بعضنا الآخر، مُسْتَرِقين النظر إلى الداخل من الخارج، بما أن البيت لم يتّسع لنا جميعًا. التفت الرجل ناظرًا إلى لـي الذي كان واقفًا خلفه. تفرَّسْنا مشدوهين في حلقه، الشاحب والمغطّى بأعواد القَشّ، الذي كان ينتفض في العتمة.

قال لـي، وكأنه يشجّع الرجل: «أوه، كلّ شيء على ما يرام، إنهم أصدقاء. قالوا إنهم لن يشوا».

ذابت عقدة التلهُّف الدافئة في صدري وسَرَتْ في أنحاء جسمي خيبةٌ مريرة. لم يكن في الرجل أي شيء من ألق، من بريق طالب الحربية. لم تكن عنده تلك المؤخّرة الصغيرة المكتنزة التي تثير الشهوة، ولا العنق متين العضل والذقن الحليق الضارب إلى الزرقة. بدلًا من ذلك، كان صامتًا بكآبة، يبدي وجهه البائس الضامر، الذي لا يمكن التكهُّن بعمره، تعبيرًا متعَبًا قاتمًا. وبدلًا من الزيّ الحربي الشهواني، الخليع تمامًا، كان يلبس سترة عمل.

قال لـي: «كلُّكم، ألقوا عليه نظرة سريعة، ثم أعطوا الآخرين دورًا»، وكأنه يُري أصدقاءه أرنبًا، ويريد بوضوح أن يضع «أرنبه» جانبًا بسرعة: «إنه متعب، هو لا يريد أن يصير فرجة وقتًا طويلًا جدًّا».

عاد الجندي إلى الاضطجاع على الحصير أمام أنظارنا. خرجنا، في صمت أيضًا، متبادلين أماكننا مع رفاقنا المتدافعين في المؤخرة. كان الهواء في الخارج باردًا، عكس الجو داخل البيت الذي كان مفعمًا برائحة الحيوانات الأليفة. غارقًا في الخيبة، رحتُ أتنفّس في الريح التي كانت تشي برائحة لحاء الشجر.

غير أنّ رفاقنا الأصغر سنًّا، وخدودهم محتقنة بالدم، كانوا متحمّسين ومسرورين لرؤية الفارّ. اصطفّوا من جديد خلف الذين كانوا ينتظرون دورهم توّاقين لرؤية الجندي مرّة ثانية. شعرتُ بالاحتقار نحو الفتية الذين كانوا يناقشون فراره في ما بينهم بإعجاب. سَرَت فيَّ قشعريرة بليدة كريهة.

أشرتُ إلى شقيقي بأن يعود إلى القرية، لكنه كان يتحدّث والآخرين عن الجندي، وعيناه مشعَّتان. كانوا جميعًا يفيضون إثارة.

قال أحدهم، وهو يُتأتئ من فرط الهياج: «الكوريون هم الذين خبَّأوه، لم يفقه رجال الشرطة كلامهم لأنهم تكلَّموا في ما بينهم بالكورية».

قال آخر: «لقد نجا من الصيد بأعجوبة. حتى الخنزير البرّي بمقدور أولئك الصيادين أن يصطادوه».

صرخ شقيقي بصوت حاد: «لقد هرب. هرب..».

خرج مينامي نَكِدًا، فاركًا قبضته على مقعد سرواله. عدت وإيَّاه إلى القرية رأسًا. تكلَّم مينامي وهو يسير نازلًا السفح، زامًّا شفتيه تبرُّمًا:

«الأمر مقزّز، إنه حقًّا قذر. يا لها من خيبة!».

قلت: «مع أنه طالب حربية، يبدو عليه الجبن».

قال: «أجل. في حياتي لم أرَ طالب حربية على شاكلته».

«هل كنت لتنام معه رغم ذاك؟».

«لن يكون منه نفع، مثل دجاجة بالضبط».

عَبَسَ في وجهي، مُبديًا احتقاره واشمئزازه، ضحك من ثمَّ ببرود. انتظرنا على الجسر قدوم شقيقي والآخرين نازلين. لكنّ قدومهم استغرق وقتًا طويلًا.

قال مينامي فجأة: «بأي حال، سأذهب وألقي نظرة، فالأمر يزعجني».

أكثر غضبًا حتى، شيَّعته وهو يصعد السفح راكضًا، ثم سوَّيت كتفيَّ، وصعدت الطريق إلى الساحة.

كانت الفتاة جالسة أمام المستودع محتضنةً ركبتيها. ذهبتُ إليها للتخفيف من شعوري بالوحدة. نظرتْ إليَّ في صمت بعينيها

المبهمتين، المظلّلتين البنيتين الضاربتين إلى الرمادي. اتكأتُ على حائط المستودع، وراح كلٌّ منّا يتفرّس في الآخر بعض الوقت.

قلت، مبتلعًا ريقي: «هيه هل سمعتِ بأمر الفارّ؟».

ظلّت الفتاة صامتة، غير متجاوبة.

قلت، هازًّا كتفيَّ: «طيّب، هل أنت صمّاء بكماء؟».

خفضت بصرها. انتشرت ظلال رموشها على أجفانها وانقلبت زرقاء، مثل ظلال الأوراق والعشب.

قلت: «تعالي وتناولي وجبة في منزلي هيَّا».

رفعت رأسها شاردة. انحنيتُ وأمسكت بذراعها محاولًا حملها على الوقوف. عندئذٍ، فجأةً، خُدِشْتُ بقوة رهيبة. استبدَّ بي الغضب، فنهضت مغادرًا من فوري، تاركًا إيَّاها هناك.

حين استدرت في الساحة أمام المدرسة، كانت تنظر إليَّ وتتبعني مثل ابن عرس ماكر. انتابني ذهول تام، واشمئزاز. لكنّ قدومها كان أمرًا جيدًا. تظاهرتُ بعدم ملاحظتها. عدتُ إلى المخزن وانتظرتها.

حين أوشك صبري على النفاد من طول الانتظار، دخلت الفتاة بهدوء خلف شقيقي المبتهج. بلَّغنا بحماسة أن الفارّ كان على الأقل قد خرج من البيت وتبادل بضع كلمات بسيطة معه ومع الآخرين. لم تحاول الفتاة، الجالسة محنيَّة الرأس بجانب النار على الأرضية الترابية، أن تعاون في طهو وجبة المساء. شعرتُ برغبة في انتهارها وتوبيخ شقيقي.

ولكن، ما إن باشرنا الطعام حتى سارت الأمور بين ثلاثتنا على ما يرام. راحت الفتاة تمضغ طعامها، محرّكةً بتؤدة قذالها المسودَّ من

الوسخ. نظرت من ثمَّ باستغراب إلى شقيقي الذي كان يناول الكلب طعامًا بفمه.

قال فجأة، إذ طرأت بباله فكرة: «هيه، يا أخي، سَمِّ كلبي».

قالت الفتاة: «اسمه كوما [دب]».

نظرتُ إلى الفتاة مندهشًا. كانت مرتبكة هي الأخرى. حين نادى شقيقي بذلك الاسم 熊، هزَّ الكلب ذيله بشدّة. ضحكتُ وشقيقي بسعادة، وضحكت الفتاة ضحكة قصيرة متحيّرة. استعدتُ معنوياتي، فطفقتُ أضحك مدّة طويلة.

سأل شقيقي قِلِقًا: «هل هذا الكلب لكِ؟».

أومأت الفتاة برأسها.

قال، متنفّسًا الصعداء: «إنه لطيف، أليس كذلك؟».

وددتُ أنا أيضًا أن أقول شيئًا للفتاة، لكن لم يخطر ببالي موضوع مشوِّق. والأنكى أنّ حلقي كان يَخِزُني، حتى بدت الكلمات وكأنها ملتصقة به وتأبى الخروج. لذا يئست من محاولة الكلام، قانعًا بوضع مزيد من الخشب على النار أمامها. ولمّا كنَّا شبعانين تمامًا، والنار تبثُّ حرارةً جعلت خدودنا تتوهّج، كنَّا ثلاثتنا والكلب في حالة عظيمة من الرضا، بصرف النظر عن حديث شقيقي عن الفارّ.

صباح اليوم التالي، بدأنا وجبتنا بالطريقة ذاتها بدعوة الفتاة من المستودع. ذهبنا بعدئذٍ إلى الساحة سوية. جلست الفتاة صامتة على أحد الجوانب في ظلال الأشجار، لكنها لم تحاول العودة إلى المستودع قط.

الفصل السادس

الحب

عصرًا، هبَّت الريح فجأةً: كانت السماء صافية، لكنّ الجو أخذ يوغل في البرد. راحت الشجيرات المتبرعمة حديثًا والجنيبات تحت الأجَمات العارية من الورق على خاصرات الجبال حوالى الوادي، تهتزّ مع الريح وتلمع برّاقة. أوقدنا نارًا في الساحة أمام المدرسة وتجمَّعنا حولها، جالسين نحتضن ركبنا أو نتمشّى حول الساحة. دخان النار الأزرق الشاحب، الذي سرعان ما بدَّدته الريح، لم يبلغ السماء، وبما أنّنا شَخَصْنا بأبصارنا إلى منظر القرية المتمركز حول برج الناقوس المنخفض مدّة كانت من الطول أو بحيث أنها كادت تنتقش في ذاكراتنا، بات حتى التحديق الفارغ إلى ذلك المشهد شديد الإملال. فكان علينا أن نصرف الوقت من دون النظر إلى شيء بعينه، إما بالبقاء ساكنين وإما بالتنقّل. أدركنا من ثمَّ فجأةً أن العيش محبوسين في القرية أنهكنا وأضنانا. كان الإرهاق والفتور اللذان أصابانا جميعًا، ناهيك عن قلّة الجَلَد، من سمات المزاج الذي أحبط همَّتنا.

بيد أنه حين جاء الجندي إلى الساحة في صحبة لـي، تحمَّس الفتية واستردّوا معنوياتهم. بدا الجندي أيضًا أفضل مما كان عليه

حين رأيناه البارحة في البيت المعتِم. لكنه ما إن تهاوى جالسًا أرضًا أمام النار حتى طفق يسرّح بصره متفحصًا وجوهنا المستفسرة بعينيه الضعيفتين، المحتقنتين بالدم كعيني أرنب بري.

شرح لـي: «ذهبنا لرؤية مسار الترولي، إذا ظلّ الأمر على ما هو عليه الآن، محال أن يأتي أحد إلى القرية من الخارج للقبض عليه. ذهبنا للتأكّد من الأمر».

أدركنا أن الجندي استفاد من إغلاق القرية. خفض عينيه دون حملقتنا.

قال له شقيقي بخجل: «إذا قُبِضَ عليك..» وما لبث أن لزم الصمت.

توسَّط لـي: «ستُحال إلى المحاكمة».

قال مينامي متهكِّمًا: «ستُعدَم رميًا بالرصاص، ستُعدَم رأسًا».

رفع الجندي نظره إليه بوجه مشدود القسمات. كان مينامي غاضبًا بالفعل. توقّعتُ أن يقوم الجندي ويطرحه أرضًا، لكنه اكتفى بالحملقة فيه مثل طفل، مبهوتًا بوضوح.

قال مينامي: «هاه»، مسوّيًا كتفيه.

قال لـي: «هذا الرجل يحسن الهرب. لن يُقبَضَ عليه أبدًا».

قال شقيقي: «لن يُقبَضَ عليه، لن يُقبَضَ عليك، أليس كذلك؟».

نظر الجندي إليه. شعرتُ بأنّ كلام شقيقي شرح صدره، لكنني كلّما رأيت راشدين يواسَون على هذا النحو شعرت بالغثيان. لذا أيّدت مينامي في تنكيده.

سأل رفيق آخر: «عندما لذتَ بالفرار هل قتلت أحدًا؟».

أجاب عنه لـي: «لم يقتل أحدًا؛ ولا أطلق النار حتى، هل فعلت؟».

نطق الجندي للمرة الأولى: «لا».

قال لـي: «إنه فقط لم يعد بعد أن خرج».

سأل واحد من الرفاق، محمرًّا خجلًا من غباء سؤاله: «لم تشأ العودة، أليس كذلك؟».

لزم الجندي الصمت.

قال الفتى: «شئتُ أن أنضم إلى طلاب الحربية»، وتلى ذلك سكوت وجيز. استولت علينا جميعًا جدّية مشحونة باشتهاء بزَّة طالب حربية.

قال الجندي فجأةً على نحو مهيب: «لم أكن أريد الذهاب إلى الحرب، لم أكن أريد قتل بشر».

مَلَأَنا هذه المرة سكوتٌ أطول، إحساسٌ بوجود خلاف غير مريح لا يطاق. اضطررنا إلى كظم ضحكات حائرة سبَّبت لنا حكاكًا في مِعَدَنا وأردافنا.

قال مينامي: «أما أنا، فأريد أن أذهب إلى الحرب وأقتل بشرًا».

قال الجندي: «وأنت في هذه السن، تراك لا تفهم، لكنك بعد ذلك، فجأةً، تفهم بالفعل».

خيَّم علينا صمت، ونحن نشكُّ فيه نصف شك. لم يكن الموضوع مشوِّقًا. وقف الكلب الجاثم بين ساقَي شقيقي فجأةً وذهب يتشمَّم عند ركبتَي الجندي النحيلتين. مسَّد رأسه شارد الذهن.

قال شقيقي، سعيدًا للغاية: «أليس لطيفًا؟ إنه يُدعى دب».

قال الجندي: «ليو أفضل».

قال شقيقي «ليو»، بعد سكوت وجيز. ثم تجنَّب نظرتنا اللائمة: «سأغيّره إلى ليو، لأنه كلبي».

وددتُ لو أعرف إن كانت الفتاة، التي كانت متّكئة على شجرة توت عند زاوية الساحة، قد سمعت الحوار بخصوص اسم الكلب، لكنني صدقًا لم أستطع الجزم. كان غير مستحب أن يتخلّى شقيقي بهذه السهولة عن اسم الكلب الذي علَّمتْه إيَّاه.

كرَّر شقيقي على نحوٍ حالم «ليو».

قال مينامي: «كنتَ طالبًا، أليس كذلك؟».

قال الجندي: «أجل. طالبٌ في العلوم الإنسانية».

قال مينامي بازدراء: «هذا ما خمَّنته، كان هناك طالب يعيش قرب منزلي أطلق على قط اسمه مثل هذا الاسم».

بدا الجندي، وقد ظهر عليه الارتباك واضحًا، وكأنه يحاول أن يتجاهل إصرار مينامي المستمر على استدراجه. تركتُ الرهط وذهبت ناحية الفتاة التي كانت جالسة عند قاعدة شجرة التوت.

قلت لها: «خاف من الحرب، فهرب». لزمتْ الصمت. تابعتُ: «أنا أكره الجبناء. عندما أكون بقربه أشمُّ رائحة نتنة. أنت أيضًا تكرهينه، أليس كذلك؟»

رفعت الفتاة نظرها إليَّ، حائرة، ثم ابتسمت ابتسامة واهنة. امتعضت، فعدت إلى الصومعة حَرِدًا وأنا أُصَفِّر.

تلك الليلة، تألَّق القمر ساطعًا. وبما أن شقيقي ذهب مع لـي إلى المستوطنة الكورية ليتعشّى مع الجندي، مصطحبًا الكلب، لم يبقَ لي وللفتاة إلا أن نأكل العصيدة وحدنا. صرفنا من ثمّ وقتًا طويلًا صامتَين، ندفئ أيدينا قرب النار على الأرضية الترابية، تاركَين معدتينا تقومان

بعملهما بسلام. من وقت لآخر، كانت طيورٌ تزعق في الغابة زعيقًا أجش. كنت منزعجًا قليلًا أنّ شقيقي كان على هذه الدرجة من الهوس بالفارّ. تثاءبتُ وذرفتُ بعض الدموع. سرت العدوى مني إلى الفتاة، فتثاءبت تثاؤبًا صغيرًا، دافعة أمامها بقبضتيها المشدودتين بإحكام. بدت تعبة للغاية.

سألت: «هل تشعرين بالنعاس؟».

قالت بوهن: «أجل».

قلت: «لا أشعر بالنعاس».

كان شعر الفتاة بلون العنب ملتفًّا حول عنقها النحيل، ومن جسمها برمَّته تفوح رائحة أشبه برائحة القَشّ العَفِن. فكّرتُ بهدوء أن جلدها لم يكن أنظف من جلدي. سكتنا من جديد وقتًا طويلًا. بدأتُ أقلق أن شقيقي لم يكن قد عاد إلى البيت بعد.

قالت الفتاة «هيه»، مديرةً نحوي وجهها الأسمر الصغير.

قلت متفاجئًا: «ماذا؟».

«أنا خائفة».

«بالطبع أنت خائفة؛ ليس في هذا ما يدهش».

قالت وهي تلوي شفتيها وكأنها على وشك البكاء: «أنا خائفة».

«هل أنت خائفة من البقاء في القرية، من بقاء الأطفال في القرية وحدهم».

«أنا خائفة».

قلت وقد استبدَّ بي الغضب: «كلُّنا خائفون، نحن خائفون، لكن ليس بوسعنا أن نفعل شيئًا، أليس كذلك؟ لأننا معزولون».

قالت: «أنا خائفة»، وأخذت تنشج دافنةً وجهها بين ركبتيها. تجاهلتها بعناد ولزمتُ الهدوء، لكنّ الفتاة استمرّت في البكاء بصوت ناعم، فأزعجتني أكثر فأكثر واستفزّتني.

قلت: «حتى إذا ذهبتُ وناديتُ القرويين سيأبون العودة، وحتى إذا عادوا فعلًا سيقبضون على الجندي ويقتلونه».

واصلت نحيبها لا يواسيها شيء. تفاقم في داخلي شعور جنوني. عضضت على شفتي، ثم نهضت وأخرجت من حقيبة عُدَّتي الخارطة التي كان الطبيب قد أعطاني إيَّاها. كان مسار الترولي الذي يقطع الوادي والمسلك المؤدّي إلى بيت الطبيب مرسومين رسمًا تقريبيًّا فيها.

قلتُ بفظاظة للفتاة التي رفعت نظرها إليَّ، ووجهها مبلَّل بالدموع: «سأقول لهم أن يأتوا ويصطحبوك أنت فقط، سأذهب وأقول هذا للقوم على الطرف الآخر من الوادي. كفاكِ نحيبًا».

خرجتُ إلى الطريق الذي كان ساطعًا في ضوء القمر. كان الضباب يندفع بقوة الريح، قاسيًا وقارسًا. تبعتني الفتاة إلى الخارج، لكنني لم أنظر ورائي. لم أدرِ حتى إن كان بمقدوري أن أبلغ الطرف الآخر من الوادي أم لا. لكني على أيّ حال أردت أن أسلّم الفتاة، التي كان وجهها الصغير مبلَّلًا بالدموع وجسمها برمَّته يفوح منه النتن، إلى الجماعة على الطرف الآخر. لم يعد بوسعي أن أحتمل.

عندما خرجتُ من الغابة، أبصرت مسار الترولي، يقطر من شدّة كثافة الضباب، مُشِعًّا في ضوء القمر. ثم أبصرتُ كتلة المتراس السوداء تلوح من بعيد. كان الضوء في الكوخ على الطرف البعيد حيث ينبغي للخفير

أن يقوم على الحراسة مطفأً. التفتُّ وكلَّمت الفتاة التي كانت تعضُّ شفتيها الزرقاوين من شدّة البرد.

«انتظري هنا؛ سأكلّمهم في أمرك».

حين خطوتُ على رواقد المسار، وأنا أحرص على عدم الانزلاق، هجم الضباب وهبَّت برودة قارسة من تحتها، فضربا وجنتيَّ ولسعا منخريَّ. بعيدًا في الأسفل، كان تيار الماء المتلألئ في ضوء القمر وصوته وهو ينخر في الصخر يوحيان بحركة دوَّامية. ببطء، أخذتُ أسير على الرواقد، مقوّسًا ظهري مثل حيوان. ما لبث هياجي أن خمد. خطر لي أنّ ما أفعله ليس بشيء ذي بال، لكن لم يكن في نيَّتي أن أتراجع عنه. لذا أغمضتُ عينيَّ نصف إغماضة لأدرأ عنهما أذى الريح القاسية اللاذعة وركزت انتباهي كلّه على الخطو على النقطة الميتة من كل راقدة.

كان المسار طويلًا جدًّا والريح مستشرسة. بحلول الوقت الذي بلغتُ فيه المتراس، الذي تكومَّت عليه جذوع الشجر وحُزَم القضبان والألواح وقطع الصخر، كان التعب قد نال مني بحيث اشتهيت الاستلقاء والنوم، وكان حلقي جافًّا. تأكّدت أنّ المتراس كان أثقل وزنًا وأعقد من أن أستطيع إزالته، وكذلك أنني إذا تسلَّقت فوقه لا بدَّ من أن ينهار على الفور. أمعنتُ النظر في الوجه السفلي من الرواقد. لم يكن من سبيلٍ آخر. استقمتُ أولًا ووضعت يديَّ المتجمّدتين داخل سروالي وفي أُربيتيَّ لتدفئتهما. بينما كانت يداي تستردَّان حسَّهما، تلمَّستا وجود قضيبي، وقد انكمش وتغضَّن من فرط البرد والخوف.

مستندًا بمرفقيَّ على الرواقد، تلولبت وسللت ساقيَّ عبر الفجوة الضيقة. في اللحظة التالية، كنت أتدلَّى من الرواقد بكلتا يديَّ، كاشفًا

جسمي كلّه لفراغ الوادي الجليدي. هبَّت عليَّ الريح القاسية والبرد القارس، بالإضافة إلى شعور رهيب بالوحشة. كان لا بدَّ من التصدّي لها. تلوَّى جسمي عشوائيًّا مثل قريدس يُغلى في ماء فاتر، وطفقتُ أتأرجح من راقدة إلى الأخرى.

حين كادت قوّتي أن تنفد، وضعتُ يديَّ على الراقدة الأخيرة، وبشهقة كادت أن تكون صرخة، رفعتُ نفسي، ثانيًا مرفقيَّ حتى صارت ذقني على مستوى الراقدة، ثم وضعتُ مرفقيَّ على سطحها العلوي الذي كان مغطى بالصقيع البلوري، ورفعت جسمي. تمطَّيت واقفًا فوق الرواقد وأنا ألهث طلبًا للهواء. لكنني ما كنت أستطيع أن أطيل المكوث هناك مكشوفًا تمامًا في ضوء القمر. فلو أُطلِقَ عليَّ الرصاص من كوخ الحارس لتهشَّم رأسي من أول رصاصة. طفقتُ أزفر لاهثًا بقوّة وأنا أسير فوق الرواقد على امتداد المسافة القصيرة الباقية، وعندما بلغتُ الأرض الصلبة تسلَّقتُ السفح راكضًا بجانب الشجيرات القاتمة، متفاديًا ضوء القمر. إذ ذاك، من غير أن أضطر حتى إلى إخراج الخارطة من جيب صدري والنظر إليها، عبرت أرضًا حرجية تختلط فيها متناثرةً أشجار البلّوط والكستناء المغروسة معًا، وإذا بقرية صغيرة بعض الشيء جاثمة أمامي بسلام في ضوء القمر. ظهرت فجأة، بالطريقة ذاتها التي ظهر بها حتى الآن كلّ تجمُّع سكني زراعي.

نزلتُ الطريق المنحدرة المعلَّمة بأحجار مدوَّرة، ومنها إلى القرية. كانت مصنوعة من بيوت، وأشجار على امتداد جانبي الطريق، وأزقة متلوّية، تكاد تماثل البيوت والأشجار والأزقة في القرية التي كنَّا مسجونين فيها. لكن، كان ثمة فارق حاذق في الجو في هذه القرية، الأمر الذي

أخافني. كان أناس يعيشون هناك. كان غرباء يعيشون هناك. كانت القرية هادئة وشعرتُ بحركة الحيوانات الأليفة آتية من دواخل البيوت، تلك الدواخل الباردة المعتمة. طفقتُ أمشي بين البيوت منخفضة الطُنُف، ملقيًا بظلّ صغير في ضوء القمر. كان الغرباء الذين عزلونا وأقاموا علينا الحراسة نائمين في تلك البيوت. حرَّض الخوف ودفق عنيف من الإثارة موجات من القشعريرة تتسابق على جلدي الملذوع من الصقيع. لكبح الدافع إلى الفرار بأسرع ما أستطيع، ركَّزتُ في البحث عن بيت الطبيب.

طرقتُ باب بيت الطبيب غربي الطراز الذي كان مُنزَّلًا بألواح من الزجاج المحفَّر والمفقَّع. ثم خطوتُ خطوة إلى الوراء، في ضوء القمر تمامًا، لأتفرّج على الباب بألواحه الزجاجية، شديدة الندرة في القرى. أضيء مصباحٌ خلفه، ثم أقبلت إلى المدخل هيئة شخص يهمّهم في حلقه، ثم بَرَزَ من شقّ الباب رأس صغير، شبيه برأس حيوان، رأس الطبيب الذي سبق أن رأيته عند المستودع. رمق كلٌّ منَّا الآخر بحذر شديد. فكّرت مرتعبًا أنه يجب عليَّ أن أقول شيئًا، لكنني كدت أغصُّ وأجهش بالبكاء.

قال الطبيب بصوت جعل مشاعري التي لانت تقسو فجأة: «عجبًا، ما الذي جاء بك هنا؟».

لُذْتُ بالصمت، محملقًا فيه بعينين متوسّعتين. امتلأ خدَّاه المكتنزان وأنفه الصغير بما يشبه الخوف، الأمر الذي قسَّى قلبي أكثر.

«أنت، ما الذي جاء بك هنا؟ إيَّاك والعنف، وإلا ناديت أحدهم».

قلت بصوت متحمّس، غليظ، كاظمًا غضبي: «لا شأن لي بالعنف لم آتِ هنا من أجل ذلك».

كرَّر: «فلماذا جئت؟».

«تُرِكتْ البنتُ القروية في المستودع. إنها تريد الخروج من القرية. أنت، أخرِجْها، رجاءً».

نظر إليَّ الطبيب من قمة رأسي حتى قدميَّ متفحّصًا. رأيتُ لثّته العارية تلمع من غزارة اللعاب، والخبث يمتدّ منها بسرعة منتشرًا في تقاسيم وجهه كلّها. كرَّرتُ بإلحاح:

«أرجوك، تعال وافعل ذلك».

سأل: «كم واحدًا منكم أصابته عدوى المرض؟ كم واحدًا بقي حيًّا؟».

قلت مندهشًا: «ماذا؟ لسنا مرضى؛ والفتاة أيضًا على ما يرام. لا يوجد وباء».

نظر إليَّ بمزيد من التفحّص.

«إن كنت تظنني أكذب، ألقِ نظرة عليَّ. سأخلع ملابسي حتى تفحصني».

قال الطبيب: «لا تتكلَّم بهذا الصوت العالي، مَن قال إنني سألقي نظرة عليك؟».

أنزلت يديَّ عن أزرار معطفي التي فككتها كلها تقريبًا لتعرية جذعي في ضوء القمر. لكنه أبى أن يصغي إليَّ أصلًا.

«أنت طبيب، ألست كذلك؟ إنه عملك أن تتأكّد إن كان أحدهم مريضًا أم لا، أليس كذلك؟».

قال: «لا تتواقح»، مبديًا غضبه فجأةً: «عُدْ من حيث أتيت، ولا تأتِ إلى هذه الجهة مرة أخرى».

قلتُ، ملتهبًا كلّي سخطًا: «ظننتك ستقول للجميع إنه لا يوجد وباء متفشّ في المنطقة. أنت طبيب، ومع ذلك تأمرني بأن أعود؟».

قال: «عُدْ من حيث أتيت! إذا اكتشف القرويون أمرك ستدفع الثمن. ستسبّب لي المتاعب. عُدْ!».

سوَّيت كتفيَّ متحديًا. خرج الطبيب من خلف الباب وصار أمامي، لابسًا رداءً خشنًا مثل جلد حيوان.

قال: «عُدْ، ولا تأتِ هنا ثانية»، وهو يلوي ذراعي بسرعة ويتكلَّم بصوت مليء بالغضب. أطلقتُ آهةً قصيرةً من فرط الوجع، وصارعتُ لأتحرّر من قبضته القوية، لكنّه وقف هناك بحزم، صلبًا مثل صخرة.

قال: «إذا وجدك القرويون تتجوّل هنا لن تبقى على قيد الحياة. سأجبرك على العودة».

أطبقتُ يده على قذالي. كان لا مفرَّ لي من بدء السير، وهو يجرني جرًّا، من دون أن أقوى حتى على مراوغته. كنت أتحرّق غضبًا. لكنّ إطلاق نفسي من هذه الوضعية المذِلَّة كان من أصعب ما يكون. جرجرني الطبيب مستعجلًا، وهو يكاد يهزني.

قلتُ، وصوتي الضئيل، عالي الطبقة، يخرج معتصَرًا من حنجرتي: «أنت مقرف؛ يُفترض فيك أن تكون طبيبًا، وإذا بك تأبى أن تحاول حتى مساعدتنا».

ضغطت يد الطبيب بقوة أكبر، فتأوَّهتُ، من الوجع. راح يجرجرني على هذا النحو ليلقي بي في النهاية أرضًا أمام مسار الترولي. وقعت

على الأرض الباردة، ثم رفعتُ بصري إلى بدن الطبيب المكتنز، وهو يلوح أسود على خلفية الغابة الحالكة. كان مفعمًا بقوّة وسلطان متغطرسين.

قلت: «سوف تتمتّعون بمنظرنا ونحن نموت». شعرتُ بالخزي من فرط وهن صوتي وشدّة خوفه، لكنّ الاستكانة هناك في صمت ستكون أشدّ خزيًا. «أنت خسيس!»

انحنى الطبيب، وفوجئتُ بوقع ضربة رهيبة على ظهري، كأنما أصابني حجر ثقيل. صرختُ صرخة مدوّية وتضوَّرتُ من الوجع، متدحرجًا بعيدًا تفاديًا لرجله التي سحبها إلى الوراء تأهّبًا للركلة المقبلة. حاول انتقامًا أن يطاردني. صارخًا من الخوف، زحفتُ أرضًا حتى مسار الترولي وأخذتُ أتحرّك عليه.

كنتُ مرهقًا تمامًا. لكنني عندما رأيتُ الطبيب ينحني أرضًا ليلتقط حجرًا فيرميني به، علمتُ أنه لم يكن بمقدوري البقاء هناك. زحفتُ على امتداد المسار، متشبّثًا بالرواقد بأصابع مذعورة حتى طفر الدم منها، وعندما بلغتُ المتراس دلَّيت ساقيَّ، مرتجفًا من الغضب في تلك الوضعية المخزية، تحت المسار.

عندما رفعتُ جسمي إلى ما فوق المسار من جديد بعد الصراع المضني، مستنفدًا كل ما تبقى لي من قوة للاتكاء على مرفقيَّ مرة أخيرة، لم أستطع إلّا أن ألهث بعنف، وصدري يعلو ويهبط مثل حيوان يعذَّب. ثم استبدَّت بي نوبة من الجنون اليائس. تمزّقت أطراف أصابعي وراحت تنزف. ظننتني أسمع خطوات أحدهم تتلاشى خلفي، لكني بدلًا

من أن ألتفت، وضعتُ نصب عيني نهاية المسار الطويل الذي يضيئه القمر. كانت الفتاة تنظر إليَّ، ورأسها الصغير يبرز من خلف جهاز الرافعة.

انتصبتُ واقفًا ومشيتُ عابرًا على الرواقد، مجبرًا ركبتيَّ المرتعشتين على التحرّك. عندما لامست قدماي الطرف الآخر، الأرض على ذلك الطرف حيث كنَّا محتجَزين قطعًا، قفزت الفتاة، محملقةً فيَّ بعينين متوسّعتين كعيني طفل محموم. تفرَّس كلٌّ منَّا في الآخر على هذا النحو مدّة طويلة. كان الغضب مستبدًّا بجسمي كلّه. متنفِّسًا بشدّة، انتزعتُ نفسي طليقًا من نظرتها الضاغطة، الملحَّة، وأخذتُ في السير. تَبِعَتْني على عجل، لكنني واصلت سيري بنشاط من غير أن أتوانى في خطاي.

صحتُ لنفسي وأنا أواصل سيري «اللعنة على أولئك الخنازير، على أولئك الخنازير الأخسَّاء». استشعرتُ في قذالي وخزًا من الوجع حيث أطبقت عليَّ يد الطبيب. دناءة الطبيب، قوّته البهيمية، وضعفي، ما كان بوسعي أن أفعل شيئًا انتقامًا من أولئك الخنازير. عجَّلتُ في خطاي علّني أحدُّ من سخطي المغلوب على أمره ومن أساي الممتزج بغضبي. كانت الفتاة الآن تهرول لاهثة. وهي تلهث، راحت مرارًا وتكرارًا تتمتم عبارة مبهمة، لكنني لم أحاول حتى فهم ما تقول.

مررنا عبر الغابة، نزلنا من ثمّ إلى الطريق المرصوف الذي كان يضيئه القمر، وانسللنا بين البيوت التي كان يستلقي فيها رفاقنا النائمون، وما لبثنا أن وجدنا نفسينا أمام مستودع الفتاة. توقفتْ فتوقفتُ. نظر من ثمّ كلٌّ منَّا إلى الآخر من جديد. كانت الدموع قد تجمَّعت في عينيها المنتفختين، المحتقنتين بالدم، اللتين كانتا

تعكسان ضوء القمر، متلألئتين. كانت شفتاها الرقيقتان تتحرّكان الآن من غير أن يندَّ عنهما صوت. اتّضح لي فجأةً معنى الكلمات التي كانتا تردّدانها.

قالت شفتاها مرارًا وتكرارًا «ظننتك لن تعود، ظننتك لن تعود»، أطلقتا الكلمات صياحًا، تتخلّله تشنُّجات اختلاجية خرقاء. حوَّلتُ عينيَّ بعيدًا عن شفتيها وأدنيت بصري لأنظر إلى أصابعي المتقرّحة. كان الدم يقطر منها على حجارة الرصف. فجأةً، امتدّت يدا الفتاة، ثم انحنت وتناولت أصابعي بين شفتيها، وراحت شفتاها، ولسانها المتصلّب، متحرّكًا بوثبات قصيرة سريعة، تجسُّ جراحي تكرارًا وترطّبها باللعاب اللزج. كان قذالها، المدوَّر والليّن مثل ظهر حمامة، يتحرّك بخفة تحت رأسي المنحني.

انبثق شعور في باطني، سرى من ثمّ متصاعدًا فجأةً إلى رأسي مباشرة. قبضتُ على كتفَي الفتاة بخشونة ورفعتها نحوي. لم أعد أبصر التعبير على وجهها الصغير الناظر إليَّ. عانقتها مثل دجاجة محشورة في زاوية، مذعورة، وجريتُ معها إلى المستودع الذي اكتنفته العتمة.

ذهبنا رأسًا إلى الداخل المعتم تمامًا، وأنزلتُ سروالي في صمت ورفعت تنورتها: رميت بنفسي أرضًا على جسم الفتاة. تأوَّهتُ بينما كان قضيبي المنتصب، مثل ساق الهليون، عالقًا في سروالي التحتي، يكاد ينثني وقد تضاعف حجمه. تلا ذلك التَّماسُ مع سطح فرجها البارد، الجاف، وَرَقيّ الملمس، ثمّ الانسحاب مترافقًا برعشات خفيفة. تنهَّدتُ بعمق.

كان ذلك كلّ ما في الأمر. نهضتُ وارتديت سروالي، متلمّسًا، ثم

خرجتُ، تاركًا الفتاة مستلقيةً هناك وهي تتنفّس تنفّسًا غير منتظم. في الخارج، كان البرد يتكاثف سريعًا، وضوء القمر يسكب صلابته المعدنية على الأشجار وحجارة الرصف. كنتُ لا أزال غاضبًا بجنون، تملأ فمي غمغمة مسعورة، لكنّ إحساسًا ثرًّا، مفعمًا بالحلاوة، نتأ برأسه بطيئًا من تحت ذلك كلّه. وأنا أصعد السفح راكضًا، اغرورقت عيناي بالدموع وقبضتُ عضلات وجهي لعلّني أوقف انسيابها على وجنتيَّ.

الفصل السابع

الصيد والعيد في الثلج

أيقظني البرد القارس فجرًا، لكنني أبقيتُ عينيَّ مغمضتين بشدّة. الشعور بالجذل المعتمل في صدري، شغفي العارم، ملآني من الداخل وأوصداني دون الخارج بإحكام. تساءلتُ: ما سبب الأمر، ما سبب هذا التوتّر الغريب؟ غير أنّ الشعور بالدوار الذي لبث عميقًا في رأسي، طافيًا ومائجًا، وسرى في أنحاء جسمي كلّها، شوَّش خاطري. فتحتُ عينيَّ قليلًا وحملقتُ في أصابعي في الهواء البارد الذي كان مفعمًا ببهاء أشدّ من أيّ فجر عادي. انفتحت الجراح، طريةً ووردية اللون. كان طرف لسان الفتاة الحسَّاس، الراشق، شبيه لسان الحمامة، قد لامسها مرّات متتالية ورطَّبها باللعاب اللزج. مثل ماءٍ يغلي، غمر الحب فجأةً كلّ شبر من جسمي، نزولًا حتى أطراف أصابعي رأسًا. بعد ارتعاشة سرور، تكوَّرتُ على نفسي من جديد وحاولتُ أن أغوص في ثمالة النوم. غير أنّ النشوة التي استولت عليَّ ما كانت لتفارقني. تغريد العصافير، التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، الذي ما سمعته يومًا من قبل إلا لمامًا، اقتحم داخلي من الخارج مثل العاصفة. وبدا كأنّ صمتًا ثقيلًا هائلًا كان يبطّن كل شيء. نهضتُ، ودفعتُ الحصير العازل من الهواء البارد، واسترقتُ النظر إلى الخارج عبر الشقّ الضيق.

في الخارج، كان ثمّة فجر جديد كلّ الجِدَّة، نقيٌّ كلّ النقاء. كان الثلج قد تكدَّس وغطّى الأرض، مُسْبِغًا على الأشجار منحنيات ملساء أشبه بأكتاف الوحوش، وكان يشعّ ألقًا شاسعًا. «إنه الثلج»، فكّرتُ، متنفِّسًا الصعداء. في حياتي كلّها لم أُبصر يومًا غزارة كهذه، ثلجًا بهذا السخاء. كانت العصافير تزقزق بشراسة. غير أنّ طبقات الثلج الكثيفة كانت تمتصُّ كلّ صوتٍ آخر. شدو الطيور والصمت الهائل. كنت وحدي تمامًا في عالم واسع، وكان الحب قد وُلِدَ لتوّه. تأوَّهت من فرط اللّذة وترجّحت ذهابًا وإيابًا. ثم، مثل عملاق مبتهج، خررت على ركبة واحدة، عاضًّا شفتي، وبعينين مغرورقتين بالدمع، حدَّقت إلى الثلج في الخارج. لم أطق البقاء صامتًا.

استدرت وناديت بحماس على شقيقي الذي كان مستغرقًا في نوم عميق.

«هيه، أَفِقْ، أَفِقْ!».

لوى كتفيه، متأوّهًا من عمق حنجرته، ثم فتح عينيه ببطء. كانتا بلون بني كستنائي وتشعّان ألقًا، ثم ذابتا بهدوء وخفَّة. كان يشاهد كابوسًا، فكّرت. فلا بدَّ من أنه اطمأنَّ رأسًا حين أبصرني أنظر إليه وهو يستيقظ.

قلت: «انهض».

قال: «أجل»، وهو يستوي جالسًا، وجِلْد ركبتيه المتّسخ ظاهرٌ عبر شقوق سرواله.

صُحت: «انظر»، ساحبًا الحصير بسرعة: «انظر إلى هذا الثلج».

جاء الهواء الطلق، باتّساعه وفضائه العظيمين، مندفعًا إلى الداخل.

سامعًا هتافات شقيقي، زلقتُ الباب الزجاجي فاتحًا إيَّاه ودفعتُ برأسي خارجًا. هبَّت عليَّ قطع سميكة من الثلج، دافئة على جلدي. لويتُ كتفيَّ ورفعتُ بصري إلى السماء، فكان الثلج الرمادي الضارب إلى البني ينهمر بنعومة بلا توقف، أسرع فأسرع.

قال شقيقي بصوت حاد: «آه»، مرتجفًا وكتفه يضغط على وركي: «حقًّا لقد هطل وأنا نائم».

قلت وأنا أربّتُ على كتفه. هكذا ببساطة، وأنت نائم، أنا أيضًا نمتُ وقتًا طويلًا».

قال وهو يضحك حتى انقطع نَفَسه: «مئة سنة؟ عندي ما يعادل مئة سنة من التبوّل أقوم به».

صحت: «أنا أيضًا»، محرّكًا أصابعي بسرعة.

كان الثلج قد تراكم عاليًا خارج الباب الزجاجي بالضبط. تبوَّلنا على طهارته، وقضيبانا جنبًا إلى جنب، منكمشان ومتغضّنان بردًا، وراحت البقع عسلية اللون على الثلج تذوب ببطء وتغوص فيه. خفضتُ بصري إلى ذَكَري، واسترجعتُ إحساسي بسطح فرج الفتاة البارد، الجاف، الورقي. سرى تحت جلدي إحساسٌ ببهجة معافاة يَخِزُني وخزًا خفيفًا. كان كلانا، أنا وقضيبي الصغير المنتصب، مفعمًا بحيوية فتيَّة.

برزت فجأةً هيئةٌ رشيقة الحركة في حقل الثلج، ناثرةً نُدَف الثلج الرقيقة، وَدَنت أكثر فأكثر. صاح شقيقي بصوت ثاقب «ليو»، وفي اللحظة نفسها تقريبًا قفز الكلب عليه ودفعه خلفًا على الأرض.

تدحرج ليو، نافضًا جسمه المرّة تلو المرّة، مدلِّكًا فراءه بالثلج، ولحس رقبة شقيقي ووجنتيه، وعضعض كتفيه وساعديه. زعق شقيقي

بحماسة ضاحكًا وتعارك مع كلبه وهو يعوي، حتى ثبّته أرضًا. أطلق الكلب أنينًا واهنًا بصوت متوسّل، فرفع شقيقي نظره إليَّ بعينين مبلّلتين، مبتسمتين. رحتُ وشقيقي، الذي كان يتنفّس بعمق وصدره يعلو ويهبط، يحدّق كلٌّ منَّا في عينيّ الآخر وقتًا طويلًا لم نشعر به يمرّ.

عقدتُ خِرَقًا قماشية حول عنق شقيقي القصير، ثمّ، بينما عاد إلى الحصير والبطانيتين، أوقدتُ نارًا في قطع من الخشب المكدَّس على الأرضية الترابية وشويتُ عليها سمكًا مقدَّدًا. كانت عندنا كمية كبيرة من الطعام متبقية لنا، ولو أننا نقبنا تحت الثلج لاستطعنا أن نجد الكثير من سويقات الملفوف الصيني السمينة المشبّعة بالماء مخبَّأة بهدوء. وضعتُ قِدْر العصيدة الباردة المتخثّرة على الحطب المكدَّس وألقيتُ فيها ملء قبضةٍ من الثلج جئت به من الخارج. بعد وهلة، أخذتُ قبضة الثلج، التي احتفظتُ بطبعات أصابعي، بالتفتُّت وغاصت في البخار المتصاعد بحيوية. حين التفتُّ لجلب مزيد من الخشب أغذّي به النار، كان شقيقي، الذي ظننته قد غفا، يحملق في ظهري في صمت.

سألت: «ماذا دهاك؟»، متحيرًا بعض الشيء: «هل أنت والكلب يَقِظان؟».

قال مبتسمًا: «الكلب انسلَّ خارجًا، ألعلَّك لم تلحظه؟».

قلت: «لا».

قال: «لقد درَّبتُه».

«انهض وكُلْ».

قال: «سأغسل وجهي بالثلج»، محاولًا أن يزرّر سرواله.

«بإمكانك أن تفعل ذلك في وقت لاحق».

أخرج قصعته من حقيبة عُدَّته، وتكلَّم بصوت طفولي: «دعنا نبقى هنا دائمًا، لوقت طويل، هكذا».

قلت: «لو فعلنا لأصبحنا أنا وأنت راشدَين جاهلَين غبيين».

بيد أنني، مثل شقيقي، كنت أنا أيضًا قد بدأت أتمنى أن نعيش حياةً مديدةً في هذا البيت محاطَين بالثلج. كانت جميع المخارج موصدة دوننا. فماذا كان بوسعنا أن نريد أكثر من هذا؟ كنت رافضًا تمامًا أن أعيش مذلَّة الليلة الفائتة مرة أخرى.

بعد تناول الفطور، حين خرجتُ وشقيقي ورائحة السمك المقدَّد المشوي عالقة بوجهينا، كان الثلج والريح قد توقّفا، والشمس قد صفا لونها ليصبح أزرق باهرًا. الثلج المغطّي الأرضَ والأشجارَ والبيوتَ كان يشع باهيًا. اكتسحَنا شدوُ الطيور مثل ريح منعشة، مثل ثلج عذب. مشينا فوق الثلج الذي غطى أعقاب أقدامنا، وكتف كلّ منَّا متكئ على كتف الآخر.

كان رفاقنا متجمّعين في الساحة أمام المدرسة. أبصرتُ الفتاة أبعد قليلًا، تكاد تتكئ على الجذع الأسود الرطب لشجرة كستناء عجوز كانت تعتمر الثلج كالقبعة. نزلت وشقيقي السفح مناديَين، ونحن نصيح ونركل الثلج حوالينا. حيَّانا الفتية، منادين جوابًا علينا. ولما كنتُ قد هرولتُ نحوهم، صَعُبَ عليَّ أن ألتفت نحو شجرة الكستناء، إذ منعني شعورٌ حارٌّ أخذ ينبجس في باطني.

قال مينامي وعيناه تلتمعان: «وحدكما أنت والجندي تأخّرتما في السهر، ما فتئنا نعمل هنا منذ ما قبل الفجر».

صحتُ فيه لأنفض عني شعوري الملموس بعدم الارتياح حيال شجرة الكستناء: «تعملون؟».

«فكّرنا في التزلج، وها نحن نصنع مَزلجة».

ألهبتْنا كلمة «مَزلجة»، المثقلة بالحنين يلسع قلوبنا كالنار، وأطلقتْ من أشداقنا جميعًا موجةً عارمةً من الضحك. كان الثلج على السفح قد تصلَّب، والوسط قد تجمَّد بلون مثل السللويد القاسي. طفق بعضهم ينزلق عليه في غير ثبات، بينما راح آخرون يدقّون الثلج بألواح مغلَّفة بالقماش لتوسيع المسار الضيق وتطويله. كانت خدود الجميع حمراء متوهّجة وأنفاسهم بيضاء قوية. بعد إحماء قصير، أطلقتُ نفسي على السفح المتجمّد المغطى بالثلج الذي كان يشع في الشمس، وهويتُ على الفور متدحرجًا بعنف. كان شقيقي يتخبَّط بجانبي مثل دبدوب أخرق. نهضتُ، نافضًا الثلج عن ظهري وردفيَّ، أمام وجوه رفاقي الباسمة. عاضًّا على شفتي، سرتُ من ثمّ رأسًا نحو شجرة الكستناء.

ابتسمت الفتاة وهي ترقبني أدنو، واحمرَّ وجهها حياءً. تحت جلدها الرقيق، بلمعانه الشاحب بلون البيض، طفقت بقع رهيفة من الدم تطفو ثمّ تعود فتغرق من جديد، على وَقْع الصراع بين ابتسامتها والبرد.

قلتُ بعدما سارعت إلى ترطيب شفتيَّ بلساني: «هل فوجئتِ بهطول الثلج بهذه الغزارة؟».

قالت بجِدّ: «أنا متعوّدة هذه الكمية من الثلج»، مسوّيةً كتفيها.

قلت مرتابًا: «حقًّا؟»، ثم ضحكنا سوية.

استعدتُ رباطة جأشي، وبتُّ الآن مقتنعًا وراضيًا أنني غارق في هذا الأمر، حبّي الأول. حين استدرتُ والفتاة إلى جانبي، متكئًا بظهري على الجذع، كان رفاقي يحملقون فينا مذهولين. ابتسمتُ لهم ابتسامة عطوفًا. تهلَّلتُ فرحًا وأنا أشعر بمعصم الفتاة الأيمن يحتكُّ متردّدًا بيدي اليسرى.

صفَّر مينامي بسخرية محاولًا استفزازنا، فأجبته بابتسامة ودّ صادق، سَرَتْ في وجوه جميع رفاقي، بمن فيهم مينامي. حالما فهموا تمامًا ما جرى بيني وبين الفتاة من علاقة جسدية، كفُّوا عن إظهار أي اهتمام بنا وركزوا بدلًا من ذلك على أنشطتهم، فطفقوا يتدحرجون، ضاحكين وهاتفين. استُبعِدَ شقيقي من الألعاب لأن ليو، الذي ما فتئ مرابطًا حوله، راح يخمش بمخالبه الثلج المتصلّب، فجلس إلى جانبنا محتضنًا ظهر الكلب، وأخذ يحدّق سعيدًا إلى مشهد التزلج على الثلج.

سألتِ الفتاة، متلعةً عنقها بسرعة إلى أذني: «هل تؤلمك أصابعك؟».

قلت بوقار: «إنها لا تؤلمني البتة».

قالت: «أنت شجاع، أنت شجاع حقًّا بالنظر إلى حداثة سنّك».

قلت: «حداثة سنّي؟» غير قادر على كبت ضحكي، قلقًا من احتمال أن تكون ضحكتي تلك قد آذت مشاعرها: «مَن أخبرك بسنّي؟».

قالت الفتاة ببساطة: «صدقًا، إذا نظرت إلى الفئات العمرية عمومًا، تجد أن هناك قُصَّرًا وراشدين، وأطفالًا أيضًا، أليس كذلك؟ تلك الأصناف من الفئات العمرية».

شعرتُ نحو الفتاة بشيء من الازدراء، فتعمَّدتُ الضحك بصوت

عالٍ، انحنيت من ثمّ وربَّتُّ على ظهر ليو. كان شقيقي ممسكًا بالجزء الخلفي من بدن الكلب، لكنه منبهر تمامًا بتزلّج رفاقنا.

قالت حبيبتي بشيء من الخجل: «أتفهم؟». تناولت من ثمّ رزمة ورقية من سترتها وقسمت الطعام المعبَّأ فيها بإحكام: فطيرة مخبوزة قاسية كالحجر. ناولتني في صمتٍ النصف الأكبر قليلًا وضغطت بإبهاميها بقوّة لتكسر الباقي شطرين. كنتُ على وشك أن أردَّ يدي اليمنى، التي لبثت على ظهر الكلب، إلى ركبتي لأقسم حصَّتي بالتساوي بيني وبين شقيقي.

في تلك اللحظة قفز الكلب وعضَّ معصم الفتاة، الذي كان ممدودًا فوق رأسه بالضبط. صرخت، وفرَّ ليو صاعدًا السفح، مختطفًا بفمه غنيمته التي وقعت على الثلج. ضغطت الفتاة يدها اليمنى المصابة على شفتيها. خطر ببالي لسانها الرشيق وهو يبلّل جرحها الطري، ثم تذكّرتُ الإحساس بذلك اللسان على أصابعي الجريحة وولع حبّي الحارق. داخل رأسي كان صوت الدم يغلي.

قلت: «هل يؤلمك؟» واضعًا يدي على كتفها: «دعيني أرى».

غير أن الفتاة ظلَّت ضاغطةً جرحَها على فمها ولم تجب. فجأةً، فقدت وجنتاها لونهما وانكمشتا خوفًا، ومع ظهور البقع السوداء المحمرَّة إلى السطح بدت نوعًا ما قبيحة. جاء رفاقي مهرولين وأحاطوا بنا. استولى عليَّ حنق مسعور. انقلبت سحنة شقيقي شاحبةً، وبعد شيء من التردّد، صعد السفح راكضًا خلف ليو.

قلت: «هيه، إنه يؤلمك، أليس كذلك؟ صدقًا، كيف هو؟».

تاركًا رفاقي، اصطحبتُ الفتاة عائدَين في صمت وذراعي حول

كتفيها. ولما وصلنا أمام المستودع نفضتْ ذراعي عنها فجأةً وركضتْ إلى المدخل المعتم. وهكذا لم أجد أمامي إلا العودة. كنتُ حانقًا ومستيئسًا. لم تكن بي رغبة في فعل شيء. لكنني انضممتُ إلى التزلّج على الثلج، وأنا أصيح.

كان التزلّج في الواقع ممتعًا حقًّا. كان ممتعًا بما يكفي لجعل الفتاة وحنقي ويأسي يتلاشون من ذهني بحلول وقت الظهيرة، حين بات جلدي يتصبَّب عرقًا تحت قميصي.

حين عضَّني الجوع حقًّا، عدتُ صاعدًا السفح طلبًا للطعام. كان شقيقي يجلس مغتمًّا داخل المدخل المعتم الذي يحجب الشمس، ممسكًا بالكلب أمام ركبتيه. زعزعني هذا الأمر.

قال مدلّيًا رأسه: «لقد وبَّخت الكلب، لقد وبَّخته حقًّا».

إنه منزعج، فكرت، وقلت بشهامة: «لا يهمّ. تلك الفتاة تبالغ».

كان حسبي أن أقول ذلك حتى يبدو حقًّا أن الأمر لا يهم. مَن ذا يلوم كلبًا والفتى صاحبَه ويؤنّبه على ذنب تستوجب فداحتُه جلوسهما في الداخل المعتم برأسين منحنيين في عصر يوم مثلج؟

أكلنا بقايا الفطور واقفَين على الأرضية الترابية وأعطينا ليو بعضها. ما كان بوسعنا ونحن نأكل إلا أن نتحرَّق شوقًا إلى الخروج مجددًا من أجل التزلّج.

غير أنه ما من أحد صرف ذاك العصر متزلّجًا على الثلج. كان لـي قد نزل من الغابة حاملًا بين ذراعيه متينتَي العضل حمامتين ونُهَسًا وطائرين صغيرين، منقاراهما الجميلان مموَّجان بلون كستنائي على خلفية ريش

بني غامق، مع مصيدة صغيرة. كانت الطيور في ذراعَي لـي بديعة الأناقة بعيونها المغمضة بإحكام.

ابتهجنا حتى كدنا نذهل عن أنفسنا ونحن نصنع مصائد على غرار مصيدة لـي، وإذ احتشدنا في وقتٍ متأخّر من ذلك العصر مثل جيش غازٍ، دلفنا إلى الغابة. حين بلغنا منطقة الأيائك المقلَّمة، ألقى لـي بتعليماته بصوت عالٍ تفرَّقنا من ثمّ كلٌّ منَّا في اتجاه يخصُّه، يحدونا شدوُ الطيور.

كنت وشقيقي نمسك بمصائد معقودة الأجزاء بألياف القنَّب لوضعها على العشب المغبَّر بالثلج قبل نثر الحَبّ وانتظار الطيور حتى تقع قوائمها الدقيقة الصلبة في الشرك - بضع مصائد صغيرة نوعًا ما، ماكرة - وسلَّة محبوكة من الخيزران. وضعنا أولًا مصيدة من القنَّب في تجويف صغير كانت فيه نصال العشب المتجمّدة تنتأ من الثلج، انسحبنا من ثمّ، ماحين آثار أقدامنا. كانت شبكة المصيدة ممدودة فوق حبيبات الثلج المتجمّدة الخشنة، وعندما نظرت إليها لاح لي أنني أشعر بجسمي بالطيور تَعْلَق قوائمُها حادَّة المخالب بالشبكة، تزعق زعيقًا ثاقبًا وتصارع، ناثرةً ريشًا ورائحةً يشوبها الدم. احتقن حلقي. خبطت على كتف شقيقي بحماس خبطةً مكتومةً فضحك، كاشفًا عن لثَّته الوردية بين شفتين جافتين.

كان علينا أن نتّخذ مكانًا لنصب سلَّة الخيزران. علاوة على ذلك، كان علينا أن نلبث في مكان يمكننا منه سماع رفرفة الطيور الواقعة في الشرك وهي تصارع. حسبما قال لـي، لو تركناها حتى لوقت قصير فحسب، ستحترس الطيور الأخرى وتأتي حيوانات جائعة وتختطف منَّا

فرائسنا. وقد شدَّد أنه لو اتفق لهذا أن يحدث فمن شأنه أن يعرّض محاولات الصيد المقبلة للخطر.

ياه، محاولات الصيد المقبلة! كدحنا، أنا وشقيقي، كدح الأبطال إذ وضعنا السلَّة بين بعض أشجار البلوط، حيث كانت طبقة سميكة من الأوراق الميتة تحت الثلج ليّنة تحت أقدامنا، وسندناها واقفةً بعود ميت. ثم ربطنا السند بخيطٍ طويل مَدَدناه إلى شجيرة زعرور بري. كان كلّ ما علينا أن نعمل هو أن نرقب الحمامة وهي تأكل الحَبَّ تحت سلَّة الخيزران وما إن يدلف رأسُها الرمادي الضارب إلى الزرقة داخل السلَّة حتى نشدّ الخيط بكل قوّتنا. ولسوف تصارع الحمامة بين أذرعنا - تحفر في الثلج فتنحشر في السلَّة - وينفر منها قليل من الدم حيث ينشب عنقها في الخيزران.

ربضتُ وشقيقي وسط أَجَمة من الشجيرات التي تساقطتْ أوراقها وبلغتْ أغصانها منَّا علوَّ الصدر، ورحنا نرقب مصيدتنا. كانت الطيور تغرّد عاليةً على ذرى الأشجار، وحين رفعتُ بصري رأيت سماء شتائية شاحبة الزرقة، مرتفعة للغاية فوق أغصان الأشجار المتشابكة. أصختُ السمع، لكن ما عدا أنفاس شقيقي وشدو الطيور وصوت هطول الثلج متثاقلًا بين الحين والآخر، ساد صمت هائل مرعب، ولم أستطع سماع أصوات رفاقي. كلَّما لاحظتُ أنني أميل إلى الاستغراق في خواطر كالحة كئيبة، انتفضتُ لأبدّدها عني. لم يكن في نيَّتي أن أبوح بمذلَّة الليلة الفائتة لأحد، بمن في ذلك شقيقي. مضى دهر والطيور لم تأتِ بعد.

قال شقيقي: «ابتلَّت مؤخّرتي، بدأ الثلج بالتسرّب إلى الداخل».

كنَّا قد جلسنا على أوراق ساقطة جافة نشرناها فوق الثلج، بانتظار

مجيء الطيور. نهضت وذهبت لجمع أوراق ميتة جافة من تحت الأشجار. حين نقبت الثلج، أدهشني للغاية أن أرى ماءً صافيًا يجري عبر الأوراق الميتة، وبراعم نضرة زرقاء مائلة إلى البياض تنمو مشرئبّة، وشرانق حشرات مغلَّفة في خدورها.

جلس شقيقي على الأوراق الساقطة الممدودة حديثًا، وطفق يرقب المصيدة بشغف. رحتُ وليو، الذي كان يتّكئ بكتفه على ركبة شقيقي، نحدّق إلى يديه، المتورّمتين حتى الاحمرار من فرط البرد، واللتين كانتا تطبقان على الخيط إطباقهما على سلاح قاتل.

عزفت الطيور عن المجيء وقتًا طويلًا للغاية. كنت وشقيقي وليو منجذبين إلى تقلّبات الوقت اللطيفة والعميقة حول المصيدة؛ تثاءبتُ وشقيقي، وعيوننا ممتلئة بالدمع، وراح الكلب يحرّك أذنيه بعصبيَّة. أخذ القلق والنعاس اللذان صارا في تلك الأثناء عاديين يتسرَّبان تدريجًا إلى نفسي.

تنهَّد شقيقي.

سألتُ قابضًا راحتي بانزعاج: «ما الأمر؟».

قال وقد ارتسمت ابتسامةٌ خفيفة على وجهه الطفولي الناعس: «ظننتُ أنّ طائرًا كبيرًا هبط من الأغصان، لأن ورقة صغيرة على شكل إسفين وقعت بالضبط أمام ناظريَّ».

انتصبتُ واقفًا وكلَّمته همسًا: «سأنزل عائدًا وأتغيّب قليلًا».

قال، وغضون ضئيلة تتجمَّع حول عينيه: «هل ستذهب إلى تلك الفتاة التي تشبه الحمامة؟».

«أجل، سأذهب وأعتذر عمّا فعل ليو».

نزلتُ السفح راكضًا، ناثرًا الثلج من حولي. انقصفتْ أغصان الشجيرات الميتة - كانت صنفًا من الورد - بينما كان وركاي يحتكّان بها، فالتقط ليو، الذي تبعني فينة قصيرة، أحدها بفمه وعاد إلى شقيقي.

كان الجو داخل المستودع باردًا، مفعمًا برائحة التراب المكشوف والطحالب ولحاء الشجر. فتحتُ الباب الخشبي وتوقّفتُ حيث كنتُ لوهلة ريثما تتعوَّد عيناي الظلمة. بدا كأنني احتجتُ إلى وقت طويل نوعًا ما، لأنّ الخارج كان ساطعًا للغاية بضياء الشمس المنعكس على الثلج في كلّ مكان. ثمّ ظهر وجه الفتاة الصغير - أحمر من الحمَّى، والناحية، نزولًا من وجنتيها حتى أذنيها، تشعّ بلون ذهبي. كانت جالسة وسط الأرضية الترابية ولحاف رقيق ملتفّ حول عنقها. أغلقتُ الباب ببطء وأنا أتفرَّس في عينيها اللتين كانتا أشبه بعيني حيوان طفل.

قلت بصوت مبحوح: «تشعرين بالبرد، أليس كذلك؟».

قالت، عاقدةً حاجبيها: «أجل».

أما أنا، فقد كنت أنضحُ عرقًا تحت قميصي من الجري. في تلك اللحظة، لم أستطع أن أتذكّر ما كنت أريده أن يحصل في المستودع بينما كنت أجري، فشعرتُ بالغيظ.

سألتُ، متحيرًا من سؤالي: «هل أنت مريضة؟». تساءلتُ إن خطر ببال الفتاة أني أبله.

أجابت ببرودة: «لا أدري»، فزادت من خجلي.

«هل أستطيع فعل شيء؟».

«أشعل النار».

استعدتُ شجاعتي، ورحتُ أتحرّك في المكان بحنكة، فألقيتُ بالحطب في الموقد المحفور في الأرضية الترابية وأوقدتُ نارًا، مختنقًا من الدخان. لاح وجه الفتاة في الضوء البرتقالي مستنزَفًا، عديم الحياة، مثل وجه طفل غبي. والجلد حول فمها كان جافًّا، تحفره خطوط عديدة ضاربة إلى البياض.

جلستُ على الأرضية الخشبية ورحتُ أرقبها عبر النار. جعلني إيقاد النار أكثر ارتياحًا، لكني شعرتُ أيضًا أنه لو اتّفق لأحدهم أن يفتح الباب ويدخل علينا لاندفعتُ إلى الخارج بارتباك عظيم. وفكّرتُ أنّ عليَّ أن أقول لها شيئًا هامًّا، لكنّ حلقي كان جافًّا فاستعصى عليَّ الكلام.

قالت، وقد امتلأت فجأة بثقة مَن له سلطان: «أريد أن أتبوّل، لكنني لا أستطيع الوقوف كما ينبغي».

قلتُ، ووجهي يغمره الدم: «سأرفعكِ، سأمسك بكتفيك».

نزعت اللحاف عن جذعها بمفردها وكشفت عن جسمها المكسو بقميص نوم قطني منمنم أحمر لم أكن قد رأيته من قبل. خفضتُ بصري ناظرًا إلى صدرها الصغير المرتجف، ثم ساعدتها على النهوض، ممسكًا بكتفيها ومستغربًا سخونتهما. مشينا دائرَين إلى الطرف الآخر من الساتر الخشبي في صمت، استدرتُ من ثمّ وانتظرتها، حابسًا أنفاسي.

قالت بسلطان أعظم: «لقد انتهيت»، فحملتها عائدًا بها إلى حيث كنّا.

بعد أن استلقت وسحبت اللحاف فوق صدرها، انقبضت أساريرها كما لو أنّها متضايقة وأغمضت عينيها. أقلقني هذا الأمر. لكنني فكّرتُ أن من الأفضل ألا أكلّمها.

قالت وعيناها لا تزالان مغمضتين: «قدماي باردتان ومتقرّحتان. إنهما تؤلمانني بشدة».

دسستُ يديَّ متردّدًا تحت نهاية اللحاف ودلّكتُ رَبلتيها ومفاصل عقبيها اللذين كانا في مثل صلابة عقد شجرة فتية.

أمرت: «ليتك ترفع اللحاف. دفّئ يديك بالنار ودلّكني».

كان قميص النوم الأحمر قصيرًا ومتّسخًا قليلًا، لكنّه كشف عن ركبتيها اللدنتين جميلتَي الهيئة، الخاليتين من أدنى النُدَب. طفقتُ أدلّك بحماسة ونشاط. عاد الدم بطيئًا إلى رَبلتيها وأخذ في الجريان، مُصدِرًا ربّما ضجيجًا خفيفًا حتى. فكّرتُ في ركبتيَّ، المكسوّتَين بجلد سميك مخشوشن عديد النُدَب، وتنهّدتُ حسرةً عليهما أمام ركبتيها اللّتين كانتا من لحم أملس يمتدّ نازلًا من باطن فخذيها. ظلّت الفتاة صامتة لا تحرّك ساكنًا، مُسلِسةً لي ساقيها، لا تطلب مني أن أتوقّف عن الدلك مدة طويلة. ذكّرتني رَبلتاها اللتان شاع الدفء فيهما بين يديَّ بأجسام الطيور وهي لا تزال دافئة بين ذراعَي لـي. حائرًا في أمري من فرط الجزع الذي اعتراني وراح يحرق صدري كالنار، شعرتُ بقضيبي يتصلّب ببطء.

قالت الفتاة بصوتٍ طفولي حادّ عَلِقَ في حلقها: «إذا شئت، بإمكانك أن ترى بَطُّوني».

لففتُ قدميها في اللحاف بخشونة ووقفتُ. كنت مشوشًا للغاية.

صحتُ غاضبًا فيها وفي نفسي: «أنا ذاهب إلى البيت»، وخرجتُ من المستودع مسرعًا.

غير أنني، وأنا أجري باتجاه الغابة، حيث كان شقيقي يترصّد من بين شجيرات الورد القاسية، كدتُ أجنُّ من فرط الزهو والفرح اللذين كانا ينبجسان من باطني. كانت عندي - أنا النكرة الذي لا يعبأ به أحد - حبيبة رائعة وعذبة. جريتُ منقطع النَّفَس بين الأشجار المكلَّلة بالثلج نحو صيدي الفحولي، منزلقًا عدّة مرات وأنا أتسلَّق السفح، مُنصِتًا إلى هطول الثلج خلفي تمامًا.

مُصدِرًا أنفاسًا لاهثة بيضاء، دسستُ رأسي بين الأغصان البليلة ونظرتُ إلى المصيدة على الثلج. بيد أنه لم يكن ثمة حتى ريش عالق بشبكة القنَّب، والحَبُّ لا يزال حيث نثرناه. تأفّفتُ وحاولتُ الوصول إلى حيث كانت مصيدة شقيقي، قاطعًا عبر الأَجَمة. سمعت من ثمّ رفرفة أجنحة قوية مهتاجة ونباح كلب في غابة الأَرْز، في الأعلى بعيدًا على الجانب الأيمن. ركضتُ على عجل.

كانت غابة الأَرْز قاتمة ورطبة، والهواء الكثيف يقاوم مروري. كان نباح الكلب وضربات الأجنحة يتصاعدان من فرجة الضوء الخافت على الجانب الآخر من الغابة. تقدَّمتُ صوب الصوت، وساقاي تحتكَّان بالسراخس. كانت زاوية مقطوعة الأرزات مضيئة بروابي الثلج، وإذا بي أُبصِرُ شقيقي والكلب على الأرض يصارعان. علا من ثمّ صوت ضربات الأجنحة وتدحرج شقيقي.

هرعتُ إليه ورأيتُ أنه كان متشبثًا بطائر درَّاج بديع.

هتفتُ: «هيه، اقتله».

نبح الكلب ورنَّ خافتًا صوتُ انكسار عظم رقبة الطائر، الذي ما لبث أن انطوى رخوًا على صدر شقيقي.

صرختُ، وصوتي قد أدفأتْه المفاجأة: «هيه. هيه، أنت..».

قفز واقفًا، وشفتاه المرتعشتان الشاحبتان منفرجتان، مُحكِمًا ضمَّ الدرَّاج إلى صدره، وحملق فيَّ بقوة، وكأنّ عينيه تنتفضان في نوبات متقطّعة، ارتمى من ثمّ بجسمه عليَّ. عانقتُ كتفيه وربَّتُّ على ظهره. دمدم من غير كلام، وجسمه برمَّته يرتجف.

هتفتُ فرحًا، تكاد تجتاحني رغبة في البكاء: «هيه، لقد فعلتها».

قال شقيقي بصوت خفيض مبحوح: «أجل»، ضاغطًا بوجهه على صدري.

ظللنا هكذا متعانقَين بعض الوقت. طفق ليو يدور حولنا نابحًا، وقفز فجأةً. أفلتني شقيقي، وألقى الدرَّاج أرضًا، وراح يتعارك وليو. تدحرجا على الثلج. ثم ما لبثتُ أن انضممتُ إلى العراك. كان الجنون يجري فينا مجرى الدم في عروقنا كلّها.

فجأةً، تهاوى شقيقي منهكًا. جلستُ أنا أيضًا على الثلج وذراعي لا تزال مشتبكة مع ذراعه. انقضّ ليو على الدرَّاج وحمله إلى ركبتَي صاحبه. حدَّقنا إلى الطائر صامتَين فترة طويلة. مسَّد شقيقي الأرياش الخضراء الصلبة ذات اللمعان الضارب إلى الحمرة على تاج رأسه، ثمّ رقبته البنفسجية القاتمة المبلَّلة بلعاب الكلب وظهره الطافح بألوان ثرَّة. كان جميلًا، مكتنز البدن، مفعمًا بالحياة.

رأيتُ دموعًا تترقرق على خدَّي شقيقي، وكان عنقه مغطى بالخدوش.

قلتُ وأنا أنفض الثلج عن جسمه: «أنت منهك، منهك حقًّا».

رفع شقيقي بصره إليَّ، وعيناه تبرقان بالدمع، وأطلق قهقهات قصيرة متقطّعة. نهضنا من ثمّ وعدنا مترنّحَين بين الأرزات إلى الأرض الحراجية مقطوعة الأشجار. طوال الطريق، لم ينفك شقيقي يتحدّث عن صيده الباسل حديثًا مفكَّك الأوصال، متقافزًا، تأخذه بين الفينة والفينة نوبة من الضحك، وكأنّه طافح بالانفعال حتى نقطة الانفجار أو تهزُّه نوبات من الجنون. كان يحتضن الدرَّاج ويُعمِل أظافره في لحمه.

بينما كان شقيقي يرقب المصيدة من مكمنه في الأجمة، طارد ليو درَّاجًا خارج العشب المطوَّق بالثلج وعضَّ جناحه. طارد شقيقي الدرَّاج ليساعد ليو، لكنّه فقده أمام غابة الأَرْز. قال: «ما كان أشد خجلي لحظتئذٍ حتى كدتُ أجهش بالبكاء». عندما حاول أن يعود إلى مصيدته، قفز ليو بنشاط واستأنف مطاردة الدرَّاج الذي لم يعد يقوى على الطيران واختبأ بين السراخس. تعارك شقيقي معه، وعلى الرغم من الضربات التي تلقَّاها من جناحيه العملاقين القويين، فقد أحرز النصر في النهاية.

قال: «انظر» وهو يشرئب برأسه: «لقد أصيبت عيني اليمنى إصابة بليغة حقًّا؛ لا أزال غير قادر على الرؤية كما ينبغي».

بالفعل، كانت عينه محتقنة بالدم، تبدو مثل مشمشة مفرطة النضج. أمسكتُ برأس شقيقي وهززته، محاكيًا ضحكته.

هرولنا ونحن نهتف إلى الساحة أمام المدرسة حيث كان الآخرون يقفون متحلّقين حول لـي، وكلٌّ منهم يستعرض صيده. صارت فريسة شقيقي في الحال بؤرة إعجاب كلّ صياد فتى وحسده. راح الدرَّاج يتمدَّد، مشعًّا لونًا ذهبيًّا في إجماع رفاقي على الإطراء، حتى امتلأت به القرية والوادي تمامًا. وطفق شقيقي، والنشوة آخذة منّه كلّ مأخذ، يكرّر رواية سيرة مغامرته وهو يتلوَّى بضحكات قصيرة بهيجة كانت تصير بين الفينة والأخرى مجرَّد جلبة لغو يكاد لا يُفقَه منه شيء.

قال لـي: «أنت مذهل»، ناظرًا إليه بعينين ممتلئتين بالصداقة.

ألقى شقيقي بالدرَّاج أرضًا على الثلج من شدّة فرحه بإشادة لـي به. وعندما عاد مينامي وهو لم يصطد غير أبيض العين صغيرًا واحدًا، رحنا نسخر منه. شعر مينامي بالخزي، بيد أنّ طائره الأخضر الضئيل بدا، أمام الدرَّاج، بلمعانه اللطيف في ضوء المساء الذهبي المحروق والبرتقالي، مثل حفنة تراب على وشك التفتُّت، الأمر الذي اضطرّ هو الآخر إلى التسليم به.

طقطق مينامي بلسانه ورمى بطائرة أرضًا على الثلج وحذا حذوه الرفاق الآخرون. تصاعد دفق من الابتهاج، مشحون بروح الكومة على الثلج التي ازدانت بأرياش ناعمة زرقاء ضاربة إلى الرمادي، سوداء وصفراء، خضراء وبنية مائلة إلى البياض، متمركزة على الدرَّاج الفاتن.

قال لـي: «سوف نقيم عيدًا في قريتنا بمناسبة اليوم الذي اصطدنا فيه درَّاجنا الأول، فهذا سوف يكفل نجاح صيدنا المقبل. واقع الأمر أنه لا يوجد أيّ قرويين هنا حاليًّا، لذا لن يقيموا عيدًا. فإذا لم نفعل ذلك نحن، سوف يبوء الصيد بالفشل، والقرية سوف تتدهور».

قلت: «فلنفعله، سنكفل نجاح صيدنا من أجل قريتنا».

قال مينامي وهو يلوي شفتيه: «قريتنا؟ أهي قريتنا؟ لقد تخلوا عنّا».

قلت وأنا أرمقه: «إنها قريتنا، أنا لم يتخلَّ عني أحد».

قال بابتسامة ماكرة أشبه بالتكشيرة: «فليكن إذن، أنا أعشق الأعياد».

سألت لـي: «هل تعلم كيف تقوم بذلك؟ أعني كيف يُقام العيد؟».

قال: «سنطبخ الطيور هنا ونأكلها. سنغنّي ونرقص، وسيجري العيد هكذا على ما يرام. هذا ما جرى عليه الأقدمون دومًا».

قلت، وهتف الرفاق: «فلنفعله، فلنُقِمْ عيدنا».

قال لـي: «فليذهب الجميع ويأتوا بالحطب والطعام. سآتي بقِدْر كبيرة».

هرع الرفاق عائدين إلى بيوتهم وهم يهتفون، وأمسكتُ شقيقي من كتفه وركضنا صاعدين السفح لجلب الحطب.

صاح مينامي، وهو يؤرجح ذراعيه: «سأعلّمكم أنشودة العيد، سنغنّي حتى الصباح».

الفصل الثامن

تفشّي المرض المفاجئ والذعر

ما إن جمعنا الخشب الأخضر، الذي فاحت منه رائحة مشرَّبة بحلاوة لحمية من جروح ضربات الفأس الحادّة، وحملناه إلى أرضية المدرسة الترابية العريضة، وعلَّقنا كلَّاب القدور وثبَّتنا عليه قِدْر طهي كبيرة، حتى كان محور العيد قد توطَّد. ألقينا بالحطب أرضًا تحتها، ودسسنا فيه غصينات جافة، وأوقدنا نارًا. سرعان ما أخذ الماء الزيتي في القِدْر يبقبق، تطفو على وجهه قطع السمك المقدَّد المفروم فرمًا خشنًا. شمَّر الجندي، الذي حَضَرَ بناءً على إلحاح توسّلات لـي، عن ساعديه النحيلين وراح يحرّك محتوى القِدْر.

نتفنا ريش الطيور ووضعنا أبدانها المعرَّاة الفاحشة ذات البطون المنتفخة على الثلج. لوَّحها لـي فوق النار واحدًا واحدًا ليزيل بالحرق زغبها الناعم، ففاحت إلى خياشيمنا رائحة لحم خفيفة. بعض الطيور عادت إلى الحياة بغتة بينما كانت أعناقها تُدَقُّ وتَلَوَّت بعنف، ممّا أثار ضحكنا. انتزعنا رؤوسها، وبعبصنا بأصابعنا في شروجها، ورحنا نتحسَّسها ونهزهزها، ونضيّع الوقت لاهين، ونصيح بصوت مرتفع.

فتح لـي بسكين حادّة حوصلة طائر سمنة، وبيديه الاثنتين أفرغها من محتوياتها البائسة، بما فيها حصى صغيرة، ليرينا إيَّاها. حدَّقنا إلى رؤوس حشرات بنّية قاتمة، بذور قاسية، جذور أعشاب، نُتَفٍ من لحاء الشجر.

هتف مينامي مندهشًا: «إنها تأكل أشياء فظيعة».

قال لـي: «إنها ميتة جوعًا».

صرخ مينامي: «كلّ شيء خارج القرية ميت جوعًا. الطيور، البهائم: إنها جميعًا ميتة من الجوع. الناس خارج القرية يتضوَّرون جوعًا، ونحن وحدنا مِعَدنا شبعى».

انفجرنا ضاحكين، وطفق مينامي يدور حولنا منتصرًا، يلوّح متباهيًا بطائر السمنة العاري منزوع الأحشاء. خارج القرية، إبَّان إجلائنا الجماعي، بينما كانوا ينقّلوننا بين المعابد والمدارس والأبنية الملحقة بالمزارع، كنَّا عادة نتضوَّر جوعًا. تراءى لي رفاقنا، يقتادهم ناظر الإصلاحية، يعجّلون بثبات للانضمام إلى طلائعنا، يغمى عليهم من الجوع ويضغطون على لحم مِعَدهم المهزولة، يسيرون على طريق الليل الحالك الذي سبق أن قطعناه وعلى مسار الترولي تسحبه الرافعة ذات الصرير. كان علينا أن نضمن نجاح حملات صيد القرية لكي نرحّب بهم.

حين وُضعت جميع الطيور على الثلج، بجلودها القاسية المنقَّطة المنقلبة زرقاء وسوداء، وهي تقطر دمًا مشوبًا بالشحم من رقابها المقطوعة، أدهشنا أنها بدت عجفاء ناتئة العظام. أما درَّاج شقيقي،

بفخذيه المكتنزين السمينين المنفرجين وعظام صدره الصفراء البارزة، فقد بدا جليلًا. ثاقبًا سيقان الطيور الصغيرة بسلك معدني سميك، صنع لـي حلقة من اللحم وعلَّقها فوق النار. أنفذ من ثمّ في الدرَّاج، من الرقبة إلى الشرج، غصن سنديان مبريّ مدبَّب، وقام الفتية، ممكسين بطرفَي الغصن، بشيّ الدرَّاج بتقليبه كرَّة بعد أخرى.

تولَّى رفاقنا الأصغر سنًّا، وهم يصيحون مبتهجين، معاونة الجندي على تقطيع الخضار شرائح وإلقائها في القِدْر وتحضير كمية ضخمة من العصيدة، صابّين فيها الأرزّ والماء. أما شقيقي، فقد ارتدى أرياش ذيل الدرَّاج المتوهّجة كالنار، آخذًا على عاتقه مناولة الجندي الخضار المغسولة لتوّها، لكنّه كان يهرول أحيانًا ليحدّق إلى صيده النفيس وهو يُشوى ويقطر شحمًا أصفر بنيًّا من جميع أنحاء بدنه، فيتنهَّد علامة الرضا.

بينما كان ضياء الشمس الغاربة فوق الثلج آخذًا في الغرق في الزمن الوئيد المتقلّب قبيل طلوع القمر، شرعنا في وليمتنا الفاخرة. أحطنا بالنار، نمضغ لحم الطيور وعظامها الطرية، ونأكل من العصيدة الساخنة. خيَّمت حوالى أجسامنا طاقة شهوانية حارَّة ونحن نلتهم الطعام في صخب. جاء لـي بزجاجات من الساكِه المقطّر على نحو غير شرعي. كان السائل العكر شديد الحموضة، فبصقناه جميعًا صارخين حالما أخذنا منه جرعة في أفواهنا. استعصى على الساكِه النزول في حلوقنا، غير أننا لم نحتج إليه. كانت دماؤنا تغلي من شدة السُّكْر.

شرع لـي في الإنشاد بلغته الأم، وسرعان ما التقطنا تلك اللازمة البسيطة التي علقت راسخة في أذهاننا، وطفقنا نجوّق على أنشودته.

علوتُ بصوتي فوق إنشاد الآخرين: «هل هذه أنشودة عيد؟».

ردَّ عليَّ لـي صائحًا وهو يضحك مُظهِرًا لسانه المرتعش: «لا، إنها أنشودة جنائزية، حفظتها حين مات أبي».

أعلنتُ قانعًا: «إنها أنشودة عيد، أيّ شيء يمكن أن يصير أنشودة عيد».

أطلنا الغناء. فجأةً، طلع القمر واستحمَّ الثلج في ضوء خافت. أخذنا في الارتجاف، ثم ركضنا صارخين إلى الثلج وطفقنا نرقص رقصًا همجيًّا. بعد مدّة قصيرة، قَرَصَنا الجوع من جديد وعدنا إلى قِدْر الطهي. هناك، كان الجندي في الخدمة عند النار، حاضنًا ركبتيه مطأطئ الرأس. فكرنا جميعًا أنه غبي لإحجامه عن الغناء والرقص.

حالما شبعنا، حلَّ علينا النعاس ممتزجًا بالتعب. مودّعًا شقيقي والآخرين الذين عادوا راكضين إلى الثلج مع ليو، لبثتُ قرب النار، حاضنًا ركبتيَّ مثل الجندي. لـي وميناي أيضًا لم يحاولا مغادرة النار. وذلك يعني أن ثلاثتنا لم نعد أولادًا تمامًا.

قال ميناي بصوت حالم: «حتى الآن، لا تزال الحرب مستعرة خارج القرية، لولا الحرب لكنتُ الآن قرب البحر في أقصى الجنوب».

قال الجندي: «قطعًا ستضع الحرب أوزارها قريبًا، وستنتهي بانتصار العدو».

ظللنا صامتين. كان الأمر بنظرنا سيَّان. لكن الجندي، وقد أغاظته قلَّة اكتراثنا، أصرَّ على رأيه.

«يجب عليَّ أن أختبئ لوقت قصير فحسب، حتى تضع الحرب أوزارها». كان صوت الفارّ حارًّا ومحمومًا، مثل دعاء: «بمجرَّد أن يستسلم البلد، سأكون طليقًا».

قلت: «أنت طليق الآن، ألست كذلك؟ بوسعك أن تفعل كلّ ما يحلو لك في هذه القرية؛ أينما أرحتَ رأسك لن يقبض عليك أحد، أنت بالفعل طليق، ألست كذلك؟».

قال الجندي: «لا نزال غير طليقين، أنا وأنت. نحن معزولان».

قلت بغضب: «لا تفكّر في ما يجري خارج القرية، لا تقل هذا، بوسعنا أن نفعل أيّ شيء في هذه القرية. لا تتكلّم عن الذين في الخارج».

عاد الجندي إلى صمته، ونحن أيضًا هدأنا.

وحدها النار كان يصدر عنها صوت طقطقة. من الخارج، كانت تُسمَع أصوات شقيقي والآخرين يتراكضون على الثلج. سمعتُ نباح الكلب.

كرَّر الجندي بعد مدة قصيرة: «قطعًا سوف ننهزم في الحرب»، رفع رأسه من ثمّ فجأةً، ومجيلًا طرفه فينا، سأل:

«ويحكما! أنتما صامتان، ولكن ألا تشعران بالعار من الهزيمة؟».

قلت بهدوء: «إنه أمرٌ هم الذين يفعلونه، يفعله القوم في الخارج الذين يحملون البنادق والذين قاموا بعزلنا، ما شأننا نحن بهذا؟».

قال الجندي بإصرار: «أنتم حثالة، لا تكترثون بهزيمتكم، مجرَّد حثالة».

قلت: «أنت الذي فررت لأنك خائف من الموت، ونحن الحثالة؟».

قال مينامي مُجهِزًا عليه وهو يلوي شفتيه في ابتسامة خبيثة: «نحن لا نفر، اشغل بالك بنفسك».

رمقنا الجندي شزرًا، مستشيطًا غضبًا، ثم دفن جبهته بين ركبتيه. شعرتُ بأنه سُحِقَ وأُخزِي، لكني لم أتعاطف معه. ارتفع بيننا وبين الجندي جدار شاهق ما كنَّا لنستطيع التسلّق من فوقه. على الرغم من جُبنه، جلب الجندي العالم الخارجي إلى القرية، والآن حتى، كان متشبثًا به. «أنصاف الراشدين أولئك، والذين بلغوا الرشد أولئك، جميعهم لا سبيل إلى إصلاحهم»، فكّرتُ مطمئنًّا.

قال مينامي بصوت عميق الرضا ونظر إلينا: «قال إننا حثالة». ضحكنا بصوت مرتفع ولم يتحرّك الجندي، مطأطئًا رأسه.

عندما أقبل شقيقي والآخرون راكضين، نافضين الثلج عن ثيابهم، كنَّا شبه نائمين حول النار المنكمشة. وقفوا أمامنا، وعيونهم تشع انفعالًا. لم يستطع رأسي النعسان أن يفهم ما يقولونه في وقت واحد.

قال الجندي، وهو نصف ناهض: «ماذا؟ تكلَّموا بوضوح، مريضة؟».

قال شقيقي منفعلًا: «أجل، تبدو مريضة على نحوٍ فظيع، إنها مستلقية محمرَّة الوجه وهي تئن. إنها لا تجيب».

قفزتُ واقفًا. انتابتني غصَّة ندم أنني نسيتُ تمامًا الفتاة في المستودع.

صحتُ، وأنا أهزّ كتفي شقيقي: «هل دخلت ونظرت؟»، جاعلًا أرياش الدرَّاج تتلامع.

قال خائفًا: «حين ذهبتُ لأعتذر عما بدر من ليو تأوَّهتْ فقط».

خرجنا راكضين على الطريق المثلج الذي كان يشعّ تحت القمر.

كانت النار على أرضية المخزن قد أوشكت على الخمود. مشينا على رؤوس أصابعنا وأحطنا بجسم الفتاة الممدَّد. وجهها الطافي أبيض اللون كان يبدو أكثر انكماشًا حتى بسبب الحمَّى. كانت ترتعش بسرعة وتُصدِرُ من فمها المفتوح شهقاتٍ عاليةَ الطبقة غير معقولة. ركعتُ على الأرضية الترابية ولمستُ بإصبعي أوتار عنقها المشدودة. تلوَّت شفتا الفتاة كاشفتين عن لثَّتها، ولوت عنقها بعنف وارتدَّت عن إصبعي. صُعِقتُ، مثل ماعز صريع على ظهره. أطلقت الفتاة آهةً طويلةً وهمهمت لنفسها بكلمة متطاولة منتزَعة انتزاعًا. شهقت.

قال الجندي: «أنت، أوقد النار»، دافعًا مينامي من كتفه بعنف.

اتّخذ صوته فجأةً وقار الراشد وهدوءه. لم يكن الصوت الضعيف التافه الصادر عن الرجل المتباكي بخصوص الحرب. حتى إن مينامي، الذي لطالما سخر منه، خرج طائعًا من المخرن لجلب الحطب من دون أن ينبس ببنت شفة.

قال الجندي، وهو ينظر إليَّ رأسًا: «أنت، ابحث عن كيس جليد وضع فيه ثلجًا وماء».

قلت قانطًا: «كيس جليد؟ أين أجد شيئًا كهذا؟».

قال لـي لاهثًا: «يوجد كيس جليد في بيت المختار».

قال الجندي بصرامة، منحنيًا على رأس الفتاة: «اذهب وجئني به، وأنتم الآخرون، ابقوا على مقربة من النار في المدرسة. إذا عربدتم سوف تموت. ثمّ، سوف ينتقل مرضها إليكم».

سارعتُ والفتى الكوري إلى الخروج إلى ضوء الثلج وصعدنا التلَّة.

قال لـي وهو يجري منقطع النَّفَس: «ذلك الفارّ، حصَّل طرفًا من الطب. قال لـي ذلك بنفسه، مع أنني لم أصدّقه فعلًا».

صلَّيت بحرارة عسى أن يكون كلامه صادقًا. أنا أيضًا حاولتُ أن أصدّقه.

كانت دارة المختار محوطة بسور متناوب المربّعات السود والبيض يحجب قاتمًا ضوء القمر. تردَّدتُ ولـي أمام البوابة الواطئة ونظر كلٌّ منَّا إلى عين رفيقه. إنه البيت اللائق الوحيد في القرية، يباهي أمامنا بالنظام الأخلاقي. كنَّا قد أعفينا هذا البيت من السلب والنهب بعد نزوح القرويين. والآن بان لنا المغزى من هذا الإعفاء واضحًا للمرة الأولى.

قال لـي: «إذا سطوتُ على هذا البيت عنوة، سوف يتعقَّب القرويون أمّي طوال ما تبقى من عمرها. سوف أُطرَد من القرية، وقد أُقتَل».

احتقن حلقي في لحظة غضب وجيزة، لكنّ نداوة رقيقة مشجّعة انبجست بلطف في عيني لـي وخاطبتني.

سألت: «أستفعل؟».

قال: «حتى إذا تسبَّب في مقتلي، سأفعله».

تسلَّقنا من فوق السور، وركضنا مسرعَين عبر فناء الدار، وأعملنا سواعدنا بالحجارة في القفل حتى تهشَّم وانفتح الباب الخشبي. كانت الأرضية الخشبية الواسعة في الداخل أشدّ برودة من العراء حتى، وتفوح منها بقوة رائحة العفن، حتى شقَّ علينا التنفّس. عندما اشتعل لهب عود الكبريت الصغير في يد لـي ملأ الدخان الكبريتي مناخرنا. نقل اللهب إلى المصباح المعلَّق على العمود المطلي بالأسود أمام

رواق الشرفة. كان الداخل مزدحمًا بأثاثٍ ثقيل مشبع بالسنين. أجلتُ طرفي في الأرضية الترابية التي بدت شاسعة، ووقع بصري على المصلَّى العائلي البديع على الأرضية العلوية، أبعد من حصير التاتامي.

ركض لـي رأسًا إلى هناك، وفتح الباب المصقول باللَّك القرمزي تحت المصلَّى، وابتسامته تفترُّ عن أسنانه وهو يُخرج كيسًا ورقيًّا ضخمًا، قفز من ثمّ نازلًا. تسلَّقنا من فوق البوابة عائدَين.

قال لـي ونحن نجري: «ثابرتُ وشقيقي كل شهر على الجلوس ساعات طوال على تلك الأرضية الترابية ونحن نضفر صنادل القش. كان الأمر عبارة عن أشغال شاقة، وكلَّما تراخينا في العمل كان السيد العجوز يبصق عليَّ وعلى أمّي».

بصق هو نفسه بضراوة. كان منفعلًا حقًّا من السطو على دارة المختار، وصوته كان يرتعد.

«نحن نعلم موضع كلّ شيء في تلك الدارة؛ منذ أن كان أبي طفلًا، أجبرنا القوم في تلك الدارة على فعل كلّ شيء من أجلهم. حين أعدتُ طلاء الكنيف، تراني كنت أجول فيه دَبًّا طوال النهار، مسربَلًا بالخراء».

قلتُ، تُحرّكني روح رفاقية: «كنتم شجعانًا حقًّا»، ثم تذكّرتُ كلمات الفتاة فاعتراني أسى من الشدّة بحيث كاد أن يحملني على الجثو على الثلج والصراخ بأعلى صوتي. عاضًّا على شفتي، جمعتُ الثلج ليضعه لـي في كيس الجليد قديم الطراز الذي أخرجه من كيس الورق، وغرفتُ ثلجًا نصف مائع من برك الثلج الذائب بكلتا يديَّ المتجمّدتين.

قال وهو يربط فم كيس الجليد: «أنت أيضًا شجاع».

تناول الجندي كيس الجليد منّا عند باب المخزن. ألحَّ من ثمّ علينا في الانصراف، هازًّا ذقنه.

ناشدته: «لن تموت، أليس كذلك؟ سوف تنجو؟».

قال ببرود: «لا أدري، لا دواء عندي ولا أي شيء؛ ليس بوسعي أن أفعل شيئًا».

حين أغلق الباب في وجهنا، بدا باردًا ومنفصلًا، وكأنّ طبقة داخل جلده أخذت بالتصلُّب.

عدتُ ولي إلى الساحة أمام المدرسة، متكاتفَين في صمت. انتفخ الإرهاق فيَّ مثل إسفنجة تَعُبُّ الماء.

كان الرفاق جالسين حول النار برؤوس مطأطأة. شعرتُ بالجزع حين رأيتُ شقيقي، محتضنًا ليو، يقف على حدة بعيدًا عن حلقتهم ورأسه مندار نحوهم بتحدّ. وقف مينامي، وقام بخطوة واحدة نحونا ونظر في عيوننا رأسًا، أنا ولي. كانت شفتاه ترتعشان. وعندما فتح فاه، مبتلعًا ريقه، شعرتُ بدافعٍ إلى كبحه، لكن بعد فوات الأوان.

قال مستعجلًا: «بحسب تشخيص الجندي، يبدو أنّ تلك البنت مصابة بالطاعون!».

طاعون: تلك الكلمة. الكلمة التي نشرت من فورها فروعها وأوراقها وجذورها، بالطول وبالعرض، في أنحاء القرية كلّها، عاصفةً كالزوبعة بكل شيء، ساحقة في طريقها الجميع، خرجتْ من حلقه صياحًا، وصارت للمرة الأولى واقعًا محسوسًا في تلك القرية حيث تُرك أولادٌ وحدهم. شعرتُ بها تهيّج الفتية الجالسين حول النار، متسبّبة في ذعر مفاجئ.

صحتُ: «تلك كذبة، إنها كذبة!».

صاح مينامي: «لقد لذت بالصمت إلى حين عودتك. أقسم أن الجندي أخبرني بذلك بوضوح. تلك البنت توسّخ مؤخرتها بخراء مائع كالدم. لقد رأيتُه. إنها مصابة بالطاعون».

أبصرتُ الفتية الأصغر تعتريهم فجأةً نوبات من الذعر، فسدَّدتُ لكمة قوية إلى حنجرة مينامي المتشنّجة. سقط أرضًا على الثلج الذي ذوَّبته النار وتأوَّه، قابضًا على حنجرته بكلتا يديه. أمسكني لي عنه وأنا على وشك ركله في بطنه وهو يتخبَّط محاولًا التنفّس. كانت ذراع لي مسمرَّة وحارَّة. حدَّقتُ إلى الرفاق وهم يقفون حول النار، مرتجفين من شدّة الخوف المفاجئ.

قلتُ: «إنه ليس الطاعون». لكنّ الخوف كان قد تسرَّب عميقًا في نفوسهم، فما كانوا ليصغوا إليَّ.

قال صوتٌ مذعور: «فلنهرب ولننجُ بأنفسنا، وإلّا متنا نحن أيضًا. هيَّا، خذونا معكم بعيدًا من هنا، ولننجُ بأنفسنا».

صرختُ، رافعًا صوتي لستر الرعب الذي بدأ يتسرَّب إليَّ أنا الآخر: «قلت إنه ليس الطاعون. لا تكفّوا عن الولولة إذا كنتم تحبّون اللكمات، ما من طاعون هنا».

قال صوتٌ آخر عالي الطبقة على نحوٍ مسعور: «أعرف. لقد أصابتها عدوى الطاعون من الكلب».

نظرتُ إلى شقيقي وليو مذهولًا. أدار شقيقي ظهره لنا، باذلًا جهدًا إضافيًا لتجاهل الصراخ، وضغط برأس ليو على صدره.

قال فتية آخرون كما لو كانوا يردّدون معًا: «نحن كذلك نعلم، إنه ذنب كلب شقيقك وأنت تتستَّر عليه».

كنتُ مبهورًا حتى الدوار، إذ واجهني للمرة الأولى رفاق وقفوا ضدّي.

قال لـي بصوت حادّ مقتضب: «ماذا فعل الكلب؟ إيه، ماذا فعل؟».

قال صوت باكٍ بوهن: «ذلك الكلب نقّب عن الجثث، قام شقيقك بدفنها ثانية. رأيناه يغسل يديه وبدن الكلب. وقد انتقل إليه المرض مذ ذاك. وهذا الصباح عضَّ الكلب ساعد البنت ونقل إليها المرض. لهذا تفشَّى الطاعون».

ذاب آخِرُ جملة الفتى في شهقاته. كنتُ في حيرة تامة من أمري، فلم أستطع أن أفكّر في أيّ أمر آخر غير الحديث إلى شقيقي الذي ظلّ يدير لنا ظهره.

«ويحك، هل صحيح ما قيل عن الكلب؟ إنه كذبة، أليس كذلك؟».

ملتفتًا إلى تحديق الرفاق، حاول شقيقي أن يحرّك شفتيه، خفض من ثمّ بصره صامتًا. تأوَّهت. أحاط الرفاق به وبالكلب. دسَّ الكلب ذيله بين قائمتيه وضغط بكتفه على ركبة شقيقي وراح ينظر إلينا.

قال مينامي بصوت أجش: «إنه ناقلٌ حي للطاعون، فمع أنك حاولت أن تتستَّر على الأمر، نحن متأكّدون أنه هو الذي نقل الطاعون إلى البنت».

قال أحد الرفاق: «رآه الجميع يعضُّ معصمها، مع أنّها لم تكن تفعل شيئًا عضَّها. إنه مسعور».

احتجَّ شقيقي بقوة: «إنه ليس مسعورًا». كان مستميتًا في حماية كلبه: «ليو ليس مصابًا بالطاعون!».

قال مينامي، مُصِرًّا على استفزازه: «ما أدراك، ما أدراك حقًّا ما هو الطاعون؟ إنه ذنبك أن الطاعون تفشَّى».

كابد شقيقي الأمر كلّه وعيناه مفتوحتان على اتّساعهما وشفتاه ترتجفان. ثم صرخ، محاولًا بوضوح أن يكظم الجزع الذي كان يحول بينه وبين الإقدام.

«لا أدري، لكنّ ليو بريء من الطاعون».

وبَّختْه أصوات: «كاذب، سيموت الجميع بسبب كلبك».

جرى مينامي خارج دائرة الاتّهام وسحب غصن السنديان الأخضر الذي كانت تتدلَّى منه قِدْر الطهي. بوغت الجميع، وتوسَّعت الدائرة.

صاح شقيقي مرعوبًا: «إيَّاك! إذا ضربت صاحبي ليو لن أسامحك أبدًا».

بيد أنّ مينامي تقدَّم بإصرار لا ينثني، وأطلق صفرة حادّة. انزلق الكلب من بين يدَي شقيقي وهو ينحني بسرعة، وأقبل متقدّمًا، وقد خدعه الصفير. رأيتُ شقيقي يدير عينيه المتوسّلتين نحوي، لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ وقف الكلب حائرًا، مدلّيًا لسانه الذي بدا، بنظري حتى، كتلة من عجيج الجراثيم الضاري.

صاح شقيقي: «لـي!». لكن لـي لم يحرّك ساكنًا.

هبط غصن السنديان، وتهاوى الكلب على الثلج بصوت مكتوم. نظرنا إليه جميعًا صامتين. عاضًّا على شفتيه، وعيناه مغرورقتان بالدموع، وجسمه ينتفض من النشيج، أخذ شقيقي يترنَّح إلى الأمام.

غير أنّه لم يستطع أن يخفض بصره وينظر إلى الكلب المنتفض في النزع الأخير، الذي كان دمه الأسود يبلّل رويدًا الفراء فوق أذنيه. ومن فرط ما هشَّمه الغضب والغم، انفجر ونطق:

«مَن منكم كان متأكدًا أن ليو أصيب بالطاعون؟ وَيْحكم! أنتم جميعًا، مَن كان يعرف يقينًا؟».

جرى مبتعدًا وهو ينتحب مطأطئ الرأس. راح الجميع يحدّقون إلى ما خلف كتفيه الصغيرتين اللتين كانتا تهتزان مع شهقات النحيب. صحتُ أناديه أن يعود، لكنه لم يعد. لقد خنت شقيقي، فكّرت. كيف بإمكاني أن أواسي شقيقي وهو مستلقٍ ينتحب، دافنًا رأسه في عفن قش صومعة الحبوب المعتمة؟

ربما كان يجدر بي أن أتبعه فأواسيه وأسلو عنه، معانقًا كتفيه. لعل هذا أفضل ما كان ينبغي لي أن أفعل؛ لكن كان عليَّ أن أوقف الذعر الذي استولى على الفتية الأصغر سنًّا والذي من شأنه أن يقودهم إلى الصراخ الهستيري. وخطر ببالي أنّ الآن، بينما كانوا يقفون مصدومين والكلب المقتول أمامهم، كان أفضل فرصة متبقية، ولعلها الفرصة الوحيدة المتبقية.

صحتُ بهم: «أنتم كلّ مَن تسوّل له نفسه أن يولول بخصوص الطاعون، سوف أهشّم رأسه كما جرى على الكلب. اتّفقنا؟ أعدكم، لم يتفشَّ الوباء!».

خيَّم الصمت عليهم، وتثبَّطت عزائمهم. كانوا طائعين، لم يروّعهم صوتي بقدر ما روَّعهم غصن السنديان المدمَّى في ذراعَي مينامي. وإذْ شعرت بأني نجحت، كرَّرتُ مشدّدًا:

«اتّفقنا، لا يوجد طاعون ولا مَن يحزنون».

لممت من ثمّ قلادة أرياش الدرّاج، المغطّاة بالوحل والثلج، من حيث كان شقيقي جالسًا ووضعتها في جيب معطفي. ألقى لـي وينامي جيفة الكلب على النار وكوّما فوقها حطبًا. لم تتّقد النار التي ضعفت اتقادًا قويًّا وظلّت قوائم الكلب ناتئة خارج الحطب وقتًا طويلًا.

قلتُ للرفاق الأصغر سنًّا بنبرة آمرة: «أنتم جميعًا، عودوا وناموا. سأضرب كل مَن يشاغب!».

نظر مينامي إليَّ بعينين ساخرتين. أثار هذا استيائي.

«مينامي، أنت أيضًا اذهب إلى النوم!».

قال، مبدِيًا شيئًا من العداء، «لن أتلقّى الأوامر»، أمسك بغصن السنديان الملطّخ بوبر الكلب ودمه.

قال لـي: «عليك بالذهاب إلى البيت»، مُمْعنًا النظر في غصن السنديان بيد مينامي: «إذا لم يعجبك الأمر، سأكون لك بالمرصاد أنا أيضًا».

لوى مينامي وجهه، ودفع بغصن السنديان إلى النار، وصاح في الرفاق: «مَن منكم لا يريد أن يموت وحده ميتة الكلب، فليأتِ وليَنَمْ معي. هناك جراثيم تعجّ حول هذين الاثنين».

تريّثت ولـي قرب النار، تاركَين لها أن تلوّح بحرارتها جبينينا، وشيّعنا بأنظارنا الآخرين الذين استبدَّ بهم الجزع وكانوا يهرولون خلف مينامي. في البداية، كان هناك صوتُ ألسنة اللهب الخفيض الجاف. بعد ذلك ذاب الشحم وسال، مُصدِرًا في احتراقه طشيشًا، وفرقع شَرَر،

وفاحت الرائحة الكثيفة لقطع اللحم المحترقة وعلقت بالهواء حوالينا. هذه لم تكن تلك الرائحة الحيَّة، الباعثة على النشاط، التي فاحت حين شوينا الحمام والنّهسان والدرَّاج، ولكن المذاق الثقيل للموت الزؤام. انحنيتُ على الأرض وتقيَّأت بعض بقايا الخضار وحبَّات الأرزّ والأوتار القاسية من لحم الطيور. وبينما كنت أمسح فمي بظاهر يدي، حدَّق إليَّ لـي بعينين غائرتين من فرط الإعياء. تدفّق الإرهاق منهما إلى جسمي مثل ماء الفيضان وشقّ له طريقًا تحت جلدي. كنت من شدّة الإرهاق والنعاس بحيث إنني استصعبتُ حتى الوقوف منتصب القامة. كذلك لم أعد أطيق الوقوف وسط رائحة الكلب المحترق مدّة أطول. نهضتُ ببطء، عاضًا على شفتيَّ، وأومأتُ إلى لـي وأدرت ظهري للنار. وددتُ لو أنام في القش إلى جانب شقيقي مثل حيوان طفل. لا بدَّ أن يغفر لي شقيقي، الذي أنهكه، مثلما أنهكني، قلب مترع بالدموع: تلك كانت خواطر عذبة. كان القمر يختبئ خلف غيوم سميكة ويسبغ على حواشيها البعيدة بريقًا لؤلؤيًّا. وكان الثلج قد تجمَّد مرة أخرى على الطريق المعتمة، وشعرتُ به يُحدِث صريرًا تحت أخمص رجليَّ. صعدت السفح، وجلد وجنتيَّ مخدَّر من فرط البرد.

كان باب صومعة الحبوب حيث نقيم موارَبًا قليلًا والحصيرة المعلَّقة خلفه تتأرجح مع الريح. شققتُ بكتفي طريقًا للدخول وناديتُ على شقيقي. لم يردّ أحد. كانت النار على الأرضية الترابية خامدة والمكان خاليًا من رائحة البشر. أخذتُ علبة الكبريت من جيب سروالي وانحنيتُ لأدرأ الريح وأشعلتُ عود كبريت. كان مكان نوم شقيقي خاليًا. انتبهتُ من ثمّ أنّ حقيبة عُدَّته لم تعد موجودة على

صندوق الحبوب، وأنّ فتّاحة العلب على شكل رأس الجمل التي أعرته إيّاها كانت واقفة هناك، مكان الحقيبة، منمنمةً ومقبضها إلى أسفل. كان الغبار المنزلي قد استقرّ إبّان الفترة القصيرة التي اتّخذنا فيها من الصومعة مسكنًا جديدًا، والمكان الذي شغلتْه حقيبة عُدَّة شقيقي كان أسود ومحدَّدًا جيدًا. أحرق لهب عود الكبريت أصابعي. صرختُ ورميته بعيدًا، واندفعتُ إلى الخارج.

بينما كنتُ أنزل السفح مسرعًا، ناديتُ على شقيقي بأعلى صوتي. غير أنّ الصوت الصادر عن حنجرتي، وقد حال دونه البرد والهواء الجاف، تصادى ضعيفًا في الظلمة: «يااهووو، يااهووو، ارجعْ، أين أنت ذاهب؟ ارجعْ».

مائلًا باتّجاه النار حتى يكاد يُشيط حاجبيه، كان لـي، بعود مدبَّب، ينكأ ما لم يُستهلَك بعد من جثة الكلب. كان البطن قد انفجر مفتوحًا، والأحشاء زاهية الألوان على وشك أن تحترق في ضوضاء أشبه بالبصق. وقف أحد أطراف المصران الدقيقة منتصبًا، يرتجف كأنه إصبع، ثم راح ينتفخ ويحمرُّ رويدًا.

قلت: «هل تعلم أين شقيقي؟» ولساني الجاف بارز من فمي.

أدار لـي رأسه الدهني المتورّد نحوي: «ماذا؟». تضايقتُ من شدّة انهماكه بمراقبة احتراق الكلب: «شقيقك؟».

«إنه ليس هناك؛ ألم يأتِ لرؤية الكلب؟».

قال لـي، محدّقًا إلى المصران وهي تنفجر في صخب بقبقة فاحشة: «ليس هناك؟ لا أدري».

تنهَّدت تنهُّدًا محمومًا: «أين ذهب بحق الجحيم؟».

قال لـي: «هذا ينتن حقًّا. فظيع كم هو بطيء احتراق الدم!». تدفّقت الرائحة الخانقة.

صعدتُ جريًا طريق القرية الضيق وذهبتُ إلى الغابة، التي تضغط من كلا الجانبين على الدرب المنحدرة المفروشة بالحصى، ثم خرجتُ لأجد نفسي أمام القوصرة الحجرية المطلَّة على الوادي التي كانت نقطة انطلاق مسار الترولي المسدود. كان الوادي قاتمًا، ووحدها تتعالى ضوضاء الماء الجاري. صحتُ: «يااهووو، يااهووو، ارجعْ، يااهووو، لا ترحل، يااهووو، يااهووو».

لم يردّ أحد. كانت طيور الغابة في الخلف وحيواناتها صامتة هي الأخرى. كانت مختبئة في الأشجار وبين الأعشاب، وقد خوَّفها توجُّس كارثة مشؤومة حلَّت على القرية، مصيخةً أسماعها لتنصت إلى صيحات طفل بشري. صيحاتي امتصَّتْها الآذان العميقة للمخلوقات الجاثمة في صمتٍ ولم تبلغ أبدًا شقيقي الفارّ. «يااهووو، يااهووو، ارجعْ، يااهووو، يااهووو، لا ترحل، يااهووو».

لاح ضوء فانوس متأرجح على ساعد رجل من كوخ الحراسة على الطرف الآخر من الوادي وتحرَّك مسافة قصيرة. رنَّ من ثمّ صوت طلقة تحذير خلَّبية في أرجاء الوادي. عدتُ أدراجي، والسخط يعتمل فيَّ، على الطريق عبر الغابة ورجعتُ إلى القرية. لقد تخلَّى عني شقيقي، فكّرت. لم يتخلَّ عني حين طعنتُ طالبًا أكبر مني في المدرسة الإعدادية وأُرسِلتُ إلى الإصلاحية أول مرة؛ ولا حين فررتُ وعشتُ في الرجس مع

بنتٍ من مصنع الألعاب، ثم عثرتْ عليَّ الشرطة وأبي وعدتُ إلى المنزل بثيابٍ قذرة وداءٍ أقذر؛ ولا حين أُرسِلتُ إلى الإصلاحية ثانيةً. غير أنه قد تخلَّى عني الآن.

سرتُ وأنا أعوي كالوحوش، ذارفًا دموعي على الثلج. كان الماء القذر المتسرّب عبر نعلَي حذائي المهترئ المتشقّقَين ينقع أصابع رجليَّ المتقرّحتَين من فرط البرد والرطوبة ويثير فيها حِكَّة ملحَّة للغاية، لكنني استمتُّ في غرز حذائي في الثلج حتى الكاحلين، عازفًا عن الإتيان بأيّ محاولة لمدّ يدي إلى أسفل وحكّها. فلو انحنيت لما أمكنني قط أن أستقيم منتصبًا وآخذ في السير مجددًا.

توقفتُ أمام المستودع وأصخت السمع. كان بمقدوري أن أسمع أنين نزع الفتاة من وراء الجدران القاتمة، الموصدة بشراسة. ركضتُ وقرعتُ الباب الخشبي.

قال صوت الجندي الغاضب: «مَن هناك؟».

سألتُ، وأنا أغصُّ بدموعي: «هل ستتحسَّن؟ ليست مصابة بالطاعون، أليس كذلك؟».

قال بعد أن سُمِع صوتُ نهوضه: «هذا أنت، لا أدري إن كانت ستتحسَّن. ولا أدري إن كان هو الطاعون».

قلت: «ماذا لو عرضناها على طبيب؟»، لكن حالما خطر ببالي رفض طبيب القرية القطعي إجابة التماسي، بردت همَّتي: «آه، يا ليت بوسع طبيب أن يأتي من مكان ما!».

قال الصوت المتعب الفاتر من الداخل: «جئني بشيء من الثلج لوضعه في كيس الجليد».

جثوتُ على الثلج وبدأتُ أجمع منه بأصابع متجمّدة، مخدَّرة. كان شقيقي قد تخلَّى عني، وحبيبتي الأولى تلفظ أنفاسًا لاهثة، ويغطّي ردفيها الصغيرين غائط كالدم. شعرتُ بالوباء يُغرِق القرية بقوة رهيبة كالوابل، فيقبض عليَّ، ويطفح حوالينا، ويتركنا غير قادرين على تحريك ساكن. كنتُ في طريق مسدودة، وكل ما كان بوسعي أن أفعله هو الانحناء على الأرض في طريق ليلية حالكة وجمع الثلج القذر، وأنا أنشج.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع

عودة القروبين وذبح الجندي

انتشر الوباء إبَّان الليل، مُظهِرًا قوَّته البهيمية، يُعمِل فينا قهرًا وسَحقًا، نحن الأطفال المتروكين. كان الفجر كالحًا، ومن الصباح إلى وضح النهار كانت القرية في الوادي قاتمة، ختم عليها ضبابٌ داكن. أذابت الشمس التي اخترقت طبقة الهواء شبه الشفاف الكثيفة الثلج الوسخ الذي تحوّل إلى مستنقعٍ موحِل. خمولنا وقنوطنا، عجيج الجراثيم، جحافل الجراثيم الضئيلة التي سوف تودي بنا إلى غياهب فقدان الوعي، إلى نوبات من الهذيان تحرق حناجرنا كالنار، كانت تغلي مثل هلام أصفر شاحب مستخلَص من عظام الماشية وجلودها، مُغرِقًا القرية المميَّعة.

لبث رفاقي عميقًا داخل بيوتهم ولم يجازفوا بالخروج. لـي هو الآخر أوصد دونه باب بيته الصغير الذي تفوح منه رائحة الخنازير. استلقيتُ على أرضية الصومعة وعيناي مغمضتان، ماسحًا بين الفينة والفينة العرق البارد الذي ما انفك يتصبَّب، فيتخلَّل ثيابي الداخلية. لم يكن أحدٌ منَّا قد انتقل إليه الوباء، لكن بما أنه مزمع أن يهاجم بشراسة دونما إنذار، مثل لطمة من ذراع قوية، فقد لبثنا في انتظاره داخل البيوت المعتمة. وحده الجندي، الذي - على الرغم من قلَّة النوم -

تولَّى عنَّا السهر القلق بسلطانٍ أجبر حتى مينامي على الامتثال، وتصدَّى للوباء الذي اقتنص الفتاة أولًا. بعض الفتية أفلتوا من البيوت، يدفعهم جزعهم اليائس، وقرعوا باب المخزن المغلق؛ تعالى صوت الجندي متهكّمًا، فكان هذا كافيًا لإعادة الفتية مذعورين إلى المنزل من جديد. تصادت الشهقات وصيحات الغضب خاويةً في كل مكان من القرية.

استلقيتُ في العتمة، محدّقًا إلى أعلى، منتظرًا بعصبيَّة إيجاد مخرج من المأزق. طفقت الصور تظهر وتتلاشى سريعًا أمامي: فرج الفتاة الأملس الجاف، كزهرة صيفية، مؤخّرتها الملطّخة بالغائط، وجهها، صغيرًا أحمر من فرط الحمَّى. تلك الصورة كانت تأتي وتذهب، فتسبّب لي بين الحين والآخر انتصابًا مخزيًا. حسبتُني أحيانًا أسمع صوت خطوات شقيقي الخافتة وصرت مهووسًا به، محاولًا تصديقه. ما فتئتُ أشعر بشقيقي واقفًا في ما يتعدَّى الهواء الراكد، بشقيقي فاركًا بيديه غشاوة الضباب والغبار، لكنّه كان يبتسم بحياء ويأبى الاقتراب.

في المساء، رأيتُ الجندي يذهب نحو المقبرة الجماعية تحت، في تراب الوادي الحنون بين خمائله، حاملًا غرضًا صغيرًا ملفوفًا بحصير، وبعض رفاقي يتبعونه على مبعدة أمتار قليلة. ركضتُ وانضممتُ إليهم، وأجهشت بالبكاء وأنا أرقب الجندي يحفر التراب بإصرار ويدفن من ثمّ الكتلة الملفوفة بالحصير، وهو يرمينا بين الفينة والفينة بلمحات صارمة أبقت على المسافة بيننا.

بعد ذلك، صعد السفح، مائلًا إلى أمام، وعاد إلى المستودع، حيث أخذ في صمتٍ يكوّم الأغصان والحطب على الأرضية. ساعدناه هذه المرة، أيضًا في صمت. وبعد مشاهدة المستودع الصغير يتجشأ نارًا

ودخانًا ثم يحترق عن آخره في برج ضخم من اللهب، تفرَّقنا، وامتثالًا لأمر الجندي، عاد كلٌّ منَّا إلى بيته المعتم.

احتضنتُ ركبتيَّ جالسًا على أرضية المخزن الترابية حيث كانت النار قد خمدت تمامًا وأجهشت بالبكاء وقتًا طويلًا. كان رأسي يؤلمني كأنما يُعتصَر. خرجتُ من ثمّ إلى الطريق المعتمة وناديتُ على شقيقي. لم يظهر بابتسامته الحَيِيَّة. نزلتُ إلى أسفل السفح.

كان الفارّ يقف أمام المستودع المحترق عن آخره في الثلج المائع الذي ذوَّبته حرارة اللهب. كان يشهق باكيًا، مطأطئ الرأس، وكتفاه تهتزان. ذهبتُ نحوه. رمق كلٌّ منَّا الآخر في الظلمة. لزم الفارّ الصمت ولم ينبس بكلمة. ما كانت عندي كلمات أقولها له. وددتُ لو أقول له إن شقيقي وحبيبتي تخلَّيا عني، لكنني ارتبكت فحسب، مثل طفل لا يعرف الكلمات، وعيناي مغرورقتان بالدموع.

لما استيأستُ، هززتُ رأسي وأدرتُ ظهري للفارّ وصعدتُ الطريق المؤدّية إلى الصومعة. كان الثلج في طور التجمّد من جديد وقد أخذ يتصلَّب. فجأةً، أقبل الجندي يتعقَّبني على طول الطريق المعتمة. طوَّق عنقي بذراعه. لم يكن لدينا ما نتكلَّم فيه، فعدنا إلى الصومعة واضطجعنا على الألواح، وجسمانا متعانقان. خطر ببالي الآن أنّ في فك الجندي الضعيف غير المحلوق ووجنتيه الشاحبتين ناتئتي العظم ما يُضفي على سيمائه بطولةً وجمالًا. ولما أخذتُ أنشج، قرَّب رأسي من صدره الذي تنبعث منه رائحة العرق، وعاملني بمنتهى اللطف. ثمّ، لوهلة قصيرة - مع أننا كنَّا معرَّضَين لتهديد الوباء، منهكَين، قانطَين إلى حدّ يدعو للرثاء، حتى إنه قد شقَّ علينا أن نتفوَّه بكلمة واحدة - تذوَّقنا

لذّة صغيرة بائسة استمدَّها كلٌّ من صاحبه. عرَّينا في صمت أردافنا المغطاة ببثور الإوز، ذاهلَين عن نفسينا في حركة الأصابع البارعة.

استيقظتُ قبل الفجر من نوم ضحل، وقد سمعتُ صرخة مكتومة. وإذْ ارتجفتُ بردًا، وجدتُ أن الجندي لم يعد بين ذراعيَّ. كان الوقت فجرًا. ظننتني سمعتُ صوتًا خفيضًا يناديني من جديد. ابتسامة شقيقي الدمثة الودود، أسنانه اللامعة بين شفتيه المتباعدتين قليلًا. قفزتُ واقفًا ونظرتُ من النافذة، فاركًا بأصابعي قطيرات الجليد الدقيقة على الزجاج. أبعد من طبقة الضباب حليبية البياض السميكة، كان ثمة ضوء وردي باهت يتوسع تدريجًا.

إذ ذاك، فجأةً، عند اللحظة التي كفَّت فيها الطيور عن الشدو كفَّ العاصفة المباغت عن الهبوب، وقع بصري على بضعة رجال داكني السمرة، صارمي الملامح، قرويين برماح خيزران مدبَّبة ووجوه بهيمية جامدة، عديمة القسمات، يقفون صامتين هناك وسط غشاوة الضباب ويتفرسون فيَّ. حدَّق واحدنا في الآخر وهلة قصيرة وكأنّنا ننظر إلى حيوانات نادرة عبر زجاج النافذة الذي كساه الصقيع حتى البياض. وقفتُ مشدوهًا وشهقتُ من وقع المفاجأة، ثم شعرتُ بارتياح عظيم ينبجس مثل نبع ماء دافئ. لقد عاد القرويون!

خلف الرجال، نتأ برأسه من ثنايا غشاوة الضباب امرؤ قصير القامة ذو فَكّ بارز وراح يحملق فيَّ ووراءي. إنّه الحدَّاد، أدركتُ، وشعرتُ حتى بشيء يشبه الحنين حين شقَّ بكتفه لنفسه طريقًا عبر الباب الخشبي الذي فتحه، قابضًا على قضيب حديدي قصير متأهّب للانقضاض مثل سلاح. لكنّه تفرَّس فيَّ من فوق إلى تحت، بشفتيه السميكتين، محكمتَي

الإغلاق، وقسماته الصارمة، وحدجني في عينيَّ بعينيه، أشبه برجل ينظر إلى بهيمة منه بإنسان ينظر إلى إنسان مثله. إنه يتفحَّصني ليتأكّد من أنني لا أخفي سلاحًا، فكّرت، وقد أربكتني هشاشتي على نحوٍ أخرق.

قال الحدَّاد الذي همَّ برشاقة قابضًا على ذراعي: «يحسن بك ألا تقاوم، تعال معنا».

كنتُ ألقى معاملة أسير الحرب. غير أنّ ذراعيَّ اللّتين أمسكتْ بهما بإحكام يدا الحدَّاد الضخمتان، بقفازيهما الصناعيين الممتدين إلى ما فوق المعصم، جعلتاني أعدل عن أيّ نيَّة للمقاومة. لقد عاد الراشدون؛ سننجو من تهديد الوباء؛ أخيرًا عاد القرويون...

قال الحدَّاد: «تعال معنا بهدوء، وإلا أوسعتك ضربًا».

قلتُ بصوت مبحوح: «سآتي معكم، أريد أن أُحْضِرَ معي حوائجي. لن أقاوم».

أشار الحدَّاد بقضيبه الحديدي إلى حقيبة عُدَّتي على صندوق الحبوب الغارق في الظلمة: «ذاك؟ اجلبه».

دسستُ فتَّاحة العلب ذات رأس الجمل التي تركها شقيقي في حقيبة عُدَّتي ولففتُ حبل الحقيبة حول عضدي. انتظر الحدَّاد حتى انتهيتُ من ذلك، وهو يتفحَّصني مليًّا بعينين مفعمتين بالريبة. خطر ببالي أن أسطورة جديدة تدور أحداثها حول وحشيَّتنا، نحن أولاد الإصلاحية، قد تسرَّبت أخبارها إلى أقاصي قرى الجبال.

عندما خرجتُ إلى عصف الضباب والريح جنبًا إلى جنب مع الحدَّاد الذي كان يدفعني بكتفه، أحاط بنا الرجال. هبطنا السفح في

صمت. سحبني الحدَّاد بعنف من كتفي عندما انزلقتُ في الثلج وأبى أن تفلت قبضتُه عضلاتي النحيلة.

قلت: «لن أهرب»، لكنّ أصابعه انغرزت في عضلات كتفي بعزيمة أكبر حتى الإيلام. سار الرجال المسافة القصيرة المطلوبة لجرجرتي معهم، وأبقى الحدَّاد إحكام قبضته على كتفي. راحت رماح الخيزران بأيدي الرجال تحفر بصخب في الثلج الذي تجمَّد من فرط برودة هواء الفجر.

برز رفاقي من قلب الضباب، متجمّعين حول النار الخامدة أمام المدرسة، يمسكون بحقائب عُدَّتهم أو يريحونها على ركبهم. حيُّوني هاتفين. أجلتُ فيهم طرفي سريعًا، باحثًا بينهم عن شقيقي. لكني بمجرَّد أن انضممت إليهم، وقد دفعني الحدَّاد وسطهم، وأقعيت وسط الضباب على مقربة من النار الخامدة التي انبعثت منها رائحة الفحم، كان أملي الصغير قد خاب. ثمّ، وأنا أرقب الفتية الآخرين يؤتى بهم وسط الضباب واحدًا واحدًا، راح أملي في رؤية حركة كتفَي شقيقي اللطيفة ورأسه الوسيم يخيب أكثر فأكثر.

غير أنني لم أتخلَّص من اندفاعة انفعال خفيفة اعترتني. والفتية من حولي، وقد سقط عن كاهلهم خوفُهم من الوباء، تسرَّب إليهم شعور مبهج مسعور بالجذل. لقد عاد القرويون، فكَّرنا. رويدًا رويدًا بدأنا نعتقد حقًّا أن الوباء تمكَّن فقط من اختطاف الفتاة بعيدًا عنَّا مثل الزهرة الأخيرة ثمّ سرعان ما انحسر. وذلك الاعتقاد غرس الفرح في نفوس المجموعة. حتى إن بعضنا راح يلكز بعضنا الآخر ويؤدّي حركات بذيئة، بل يضحك أيضًا.

أقبل مينامي، ضاحكًا بلا توقّف بصوت منفعل، يقتاده أحد القرويين ممسكًا به من ذراعه. انضمّ إلينا ووجنتاه محمرّتان ومتوهّجتان، وعيناه مشعتان، وضحكاته تنفجر مثل فقاعات صغيرة من شفتين الرطبتين.

صاح: «جاء يسوقني خارجًا بينما كنت أؤدي تبرُّجي الصباحي وأنا مقرفص على الأرضية، وقد انبهر بمؤخرتي العارية، وضربني من نتانة رائحتها. شيء يدعو للخبل، أليس كذلك؟ كنت منهمكًا في تبرُّجي الصباحي».

سأل رفيق أصغر ببراءة، وقد تحرَّر من جزعه: «تبرُّج صباحي؟»، نافخًا غرور مينامي.

«أعني التبرُّج الصباحي لمؤخرتي».

ضحك الأولاد من حوله ضحكًا طفوليًّا، وراح هو يحاكي وضعيَّته الداعرة. كنَّا جميعًا أخلياء البال، منشرحي الصدر، وكأننا ننتظر نداء التفقُّد قبل الانطلاق في نزهة ما.

ارتفع الضباب وظهرت السماء الغائمة الواطئة، طافحةً بضوء الصباح الرطيب، مذيبةً الثلج القذر الذي كان قد عاد إلى التجمُّد ممتزجًا بالوحل. كان جميع رفاقنا قد اقتيدوا إلى الساحة من منازلهم المؤقّتة. أحاط بنا القرويون بوجوه جامدة خالية من أيّ تعبير، قابضين على رماح خيزران وبنادق صيد. بالمقارنة مع صمتهم، بدا هياج رفاقي المسعور وكأنّه يتصاعد تصاعدًا غير طبيعي. أخيرًا، حين انقشع الضباب تمامًا، رأينا دركيًّا من مركز الشرطة مقبلًا مع مختار القرية، فأزاحا القرويين الساكتين جانبًا. تكشَّف التوتّر عن تركيز مبهم وانعقد حوالينا.

صاح المختار، وقد استشاط غضبًا: «لقد تصرَّفتم بطيش غير معقول بتاتًا، لقد اقتحمتم منازل أناس آخرين عنوة، سرقتم الطعام، أحرقتم المستودع عن آخره. أيُّ نوع من الطفيليَّات الضارَّة أنتم؟».

ترنَّحنا من شدّة الصدمة. انحطَّ فرحنا المسعور على الفور متحوِّلًا إلى نذير قاتم بشرّ مستطير.

«سنبلّغ السلطات عن كل ما فعلتموه، أيها الجانحون الملاعين، يا مَن لا تصلحون لشيء!».

سأل الدركي مزمجرًا: «مَن ذا الذي أحرق المستودع؟ هيَّا، قولوا لنا الحقيقة».

هزَّ مينامي كتفيه متحدّيًا وحاول الجلوس، واضعًا حقيبة عُدَّته على الثلج. وثب عليه الدركي على الفور، وأوقفه ساحبًا إيَّاه من صدر قميصه، وسدَّد إليه لكمة على فكّه.

صاح بصوت مليء بالحقد، ناخسًا مينامي: «الويل لك، إنه أنت، أليس كذلك؟ أنت الحارق عمدًا، هيَّا، ابصق الحقيقة، أيها النذل! وتتحامق علينا! أنت الذي أشعلت النار، أليس كذلك؟».

صرخ مينامي، متلوّيًا من شدة الوجع: «لست أنا، لست أنا؛ الجندي الذي فرَّ من بين طلاب الحربية هو الذي فعل ذلك».

أرخى الدركي قبضته ونظر إليه. سرى رعب بين القرويين. نظرنا جميعًا إلى مينامي نظرة لائمة.

«كان الفارّ هنا، أليس كذلك؟ طيب، أين هو مختبئ؟».

قال مينامي: «لا أدري».

همهم الدركي ساخرًا وهو يطرحه أرضًا ويركله في صدره: «يا لك من نذل! لا تتحامق معنا!».

قال المختار، وهو يلوي ذراع أحد الرفاق: «أين الجندي؟ هيًا، اعترف، أنت فعلًا منحطّ. هيًا، أين الجندي؟».

تكلّم الفتى الصغير، بدافع الوجع والغضب، وفوق كل شيء، بدافع الخوف: «لقد فرّ إلى الجبال، ولا أعرف أي شيء آخر».

صاح الدركي: «احبسوهم، ثمّ تجمّعوا من جديد».

حثّنا الآخرون على الإسراع. سرنا بأقدام أصبحت ثقيلة فجأةً، متذكّرين جوعنا، فتضاعف شعورنا بالجزع ونحن نسمع القرويين يتجمّعون خلفنا. حُبسنا من ثمّ في مبنى خارجي صغير تابع لمبنى المدرسة، فتوتّرت أعصابنا إلى حدّ أن عيوننا الغضبى، القانطة، اغرورقت بالدمع. في الخارج، دُفع بمزلاج إلى مكانه بخشونة.

علا صوت أوامر الدركي وموجة من أصوات الخطوات المتراكضة مع قعقعة رماح الخيزران. إنها المطاردة، فكّرت. لسوف يطاردون الجندي ويصطادونه. أكيد أنه لَحِظَ عودة القرويين قبل أن أفعل وهرب. لكنّهم سرعان ما يلحقون به لأنه متعب من قلّة النوم بعد اعتنائه بالفتاة.

شرح مينامي للّذين حوله، متظاهرًا بالبهجة ليصرف الانتباه عن زلّة لسانه: «هؤلاء القوم، لقد عادوا ليستطلعوا الأنباء ويتأكّدوا من أننا جميعًا متنا أم لا. النسوة والأطفال لم يعودوا بعد، أليس كذلك؟ إنهم مبلبلون، متحيّرون من أننا لا نزال على قيد الحياة. وفوق ذلك، كان هناك شخص مثلي يقوم بتبرُّجه الصباحي!».

ثم ضحك ضحكة خليعة. لكنّ الانفعال المبتهج المسعور السابق كان قد تلاشى من نفوس الآخرين، بحيث غرقت ضحكة مينامي عالية النغمة على نحوٍ غير طبيعي واضمحلّت في الجزع العميق، البارد والدبق، الذي انبعث من جديد وعاد ينوء بثقله علينا، وفي عودة إحساسنا بالتململ العصبي، فلم يُثرِ أيّ موجة من ردود الفعل. في النهاية، أقعى مينامي في صمت متجهّم، وأخذ يقرض أظافره. انتظرنا على هذا النحو فترة طويلة.

حتى عندما قرع الباب ولدٌ في أمسّ الحاجة إلى التبوّل وأخذ يتوسّل، لم يستجب لتوسُّلاته أحد في الخارج. فكان عليه أن يفعلها في زاوية من زوايا الكوخ، ممتقع الوجه من فرط الذل والخجل. امتلأ الكوخ الصغير على الفور برائحة البول اللاذعة.

راح بعض الفتية يسترقون النظر عبر الثغرات بين ألواح التلبيس الخشبية الواقية من المطر وأخبروا الآخرين عن مكتشفاتهم الصغيرة. في البداية، لم يكن ثمة حركة في الخارج. ولكن حوالى الظهيرة اكتشف الرفاق الذين كانوا يدسُّون أنوفهم في الثغرات بين الألواح على الجانب المطلّ على مقبرة الوادي الجماعية اكتشافًا عظيمًا. سمع الجميع دمدمة غريبة غير مصحوبة بكلام، فاختلسوا النظر عبر الألواح، متكوّمين وظهورهم فوق ظهور بعض أو منبطحين على الأرضية بين سيقان بعضهم بعضًا. سرى من جسم لجسم غضبٌ مشترك، غضبٌ استخلَصَنا واحدًا واحدًا من حالة الذعر الفردي، وشدَّ بعضنا إلى بعض بإحكام.

كان خمسة من القرويين يعملون في المقبرة الجماعية، يؤرجحون مجارفهم، وظهورهم وأكتافهم يغمرها ضوء الشمس الشاحب،

ووجوههم المطأطأة ملقاة في الظل. وقد نقبوا عن الجثتين اللتين كنَّا دفنَّاهما في تفانٍ مثل بصلات نفيسة، فاستخرجوهما وسدحوهما على المرج حيث كان الثلج لا يزال منبسطًا. لم يكن بوسعنا أن نجزم أيّهما كان جثمان رفيقنا السابق أو جثمان الفتاة الطازج الذي أصبح أول براعم خوفنا. كان كلاهما مغطّى بالطين: مجرَّد خبيص أزرق ومتلوّن بالتراب. ولكن عندما وضع القرويون حطبًا في القبر الفاغر وأخذت ألسنة لهب صغيرة من احتراق الجثتين المكوَّمتين فوقه تزحزح هواء العصر الراكد، أضحى غضبنا صريحًا. حتى مينامي ذرف دموعًا وهو يعضُّ على شفته. كان الأمر ضربًا من الطقس لإرغامنا على الإقرار بأن كلّ ما في القرية، بما في ذلك الجثث التي سبق دفنها، عادت تحت سيطرة الراشدين. قام الراشدون بالأمر بهمَّة فاترة، وبشيء من السأم، وشيئًا فشيئًا بدأت هيئات بشرية أخرى تظهر على سفح الوادي. طفق نسوة القرية وأطفالها العائدون يتفرَّجون بلا مبالاة جامدين، فاقدي الحس.

كنَّا قد استولينا على القرية وسيطرنا عليها، فكّرت، وقد أصابتني رعدة مفاجئة. لم نُعزَل في القرية، بل احتللناها. غير أننا تنازلنا عن سلطاننا للراشدين من دون مقاومة، وفي النهاية حُبسنا في الكوخ. لقد خُدعنا، خُدعنا حقًّا!

رفعتُ خديَّ عن الألواح وعدتُ إلى الزاوية المقابلة. استدار مينامي بعينين حادَّتين متقلّصتين محمرَّتين من الدموع وخاطبني:

«إنهم يستخفُّون بنا فعلًا».

قلت: «أجل، إنهم يستخفُّون بنا فعلًا».

كنَّا نحن الذين حافظنا على القرية الخاوية طوال الأيام الخمسة الأخيرة؛ لا بل أقمنا عيد الصيد. فماذا فعلوا؟ حبسونا. إنهم يستخفُّون بنا فعلًا.

قال أحد الرفاق: «أتساءل عمَّا يفعله لـي، هل سيتمكّنون من القبض عليه هو الآخر؟».

صاح مينامي بصوت متصاعد: «يا ليته يأتي ويُخرِجنا من هنا، لو كانت عندنا بنادق لَطردنا القرويين، الأوباش القذرين، وشتَّتنا شملهم».

شعرتُ نحو ثورة مينامي برفاقية دافئة. لو كانت عندي بندقية لأطلقتُ النار عليهم جميعًا وأسلتُ دماءهم. لكن لـي لم يأتِ لنجدتنا. وما كانت عندنا بنادق أصلًا. جلستُ متكئًا على الألواح، محتضنًا ركبتيَّ، وأغمضتُ عينيَّ. جاء مينامي من ثمّ، وجلس بجانبي، ووكزني بكتفه. همس لـي بصوت خفيض حار:

«أنا آسف بخصوص الأمر مع شقيقك».

لكنني كنت أريد تجنُّب التفكير في شقيقي.

قال مينامي: «شقيقك نبيه وسريع العدو، فلعلَّه اختبأ بين الأعشاب وشاهد كيف تمكَّنوا من القبض علينا. أنا حقًّا آسف».

سمعنا فجأةً طلقين ناريين بفاصل قصير بينهما، لعلَّهما طلقان تحذيريان، عميقًا في الغابة خلفنا. وقفنا من فورنا وأصخنا السمع. لكنّنا لم نسمع طلقات أخرى. سَرَت فينا رعدة جديدة من الجزع. انتظرنا حتى أمسى الهواء في الكوخ معتمًا حقًّا، وصارت وجوهنا مجرَّد بقع بيضاء مبهمة.

فاجأنا سماع نباح كلاب الصيد، وشتائم غاضبة، وأصوات خطى مشوشة، ولغط القرويين الراشدين آتين نزولًا من الغابة. بعيون مفتوحة على اتّساعها، ثبّتنا أبصارنا على خيوط الضوء الذهبي النحيلة المشعَّة عبر الألواح ورحنا نختلس النظر. كان القرويون يطوّقون طريدة صيدهم المتوحّش.

كانوا يسيرون بخطى وئيدة، هادئة للغاية. فقط حين حاول الأطفال الانضمام إلى موكبهم، أخذت أصوات خشنة تتواثب في ما بينهم. أقبلوا يسيرون، ممسكين ببنادقهم ورماحهم شاقوليةً على أجنابهم، مطأطئين رؤوسهم. أقبل من ثمّ الفارّ يمشي متعثّرًا، وكتفاه ترتعشان، كأنما يعيقه هواء المساء المتوهّج البرّاق، والريح فوّاحة برائحة الثلج والأوراق طفيفةً. كان الجندي الآن مجرَّدًا من سترته، لا يرتدي إلا قميصًا من قماش خشن، وساعداه مشمَّر عنهما وكأننا في عزّ الصيف. عندما مرَّ الموكب الذي يطوّقه من أمام الكوخ، رأينا أنّ الطين على وجهه الصغير الشاحب مشدود القسمات قد يَبِسَ حتى صار بلون الصلصال؛ وأنّ القماش البني الذي يغطّي بطنه، محاكيًا على نحوٍ غير طبيعي حركةً رجراجةً فوق مسند وركيه المتقلقل، كان مشقوقًا؛ وأنّ الشقّ كان مبقَّعًا ببقع بنيّة قاتمة؛ وأن شيئًا طريًّا، طازجًا، رطبًا، شيئًا يأسر الضوء الخافت ويعكسه نبضاتٍ زلقةً، ملوَّنةً بألوان زاهية، كان يتدلّى منه. وكلّما تذبذب ذلك الشيء على إيقاع خطوته، كان يومض في الضوء الذهبي الخافت.

تعثّر الجندي مرارًا وهو يخطو على الطريق المؤدّية إلى أسفل السفح نزولًا من الساحة أمام المدرسة وحاول أن يمسك نفسه عن

الانهيار، مؤرجِحًا ذراعيه الطويلتين على نحوٍ أخرق. كانت حركةٌ مثيرة للشفقة وطفولية، حملتنا على البكاء. غير أنّ قرويَين متينَي البنية أمسكا به حالًا من كتفيه وواصلا السير به وهما يكادان يجرّانه جرًّا. وبينما كان الموكب يغيب عن الأنظار، أقبل وراءه نسوة ومسنّون وأطفال يلبسون ثيابًا محشوة بالقطن حتى أعناقهم، مسرعين مثل ريح قوية منعشة بعد هبوب عاصفة.

سحبنا أبصارنا من الألواح، وجلسنا على الأرضية الترابية، وحدَّقنا في أقدامنا صامتين. سيقاننا، العجفاء والبيضاء، والجلد يتقشّر منها مثل حراشف السمك، أقدامنا الصغيرة الهزيلة مثل أقدام الطيور، كريهة الرائحة والمكسوة بالطين، أحذيتنا القماشية، المتّسخة والمليئة بالثقوب التي تغطّيها، والرمز التفاخري البارز الذي يبيّن موقع الإصلاحية. لبثنا على هذه الحال مدّة طويلة، خافضين أبصارنا ساكتين، ونحن نبكي من شدّة الخوف. وقف أحد الفتية وبال أمام إحدى زوايا ألواح التلبيس، ووركاه يرتجفان من شهقات نحيبه، فنثر البول الأصفر الساخن رذاذًا في أرجاء المكان كلّها.

تناهى إلى أسماعنا الصليل المعدني المتواصل لسيوفٍ تتقارع وأصوات خطوات نشيطة منتظمة تدنو. ألصقنا جباهنا بالألواح مرة أخرى، فأبصرنا رجلين من رجال الشرطة العسكرية والمختار والدركي يمرّون متعجّلين عبر هواء الغسق المزرقّ الذي سبق أن فقد ألقه. لم يولِ أيٌّ منهم انتباهه إلى الكوخ حيث كنّا معتقَلين، وغربوا عن الأنظار نازلين السفح. تهاوينا من جديد، مطأطئين رؤوسنا، وخفَّفنا من تيقُّظ حواسنا لما يجري في الخارج.

قال مينامي: «لقد عاد القرويون كُرهًا عنهم، لأنّ الشرطة العسكرية جاءت للقبض عليه».

سأل صوتٌ تالف من أثر الدموع: «أتساءل عمَّا سيحلُّ بذلك الجندي، أحسب على الأرجح أنه سوف يُقتل».

قال مينامي هازئًا: «يُقتل؟ أما رأيت مصران الجندي مدلَّاة من بطنه؟ أتظن أنّ امرأً طُعِن في مصرانه برماح الخيزران سيطول به الاحتمال وهو ينتظرهم كي يقتلونه؟».

قال الصبي، وقد عاد إلى النحيب: «لا بدَّ من أنه لموجع للغاية أن تمشي وأمعاؤك بارزة خارج بطنك، لا بدَّ من أنه موجع أن تُطعَن برماح خيزران».

قال مينامي: «كفاك نحيبًا»، وهو يضرب خاصرة الصبي المرتعشة وينتزع منه تأوُّهًا: «طيب؟ سوف تتذوّق طعم الطعن هناك على يد رجال القرية المخبولين».

انتفخت الأمعاء البارزة من بطن الجندي بهدوء وتضخَّمت، مالئةً رؤوسنا المثقلة بالإرهاق التي غزاها النعاس، وراحت تفعل فينا فعل السُّم. بين الحين والآخر، أجهش بعضنا بالبكاء وسط الصمت، بينما بلَّل بعضنا الآخر أنفسهم حيث كانوا جالسين، صانعين بُرَيكاتٍ شفافةً حول مؤخّراتهم وأرجلهم. فكّرتُ بأنني يجب أن أنتزع نفسي طليقًا من الخوف الشديد العميق الذي كان يبتلع رفاقي. وفكّرت بأنني يجب أن أنقّب وأركّز على آثار الجوع في باطني الذي لم يَبلُغني بعد، مع أنه ما انفكّ قطعًا يُعمِل فيَّ أنيابه نهشًا. لكنني لم أكن أشعر بالجوع ولا بالبرد؛ لا شيء كان يعتمل فيَّ ما عدا الغثيان الصاعد إلى حلقي وفمي الملتهب.

قلتُ بصوت مبحوح: «أنا جوعان»، لكنّ آخر الجملة اضمحل، فوجب عليَّ أن أكرّرها عدة مرات حتى يفهمها عني رفاقي: «أنا جوعان».

نظر مينامي إليَّ، وعيناه طفوليَّتان من فرط الدهشة: «ماذا؟ أنت جوعان؟».

قلتُ ببطء: «أشعر بقرصة جوع»، وشعرتُ بأنّ الكلمات أخذت تحرّض إحساسًا في أمعائي مثل تعويذة سحرية. سرى ذلك الإحساس في مينامي أولًا، ثمّ سرعان ما انتقل إلى الآخرين.

قال مينامي متحمّسًا: «أنا أيضًا جوعان فعلًا، اللعنة، ليته بقي عندنا بعض لحم الطيور».

سرى مفعول تعويذتي سريان السحر. بعد بضع دقائق كنَّا عصبة من الفتية اليائسين المحبوسين في كوخ صغير معانين من الجوع. أنا نفسي أكاد أتضوّر جوعًا. وكنَّا مستميتين جوعًا من غير أن نتوقّع أن ينفتح الباب الخشبي ويأتينا القرويون الشرسون بالطعام.

ولكن، بعد مدّة قصيرة، فُتح الباب فجأةً من الخارج، وما أُلقي به إلينا بفظاظة عبر الفتحة الضيقة لم يكن طعامًا، بل لـي، مغطى تمامًا بالطين والدم وقذارة لا توصف. بوغتنا كالمـلسوعين، فتوجَّهنا بأبصارنا إليه وهو واقف وسط الكوخ المعتم، وشفتاه ترتجفان غضبًا، ولكن بما أننا كنَّا نعاني الأمرَّين من جوع حرَّضناه بأنفسنا، لم ينهض أحد أو ينبس بكلمة.

أجال لـي طرفه فينا، واقفًا وعابسًا، مقلّصًا بذلك عينيه أكثر، ثم

أقبل وجلس قريبًا جدًّا مني حتى إن جنبينا تماسَّا. فاحت من جسمه رائحة خانقة هي مزيج من الدم الطازج وبراعم الشجر. كان ثمة عدد لا يحصى من الخدوش، بدم متخثّر ملتصق بها، من رقبته القوية إلى خدَّيه وحول أذنيه، وعيناه تنطويان في أعماقهما على قوة لاهبة كعيون حيوانات الغابة. خلاصة ما قيمته ساعات عديدة من الخطر قضاها مختبئًا في الغابة وفارًّا عبر الجنبات، شعرتُ بها تنتقل بقوة إليَّ. وقد سُري عني حين تبيَّن لي أنه جريح، مغطّى بالدم المتخثّر، وفوق ذلك حتى، يكاد ينتشي غضبًا.

قلت للـي الذي كانت شفتاه ترتعشان في صمت: «ظننتك قد نفدت بجلدك، يا له من حظ سيء!».

قال: «حظ سيء؟ أنا أتحرق غضبًا!».

قال مينامي: «لست وحدك غاضبًا».

نظر لـي إليه، ثم نظر إليَّ، وتردَّد. حاول أن يتغلَّب على تردُّده. تورَّم جلد وجهه الناعم فجأة وانتفخ. بدا واضحًا أنه يريد أن يكلّمني.

قلت: «ويحك، ما الأمر؟».

أجاب مستعجلًا: «ذهبتُ إلى أسفل الوادي، إذ حسبتني سأقضي وقتًا عصيبًا لدى عودة القرويين. تركتُ كلّ شيء ورائي ونزلتُ باتجاه أسفل الوادي. كنتُ أنوي الهروب على امتداد ضفة النهر. عقدتُ حبلًا حول ركيزة ترولي ونزلت».

سأل مينامي: «هذا الصباح؟ لو أنك أيقظتني لصحبتك».

قال لـي بنَفَسٍ واحد، وهو يحدّق إليَّ، متجاهلًا تعليق مينامي: «بينما كنت أمشي بين صخور الوادي، وجدتُ حقيبة عُدَّة شقيقك.

وجدتُ حقيبة شقيقك عالقةً بقطع من الخشب وقطط نافقة حيث كان منسوب الماء قد انخفض مع هبوط فيض الماء، ثم أ..».

أمسكتُ بكتفيه حين انقطع فجأةً عن الكلام وهززته. شعرتُ كما لو أنّ هوَّة سحيقة مظلمة انفتحت في رأسي وكنت برمَّتي على وشك الانقلاب فيها. لم أقوَ على النبس بكلمة.

تضوَّر لـي، إذ اعتصرتْه أصابعي المرتجفة بإحكام، وتوسَّل إليَّ بعينيه «أ...، بعد أن التقطتها بعصا، عدتُ عبر الغابة لأعطيكها».

طغى عليَّ نشيج مفاجئ، نوبات من النشيج انبجست هائلةً من باطني وأحرقت صدري وحلقي، وأفلتُّ كتفيه وعلا صوتي بالبكاء، وأنا ضاغط بجبيني على الألواح.

سأل مينامي، خافضًا صوته تفاديًا لثوران الأسى فيَّ: «ماذا فعلت بالحقيبة؟ ماذا عنها؟ هل جلبتها؟ لماذا لم تعد بها إليه؟».

قال لـي مرتبكًا: «لأن القرويين عثروا عليَّ في الغابة وطاردوني، رميتُها في إحدى الأَجمات لأنني لم أشأ أن يظنوا أنني سرقتها. بعد ذلك، كان قرويون آخرون يحملون رماح خيزران يسدُّون عليَّ الطريق، فما كان لي من مهرب».

قال مينامي من فوره: «سوف تصحبنا إلى حيث رميتَها، أليس كذلك؟ إذا لم تكن هناك سأجعلك تندم. لقد كانت تذكارًا من شقيقه».

ملتفتًا بسرعة، حاولتُ أن أقبض على مينامي ورأيت أن عينيه الحادّتين مثل عيني حدأة كانتا مغرورقتين بالدموع. اضمحل الغضب والتوتّر العضلي من جسمي وحلَّ الأسى في أعقابهما. هززتُ رأسي، ممسكًا بركبتيَّ، ودفنت من ثمّ جبيني بينهما وتأوَّهت.

في هزيع متأخّر من الليل، بعد أن انقضى وقت طويل، علت فجأةً صرخة توجُّع بعيدة كُبِتتْ على الفور، مع أن صدى وجيزًا تردَّد في أرجاء الوادي. انتفض رفاقي من وضعيَّات نومهم المحشورة مفتّشين عن عيون بعضهم بعضًا التي عصف بها الخوف.

قال لـي: «كانت هناك سيارة شرطة عسكرية على الطرف الآخر من الوادي. يريدون أن يأخذوه معهم قبل أن يموت. لا بدَّ من أنهم كانوا يقيّدونه على الترولي ويرسلونه عبر الوادي إلى الطرف الآخر».

قال مينامي: «بأمعائه المتدلّية خارج بطنه، فِعْلتُهم هذه تماثل قتلَه».

قال لـي ممتلئًا بالكراهية: «إنهم يقتتلون، لقد خبَّأناه، لكنّ اليابانيين يقتلون بعضهم بعضًا. الشرطة العسكرية ورجال الدرك والفلاحون المسلَّحون برماح الخيزران؛ رهط من القوم يطاردون مَن فرَّ منهم إلى الجبال ويطعنونهم حتى الموت. لست أفهم ما يفعلون!».

مرّة أخرى، علت الصرخة المستيئسة وكأنّها خارجة من حنجرة على وشك لفظ أنحابها الأخيرة، ودوَّت أصداؤها عبر الوادي بوضوح مدة قصيرة، وما لبثت أن كُتِمَت واضمحلَّت. وذاك الصوت الثاقب ارتدَّ عن توقّعاتنا المتخثّرة ولم يعد يبلغ آذاننا. رأيت أن لـي، الذي كان يصيخ السمع بهدوء، كان ذا عينين داكنتين صافيتين، عينَي كوريّ بحق. بادلني النظر إلى عينيَّ اللتين كانت دموعهما قد أخذت تجف.

عندئذٍ، سمعنا أصوات عددٍ كبير من الخطى المشوَّشة عائدة إلى الساحة أمام المدرسة، ثمّ لم يمضِ وقت قصير حتى دوَّى الصوت الثقيل للروافد الممسكة بباب الكوخ الخشبي وهي تُرفَع. كان القرويون

يحملون حزمًا سميكة من المشاعل، وفي ذلك الضوء الساطع، الوامض، كثيف اللون، دلف المختار إلى الكوخ أولًا. دخل من ثمّ في إثره عددٌ كبير من القرويين وملأوا الكوخ حالًا. دُفِعَ بنا إلى الزاوية، إلى نتانة بولنا.

الفصل العاشر

المحاكمة والطَّرد

طفق أصغر الأولاد سنًّا ينشج فجأةً وجلس على الأرض مرعوبًا، مُبرِزًا ذقنه. شاهدنا والقرويين بولًا برائحة بول البهائم ينتشر سريعًا فوق الأرضية الترابية من بين ركبتيه. كنَّا جميعًا نعلم سبب الرعب المفاجئ الذي اعتراه. كانت مادّة لزجة بنيَّة ضاربة إلى الحمرة عالقة برأس رمح الخيزران المبري حديثًا الذي كانت تمسك به اليد اليمنى للرجل الطويل النحيل الواقف وراء المختار مباشرة، وما كان واضحًا أنّه جزء من معي بشري كان غارزًا في ماسورة الرمح الجوفاء. انجذبت عيوننا إليه. كان احتمال الغثيان عسيرًا. بعض الرفاق انحنى للتقيؤ وتعالت صرخات مخنوقة. حدَّق القرويون إليهم في صمت.

سأل المختار ملتفتًا بعد أن أجال عينيه الكالحتين فينا: «هل كلُّكم هنا؟».

لم يُجِب أحد. امتلأ الكوخ فقط بتأوُّهات التقيؤ التي كثَّفت الهواء.

سأل المختار مرّة أخرى: «كم عدد الذين فرّوا؟».

قال رجلٌ كان رأس رمحه يكشط جائزًا معترضًا واطئًا: «اثنان

مفقودان منذ أن جاؤوا إلى القرية، لكنّ واحدًا منهم مات قبل ذاك. فهناك مفقود واحد فقط».

حين فاه بعبارة «قبل ذاك»، خفض صوته، مشدّدًا على الحروف اللّينة. وذلك يعني أنّ القرويين بدأوا يقنعون أنفسهم أنّ «الحادثة» منتهية أصلًا وباتت مثابة حكاية، خرافة عن كارثة طبيعية غابرة. لكنّنا كنّا الآن، حالًا، نحاول أن نعيش «الحادثة» في الحاضر. كان مصيرنا أن نخوض فيها حتى تعلق أقدامنا، وعلينا أن نواصل النضال.

قال الرجل الآخر: «لقد نقّبنا عن الجثتين اللّتين دفنوهما وأحرقناهما، لكنّ جثة الطفل الأخرى لم تكن إلا بنت القرية. أغلب الظنّ أن الولد المفقود فرَّ إلى الجبال».

قال المختار وهو يندفع إلى أمام: «وَيْحكم، أيّها الأوغاد! أين هو مختبئ؟ إذا لزمتم الصمت سنطلق سراح الكلاب، وعندما تجده سيُنهَش رأسُه حتى ينفصل عن جسمه. فما قولكم؟».

خفضتُ بصري وأنا أعضُّ على شفتي. سرعان ما أغرقني الغضب في أسى عاد إلى الاستيقاظ. ربّتت يد لـي الضخمة ناتئة العظام على فخذي. واستْني لفتتُه، غير أنّ مقلتيَّ كانتا مغلَّفتين بغشاوة من الدموع المريرة، فلم أستطع رؤية أصابعه.

قال المختار لولدٍ أصغر سنًّا كانت شفتاه ترتعشان من فرط الخوف: «أنت على علم بمخبئه، أليس كذلك؟».

ردَّ لاهثًا: «لا أدري أين هو، لم يكن معنا البارحة. حقًّا لا أدري».

صاح المختار، وقد احتدَّ غضبه فجأةً: «يا أولاد الإصلاحية الأنذال الأشقياء! لا يؤخذ منكم حقٌّ ولا باطل. هل تحاولون أن تتلاعبوا بنا؟

لعلمكم، بمقدورنا أن ندقَّ أعناقكم العجفاء بضربة واحدة؛ بمقدورنا حتى أن نوسعكم ضربًا حتى الموت».

قطعًا لم نكن نقصد خداع القرويين. كانت بطوننا وآباطنا تنضح عرقًا من فرط الرعب. كلَّما أتى الرجل القابض على الرمح الملطُّخ بالدم والشحم بحركة أو جرجر قدميه، طفق وَجِيب قلوبنا يعلو، ليهمد من جديد.

وبَّخنا المختار، مُظهِرًا نواجذ مدبَّبة تلمع بوحشيّة من رطوبتها: «أنتم تستحقون الضرب حتى الموت عن كل فعلة فعلتموها في غيابنا، اقتحمتم البيوت وسطوتم على الطعام. وفوق ذلك، نمتم فيها وتركتم البول والخراء في أرجاء المكان. وهناك مَن حطَّم الأدوات. وتتويجًا لذلك كلّه، أضرمتم النار في المستودع».مكتبة .. سُر مَن قرأ

خطا من ثمّ خطوة واسعة إلى أمام، وصفع الخدود الفَزِعَة لجميع مَن كانوا في متناوله بظاهر يديه غليظتَي الجلد القاسيتين، اللّتين تبلَّلتا بدموع الغضب والخوف والذل التي ذرفها الأولاد.

«مَن هو الجاني؟ وَيْحكم، مَن منكم عبث بالمصلَّى في دارتي؟ الويل لكم، يا أولاد الحرام، يا أولاد القحاب، مَن هو الجاني؟».

ما فتئ الذعر يصيبني كلَّما قرَّب المختار مني فخذيه الأسمرين، لكنني رفعتُ بصري وكابدتُ النظر إلى عيون القرويين الفاحصة من ورائه. كانت عيونهم تقدح الشرر، وأفواههم المفتوحة التي تقطر لعابًا أفرزه التوتّر تتَّهمنا بمرارة. «مَن ذا الذي سطا على طعامي؟»، «مَن ذا الذي أوقد نارًا على أرضية بيتي الترابية؟»، «مَن ذا الذي خَطَّ خربشات بذيئة على حيطان بيتي وسقف غرفة المعيشة؟».

«هل دار في خلدكم، يا أنذال، أننا تفكّرنا طويلًا في أمر قصاصكم؟ هل تتخيَّلون ماذا سنفعل بكم، يا مَن لا يصلحون أبدًا لشيء، لا بحلال ولا بحرام؟».

وقف أحد الأولاد بعد أن نخسه المختار في كتفه. كان يرتجف.

قال بوهن: «لم أفعل شيئًا، أرجوك اغفر لي».

بعد أن صُرع أرضًا بضربة واحدة، وقف الحَمَل التالي الذي استُفرِدَ به وكرَّر العذر الواهي.

«اغفر لي. أخطأنا لأننا لم نكن ندري ماذا نفعل».

راح رفاقي يقفون ويضرعون واحدًا تلو الآخر، فلا يلبث واحدهم أن يُصرَع أرضًا ويُركَل. لكنْ لم يقاوم منهم أحد. كنَّا نُضرَب خانعين، بينما ظلّ المختار يخور بمفرده هائجًا مدة طويلة.

كفَّ عن الخوار فجأةً، وكبح حركة ذراعيه المخباطين، ووضع يديه على وركيه. حملق فينا، هزَّ برأسه، وخرج، دافعًا القرويين جانبًا. تيبَّسنا. القرويون أيضًا وقفوا متيبّسين وبدوا كأنهم ينتظرون عودته. خرج من ثمّ عددٌ منهم، وقد استُدعوا من الخارج، وبعد ذلك، حين ظهرت بضعة وجوه جديدة في المدخل الضيّق، ازداد لـي انكماشًا على نفسه أرضًا. الغريب أنّ الوجوه الجديدة كانت ذات بشرة أكثر شحوبًا ونعومة من بشرة القرويين. أداروا نحونا عيونهم المبهمة، البليدة، ولم يُوجّهوا إلينا أيّ اتّهام.

قلتُ، بجوار أُذن لـي بالضبط: «هل هم زملاؤك؟». لكنّه لم يردّ.

رأيتُ أنّ الدم قد تخثّر والتصق بعضه ببعض وتكتّل في أذنه. تلا ذلك صمتٌ مديد، وضمنه صوت لعاب نقي، دافئ، يرسب في بلاعم فتيّة، لا يلبث من ثمّ أن يُبتلَع، وحركات القرويين الثقيلة الخرقاء. بثَّ ذلك الجوُّ موجاتٍ ثقيلةً إلى رهط القوم المتراصّين خارج الكوخ الذين ما انفكوا صابرين يحاولون اختلاس نظرة إلى الداخل.

لبثنا هادئين، وقد هدَّنا التعبُ والنعاس، تطوّقنا نظرات القرويين الفاحصة. انتظرنا وقتًا طويلًا.

بعد انقضاء دهر، عاد المختار والآخرون من جديد. رفعنا أبصارنا ورأينا أن السعار المحموم قد فارق عينيّ المختار وفيه.

قال: «أيّها الأنذال، هل فكّرتم مليًّا؟ هل فكّرتم في الأشياء الفظيعة التي فعلتموها؟».

بعد أن أجال طرفه فينا ونحن صامتون، تكلّم برويّة بصوت خفيض ماكر، يكاد يهمسه همسًا: «ليس بمقدورنا أن نفعل أكثر ممّا فعلنا بشأن ما فعلتم. لذا سوف نغضُّ النظر عنها».

ارتياحٌ دَبِقَ به شعورٌ كريه غريب، ارتياحٌ غِرٌّ تريَّثَ مخلّفًا مذاقًا غير طبيعي، حاول أن يندسَّ في نفوسنا خلسة. بعد ذلك، حلَّ الذهول. صُعِقنا تمامًا. واحد من رفاقي، نشج بعصبيّة، وأخذ من ثمّ يبكي ارتياحًا. لا بل رفع ذقنه الصغيرة بعزم، مغضّنًا المسافة بين حاجبيه الرفيعين القذرين، وحاول حتى أن يبتسم.

قال المختار بصوت دمث، مجيلًا فينا عينيه القاسيتين: «غدًا

صباحًا، سيصل ناظر إصلاحيَّتكم مصطحبًا باقي الأولاد؛ وعندئذٍ ستبدأ رسميًّا فترة إخلائكم، لن نبلّغ الناظر عن جرائمكم. بدلًا من ذلك، عندنا ما نقوله لكم أيضًا. سنقول إنكم عشتم حياة سويّة منذ وصولكم إلى هذه القرية. لم يتفشَّ وباء في القرية. القرويون لم يهربوا. سنفعل شيئًا من هذا القبيل. بهذه الطريقة، نتفادى المتاعب. مفهوم؟».

غطاءٌ منفتحٌ نصف انفتاحة في ذهني انصفق مغلَقًا فجأةً. سرى ذلك إلى الأجسام من حولي واستعاد رفاقي جميعًا وقفتهم الصلبة المتحدّية نحو المختار. استقامت أجسامهم متّخذةً وضعيَّتها الصحيحة. كانت النيَّة هي استغفالنا. وهل من أمر أكثر إذلالًا، أكثر حمقًا وخسَّة، من أن نُعَدَّ «مغفَّلين»؟ فمن شأن ذلك أن يجعل أتعس اللواطيين وأكثرهم دناءة يحمرُّ من عاره خجلًا.

«حسنٌ، انطقوا هذه الجوهرة!»: حين تكلَّم المختار، مجيلًا طرفه فينا، وقد تزعزع هدوؤه الزائف من جرّاء قلَّة اكتراثنا، استرجعنا نحن الرفاق موقفنا اللائق، وأعدنا تمتين أواصر علاقة الزمالة، ونفخنا صدورنا وأبرزناها نحوه متحدّين، وعيوننا تشعّ كبرياء.

قال المختار وهو ينكز مينامي بإصبعه: «أنت، وَيْحك، ستقول ذلك، ألن تفعل؟».

قال مينامي، هازئًا بكل صراحة: «لا، لن أُقدِم على أمر كهذا، لقد عزلتمونا، نحن فقط، تخلَّيتم عنَّا وتركتمونا في وسط الطاعون. صدقًا هذا ما فعلتم، أليس كذلك؟».

قال رفيق آخر: «صحيحٌ ما يقول. لقد تخلَّيتم عنَّا». ثمّ ما لبث الجميع حواليه أن صاحوا سويّة، مردّدين ما قاله موافقين.

«كفُّوا عن هذا الكذب».

أفقد هجومُنا المعاكس المختار اتّزانه، فاستشاط من فوره غضبًا وأطلق العنان لسخطه عارمًا. طفق يخبط بذراعيه يُمنة ويسرة وينثر لعابه رذاذًا من حوله، مُظهِرًا أسنانه المسودَّة المتوَّجة بالذهب في فمه الفاغر.

«إذا تلاعبتم بنا، أيّها الأوغاد، لن ندعكم وشأنكم بسلام. افعلوا ما آمركم به، وإلّا أوسعناكم ضربًا حتى الموت. عندنا رهطٌ من الرجال الأشدَّاء الذين بوسعهم بسهولة أن ينتزعوا منكم الاعتراف. ألا تعرفون ذلك؟».

حتى أُمسِكَ رفاقي عن النكوص إلى الرعب من جديد، كان عليَّ أن أصرخ في وجه المختار. وقفتُ منتصب القامة ورأسي يترنّح واهنًا، شاحبًا من فرط خوفي منه ومن الرجال المتوحّشين خلفه، لكنني فتحتُ فمي واسعًا وصرخت:

«لسنا مغفَّلين. لن ندعكم تستغفلوننا وتخدعوننا. أنتم مَن يجب ألا تتلاعبوا بنا».

فغر المختار فاه، محملقًا فيَّ، وحاول أن يتفوَّه بشيء، لكنني ما كنت لأقبل بذلك. اضطررت إلى مواصلة الصراخ أطول مدّة ممكنة قبل أن يبدأ بالكلام.

«نحن الذين تخلَّت قريتكم عنَّا. عشنا من ثمّ في القرية حيث كان من المحتمل أن يكون الطاعون قد تفشَّى. رجعتم من ثمّ وحبستمونا. لن أسكت عمَّا حصل. سأذيع كلّ ما فعلتم بنا وكلّ ما

رأيناه. لقد طعنتم الجندي حتى الموت. سأخبر أسرته بما حصل. طردتموني حين جئتكم متوسّلًا أن تأتوا وتفحصونا. سأذيع كل ما جرى، ولن أسكت عنه».

عاجلني مقبض رمح أحد القرويين الغليظ بضربة رهيبة على الصدر، فوقعت، واصطدم رأسي بالألواح فتأوّهت. لم أستطع التقاط أنفاسي. تلت ذلك مرارة طعم الدم في فمي، دمٍ أخذ يتدفّق من أنفي. رفعتُ وجهي وأنا أئن، وجررتُ نفسي إلى زاوية ألواح التلبيس تفاديًا للهجوم التالي. جرى الدم من أنفي ولطّخ الجلد تحت أذنيَّ، وعلى عنقي، وتحت قميصي. سرعان ما توقّف أنفي عن النزف بما أنني كنت متعوّدًا على الضرب، لكنّ الخوف الذي زحف من بطني متسلّقًا ظهري والدمع الذي انتشر فوق غشاءٍ دَبِقٍ كان الدم قد أخذ في التخثّر عليه، ما كانا ليتوقّفا.

قال المختار بعد لحظة، ببطء، متوعّدًا: «أرأيتم؟ إذا كنتم، يا أنذال، لا تريدون أن تلقوا هذا المصير، افعلوا ما تؤمرون به، اعترفوا بأنه لم يحصل شيء هنا وبأنكم لم تروا شيئًا، وبدءًا من الغد يمكنكم مباشرة إخلائكم كما ينبغي».

انكمش الأولاد أرضًا بأقصى ما استطاعوا ولزموا الصمت في الضوء الخافت، مثل حيوانات صغيرة. لزموا الصمت بأقصى ما أمكن لهم، فانتقل ذلك إليَّ. وعلمت أن الأمر ما كان ليستمرَّ طويلًا.

قال المختار: «كلّ مَن كان منكم ضدَّ أفكار القرية فليُقْعِ هكذا، أما أولئك الذين سيوافقون على رواية القرية، فليقفوا ويتوجَّهوا نحو الحائط. سنعطيكم كراتٍ من الأرزّ».

نبت برعم صغير من الهياج ونما سريعًا. تقدَّم الرجل حامل رمح الخيزران الملطَّخ بالدم خطوة إلى الأمام وصرخ بصوت أجش:

«كل مَن يعترض على ما يقوله المختار، فليجلس هنا، وسأذيقه طعم هذا».

وَثَبَ أحد الفتية ومشى متوجّهًا إلى الحائط، متنفِّسًا بتثاقل، وراح ينشج وجبينه متكئ على الألواح، وجسمه ينتفض. نهض من ثمّ رفاق آخرون ببطء وتبعوه، وصدورهم ملتهبة خزيًا. بعد مدّة قصيرة لم يبقَ إلى جانبي سوى مينامي ولـي، مرتجفًا، مطأطئ الرأس.

وبَّخنا المختار بقسوة: «وَيْحكم، أما تزالون متشبّثين برأيكم؟». ونخز القروي برمحه الخيزران خدَّ مينامي: «ذاك يكفي. قولوا إنكم لم تروا شيئًا وإنكم لم تُترَكوا».

سال خيطٌ من الدم بطيئًا من زاوية شفة مينامي المجروحة، وملأ الازدراء اللَّامبالي البارد وجهه الشاحب، مشوّهًا قسماته. وقف منتصبًا، متفاديًا رمح الخيزران المصوَّب مرة أخرى إلى وجهه. أصر أن يشيح بوجهه عني، وتكلَّم وهو متوجّه شطر الرفاق:

«رأيتُ الأمر؛ استمتعتُ جدًّا بوقتي وأنا متروك؛ ما أسهل أن يسكت المرء عن الأمر». وزعق بعنف في ظهور الأولاد من حوله الذين كانوا مطأطئين رؤوسَهم يرتعشون: «وَيْحكم، أنتم جوعى، أليس كذلك؟ تريدون أن تأكلوا كرات الأرزّ».

هيمن صوت المختار المنتصر على الكوخ: «لـي! هل تتحدَّاني؟».

رفع لـي بصره إليه، محرّكًا رأسه قليلًا فحسب، وتلعثم متردّدًا وكأنه يضرع إليه.

«كنت..»، استعملَ نبرةَ صوتٍ متذلّلة نوعًا ما: «كنت أنوي البقاء في القرية وحراستها، فأمكث هنا مع الآخرين. خطر ببالي في البداية أن أهرب، لكنني فكّرت في ما بعد أنه يحسن بي أن أحرس القرية. حتى إننا أقمنا عيد الصيد».

قاطعه المختار: «ماذا تقصد؟ إيه؟ ما علاقة هذا بذاك؟».

«ثمّ... قر..».

قال المختار بقسوة، من غير أن يصغي إليه: «إذا عصيتَني، هل فكّرت في ما سيحلُّ بمستوطنتكم؟ بوسعنا أن نطردكم في أيّ وقت، غدًا حتى».

تحمَّل لـي حتى النهاية. رأيتُ الوجوه الناعمة الشاحبة بين الوجوه المتكوّمة في عتمة مدخل الكوخ تحتدُّ وتضطرب. لكنّ أصحابها لم يتفوَّهوا بشيء.

«قال الدركي إن الفارّ ربما اختبأ في المستوطنة الكورية. إذا صحَّ هذا الأمر، إذ ذاك فإنّ جميع سكان المستوطنة سيُلقى بهم في السجن. لن تتمكّنوا من العودة من دون مساعدتنا. ألا تفهم؟».

سحب لـي يده من على ركبتي. نهض من ثمّ فجأةً وخرج، مارًّا بين القرويين مطأطئًا رأسه، مُصدِرًا صوت نحيب من حلقه. اعتمل فيَّ مزيج من الغضب والأسى، وأخذتُ أرقب القوم من مستوطنته يهرعون إلى الخارج ووجوه قرويين آخرين تأتي وتتزاحم وراءهم.

كنت الآن آخر مَن تبقَّى. التفت المختار ببطء ليلاقي نظرتي المستشرسة. حدَّق كلٌّ منَّا في وجه الآخر في صمت.

قال المختار: «ويلك، ماذا عنك أنت؟ هل ستصرُّ وحدك على موقفك

بخصوص أمر تافه كهذا؟ حقًّا لا يهم. كلّ ما في الأمر أنّ القرويين تغيَّبوا بضعة أيام. أنتم الذين فعلتم أمورًا سيئة في أثناء ذلك الوقت. لكنّنا قلنا إنَّا سنغضُّ النظر عنها».

لزمتُ الصمت متجهّم الوجه. راحت عيون القرويين الثاقبة تتفرَّس فيَّ. جلبت نسوة القرية كراتٍ من الأرزّ مكوَّمة على أطباق كبيرة وحساءً في قِدْر للطهي حديدية. أُعطِيَ من ثمّ رفاقي كراتٍ من الأرزّ وملء زبدياتٍ من الحساء الساخن وطفقوا يأكلون. كان قطعًا طعامًا حقيقيًّا، الوجبة العطوف النافعة التي لم يقيَّض لنا الحصول عليها قط إبَّان فترتنا الطويلة في الإصلاحية، إبَّان مسيرات إخلائنا، إبَّان زمن طفولتنا بمفردنا. كان أرزًّا كوَّرتْه أيادي نسوة القرية اللواتي عشن طليقات في الحقول والمروج والشوارع، وحساءً تذوَّقتْه ألسنة ربَّات بيت عاديات، وليس الوجبات الآليّة الباردة المقطوعة عن الودّ والحياة العادية. أدار رفاقي ظهورهم لي بعناد البغال وهم يلتهمون وجبتهم، وقد بدا واضحًا أنهم يشعرون بالخجل مني. أما عن نفسي فقد كنت خَجِلًا من اللعاب يسيل غزيرًا في فمي، من معدتي المتقلّصة، ومن الجوع الذي جعل دمي يجري جافًّا في عروق جسمي برمَّته.

عندما أقبل المختار عليَّ في صمت ومدَّ يديه بطبق ملؤه كراتٍ من الأرزّ وبزبدية أمام أنفي بالضبط، جعل شيءٌ ما - لعلَّه الخزي القابض على قلبي - ذراعي المرتجفة تصدم الطبق وتوقعه من يده. لكنّه أمسك بي مدمدمًا، وشفتاه المقلوبتان ترتعشان.

صرخ: «لا تتلاعب بي! وَيْحك، لا تتلاعب بي! الويل لك، مَن تظن

نفسك؟ مَن مثلك ليس حتى من فصيلة البشر. لستَ إلا حشرة ضارة لا تصلح إلّا لتوريث دمك الفاسد. لن تصلح لشيء عندما تكبر».

أمسك بي من ياقة قميصي وكاد أن يخنقني، وهو نفسه يلهث من فرط الغضب.

«اسمع، مَن مثلك ينبغي أن يُخنَق وهو بعدُ صبي. نحن نسحق الحشرات الضارَّة وهي صغيرة. نحن فلاحون: نقتلع البراعم الفاسدة باكرًا».

كان شاحبًا ويتصبَّب عرقًا من مسام جِلْده المدبوغ كلّها، وقد بدا مثل رجل سقيم تبرّح به نوبات الحمَّى. راح ينثر رذاذ لعابه وأنفاسه النتنة من لثّته العفنة على جميع أنحاء وجهي، وكان يرتجف. حسبتُني خوَّفته، وبدلًا من أن أستمدَّ من الأمر فخرًا، جعلني ذلك أرتعد من فرط الخوف الرهيب الذي اعتراني.

صاح: «اسمع، يا أنت، بمقدورنا أن نلقي بك من فوق الجرف، ولن يديننا أحد إذا قتلناك».

هزَّ رأسه المكسو بشعر أشيب مجزوز قصيرًا وصرخ كالمسعور: «يا أنذال، هل بينكم مَن سوف يخبر الدركي إنْ قتلتُه؟».

هَمَدَ رفاقي من فرط الخوف وأنا أنطوي إلى الوراء، وعنقي مضغوطة، وغدروا بي في وجهي.

«مفهوم؟ ويلك، هل فهمت الآن؟».

أغمضتُ عينيَّ ونكستُ رأسي، ودموع مريرة عالقة برموشي. فهمتُ حقّ الفهم أن الجميع تخلَّوا عني، حتى وأنا في أمسّ الحاجة.

أرخت الذراع التي تخنقني قبضتها، فتمالكتُ نفسي بعد أن أخذتُ بضعة أنفاس عميقة وسعلتُ بضع مرات. لم أشأ أن يرى رفاقي الذين غدروا بي الدمعات الشحيحة التي علقت مرتعشة بالجلد الجاف تحت عيني.

قال المختار: «إذًا، كُلْ أنت أيضًا».

رفضتُ منكّس الرأس. طوّق كتفيَّ بذراعه وحدّق إليَّ. استقام من ثمّ وتوجّه نحو الحدّاد وكلّمه بصوتٍ خفيض. كانت حقيبة عُدّتي ملقاة على ركبتي.

أمر المختار: «انهض».

نهضتُ، معلّقًا حقيبة العُدّة على كتفي. أحاط بي الحدّاد ورجال آخرون أشدّاء متينو البنية مثله، تغور بشرتهم التي لوّحتْها الشمس ولطّخها الوحل بين ثنايا عضلاتهم المفتولة. جرّوني بين القرويين، حتى وجدتُ نفسي في الساحة أمام المدرسة. أبقوني هناك واقفًا أنتظر. تجمّع القرويون أمام الكوخ وطفقوا يحدجونني بأبصارهم. سَرَتْ فيَّ رعدة من البرد. كانت العتمة حالكة، والثلج قد تجمّد.

بعد مدّة، خرج المختار من الكوخ. مشى حثيثًا بخطوات واسعة. انتظرته متوتّرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال: «إيه، إيه، أنت».

ارتعش جسمي متوجّسًا الشر.

قال بنَفَس واحد، متفرّسًا فيَّ بعينين ينبعث منهما ألقٌ خافت: «كان بمقدورنا أن نقتلك، لكننا ننوي إطلاق سراحك، غادِرِ القرية الليلة،

اقطعْ من ثمّ شوطًا طويلًا بعيدًا عن هنا. تذكَّرْ فقط أنك إذا ذهبت إلى الشرطة لن يشهد لك أحد. ولا تنسَ أنك سوف تعاقَب على فرارك سرًّا».

تضمَّن بيان المختار شِراكًا شتى، فلم أزدرده بسلاسة. لكنني أومأتُ برأسي، عاضًّا على شفتي. أمسكني الحدَّاد ورجل آخر من كلتا ذراعيَّ وجرجراني تقريبًا. سرتُ على الطريق صاعدًا. سرنا في صمت حتى حافة الوادي.

حتى يشغّل رافعة الترولي، كان على أحد الرجلين أن يقف مباعدًا بين ساقيه والآلة بينهما حتى بدأ الترولي بالتحرّك. وهكذا، في البداية، قرفصتُ والحدَّاد وحدنا في سلَّة الترولي الصغير ورُكَبُنا متلامسة، وصمتٌ غير إنساني موحش يغلّف جسمينا. ثمّ، ما إن أخذت الرافعة التي شغَّلها الرجل الآخر بخفَّة في الدوران حتى ركض بلا ضجة فوق الرواقد وانضم إلينا راكبًا. وبينما هو يجلس داس من غير قصد على أصابع قدمي بحذائه المغطّى بالثلج وانتزع مني صرخة. لكنّ الرجلين أمسيا وحشين ليليين يرتعدان جزعًا، فلزما الصمت، غير مُبدِيَين أي ردّ فعل على تأوُّهاتي. أضناني صوتُ فرقعة الحبل، فوضعتُ أصابعي القذرة في فمي وميَّزت طعم الثلج والطين والدم على لساني.

كنتُ على وشك أن أُطرَد من محبسي، من الطريق المسدود الموصد دوني. لكنني في الخارج سأكون حبيسًا أيضًا. لن أتمكَّن من النجاة بنفسي أبدًا. في الخارج، كما في الداخل، كانت أصابع غليظة وأذرع خشنة تنتظر في صبر أن تهرسني وتخنقني.

عندما توقّف الترولي، خرج منه الحدَّاد، وهو لا يزال قابضًا على سلاحه، وتبعتُه. باغتني من ثمّ مهاجمًا، مبرِزًا نواجذه. ارتميتُ أرضًا وأزَّ

قضيب الحدَّاد الحديدي وهو يهوي، كاشطًا قذالي، واصطدم بالفراغ. نهضتُ واقفًا من على الأرض مهتاجًا، وركضتُ بسرعة نحو الأيكة المعتمة قبل أن يهوي القضيب ثانية. واصلتُ الركض بين الأشجار القاتمة، ووجهي تضربه الأوراق، وساقاي تشتبكان بالنباتات الزاحفة، وجلدي يتمزّق وينزف من كل مكان. وقعتُ من ثمّ منهَكًا بين السراخس عميقًا في الثلج. كلّ ما استطعت أن أفعله هو رفع نفسي على منكبي وفرك حلقي بالشجيرات الباردة ذات اللحاء الرطب لأكظم نشيجي. لكنّ شهقات النشيج راحت تخرج بلا توقّف من شفتَي الملطّختين بالطين وتنتشر في الهواء الرطب المعتم، ممّا يشي بمخبئي للرجلين اللذين كانا يتراكضان جامحين وهما يفتّشان عني، ينادي كلٌّ منهما على الآخر أبعد إلى أسفل، وعلى القرويين الذين تهمزهم شهوة الدم. لكي أكتم نشيجي، رحتُ ألهث فاغر الفم كالكلب. أمعنتُ النظر عبر هواء الليل الحالك، مترصّدًا انقضاض القرويين، وتأهَّبتُ للقتال، قابضًا على قطع كبيرة من الحجارة بقبضتيَّ المتجمّدتين.

لكنني ما كنت أدري ماذا أفعل للنجاة عبر الغابة الليلية، فارًّا من القرويين المتوحّشين، والنفاذ بجلدي. لم أكن أدري حتى إنْ كنتُ سأقوى بعدُ على الجري مدّة أطول. كنتُ مجرَّد طفل، منهَك، غاضب حتى الخبل، دامع، يرتعد من البرد والجوع. فجأةً، هبَّت ريحٌ، حاملةً صوت خطى القرويين تدنو وتدنو، فتطبق عليَّ. نهضتُ، مطبقًا على أسناني، وارتميت في العتمة الحالكة بين الأشجار والأَجَمات الأحلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

♦ روايات وقصص عالمية ♦

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- رامي السهام (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- ڤيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيبّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تخبّئه لنا النجوم

راوي حاج

- جماعة نار جهنم
- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت

♦ ♦ ♦

- «الأصولي» المتردِّد - محسن حامد
- ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة) - بيون لي
- اعترافات غايشا - آرثر غولدن
- امرأة من ماريوپول - ناتاشا فودين
- بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أغاني - نيلوفر بازير
- بومبي - روبيرت هاريس
- بيل كانتو - الرهينة - آن باتشيت
- حكاية الشتاء - پول أوستر
- حياة - دافيد فاغنر
- الخجل والكرامة - داغ سولستاد
- دماء الأزهار - أنيتا أمبرسڤاني
- عند تلاشي الضّوء - أويغن روغه
- فتاة من بلغراد - لويس دو بيرنيير
- اللعنة على نهر الوقت - بير بيترسون
- متتالية فرنسية - إيرين نميروفسكي
- مدينة بوهاين - كيڤن باري
- موعظة عن سقوط روما - جيروم فيراري
- الناس والآخرون - قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار
- رحمة

جان ماري غوستاف لو كليزيو

- بِتنا تحت سماء سيول
- العاصفة

يوكيو ميشيما

- حبٌّ محرَّم - (تخلّى عن الجائزة مرّتين)
- المعبد الذهبي

كنزابورو أوي

- اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد
- الموت غرقًا

♦ ♦ ♦

- الضفادع - مو يان

♦ روايات وقصص قصيرة ♦

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شيعيّة (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

سردار أوزكان

- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- الرواية العمياء (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. محمد طعّان

- رحلة بهمان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

د. نعمة اللّه إبراهيم

- السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز - ألف يوم ويوم (قصة)

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)

- **نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة)** - د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

يسرى مقدّم

- **الحريم اللُّغوي**
- **صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر**

♦ ♦ ♦

- **أرملة مهندس** - صالح ابن عايض
- **إعصار بالتيمور** - حسين عبد الرسول سبيتي
- **إمرأة... وظلّان** - خلود عبدالله الخميس
- **ابن الحزب** - فيصل فرحات
- **بائع الفستق** - سمير عطا الله
- **حقيبة حذر** - عاطف البلوي
- **رقص تحت أشجار الكستناء** - عباس جعفر الحسيني
- **الرؤْيَوان (قصص قصيرة)** - عمرو عبد الكريم
- **سأعطيك الحلوى شرط أن تموت** - وائل ردّاد
- **سوريّو جسر الكولا** - ياسين رفاعية
- **صورة على هاتفٍ جوّال** - إلهام منصور
- **العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة)** - اسماعيل الأمين
- **عشّاق أمي (قصص قصيرة)** - هاجر عبد السلام
- **الغشوة** - راضي شحادة
- **في وسط العاصمة حانة مسحورة** - ساندرا تربونيّة
- **في حديقة الملك** - ميّادة العسكري
- **قصة مشربية - قصة يوطوبيا** - حسن فتحي
- **محاولات اغتيال علي (قصص قصيرة)** - محمد بركات
- **محاولة متأخرة للبكاء (قصص قصيرة)** - زينة حموي
- **مولود وثلاثة آباء** - نائل ماجد مجذوب
- **نهاية جيل** - محمد سعيد طالب
- **هل يفرّقنا الدين؟** - حسن السيد أسعد فضل الله
- **همنغواي الأديب العاشق** - أ. إ. هوتشنر
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** - قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

♦شعر♦

سليم حيدر

- **آفاق**
- **أشواق**
- **إشراق**
- **ألوان**
- **ألحان**
- **أشجان**
- **لبنان**
- **يا نافخ الثورة البيضاء**
- **ألسنة الزمان**
- **مهرجان العدالة**

طلال حيدر

- **آن الأوان (شعر)**
- **سرّ الزمان (شعر)**

مهدي منصور

- **أخاف الله والحب والوطن**
- **الأرضِ حذاء مُستَعمَل**
- **الظلّ فجر داكن**
- **فهرس الانتظار**

هادي مراد

- **حرب الجسد**
- **كما يقع التفاح**

♦ ♦ ♦

- **أثواب الحزن** - هدى السراري
- **أنظر إليك** - مرام المصري
- **خريف من ذهب** - جوزيف طوبيّا

- **خطوات أنثى** - رديفة مصطفى الفيلالي
- **خفيفًا كزيتٍ يُضيء** - بلال المصري
- **ما يفعله الغريب في الليل** - محمد دياب
- **مثل السَّكْت** - سوسن مرتضى
- **ميتينغ meeting** - جوليان حكيم
- **هو وهي في السعودية** - هتان بن محمد طاسجي
- **وراء الأفق** - إبراهيم أبو زيد
- **وصيّة شاعرة** - ناهد عيد
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** - غسّان علم الدين

♦دراسات ♦

د. أحمد حاطوم

- **في مدار اللغة واللسان**
- **قواعد فاتَتِ النُّحاة**
- **كتاب الإعراب**
- **المساجلات**
- **نقوش**

محمد توفيق أبو علي

- **ضوع الياسمين (شعر - حكايات - خواطر)**
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية - (دراسات)**

عصام محفوظ

- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)**
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)**

♦ ♦ ♦

- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات پاولو كويلو** - د. بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية** - د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** - ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** - تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية**- د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** - د. عادل كامل الآلوسي
- **الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش** - نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** - د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** - هادي محيي الخفاجي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** - عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** - نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - إعداد: منير عبود

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- **تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة)** - هارالد هارمان
- **فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر)** - د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية)** - نافتج سارنا

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- **أصل الغواية (قصص قصيرة)** - منتهى العزة
- **باب للخروج (رواية)** - طارق فرّاج
- **حبيبتي الحقيقة (شعر)** - أحمد طقش
- **الخامدون (قصص قصيرة)** - ربى عنبتاوي
- **نسرين ستموت الليلة (رواية)** - خديجة نمري

د. شكري نصرالله

- الثالث (رواية)
- قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)
- كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/ ٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

حربٌ شعواء وطاعونٌ مُتفشٍ وأولاد إصلاحية يُجلون إلى قرية جبلية نائية، يهجرها سكّانها بعد أن يرتكبوا بحقّهم أشنع الفظائع. الغابة المحيطة بالقرية فوضى عارمة تشطح عن طوق النظام البشري؛ ليس القرويون القُساة مَن يضعون حدًّا للحرية التي يعيشها الفتية، بل الانبعاث المأساوي للموت الذي يختطف حبيبة الراوي وشقيقه. يتعرَّض الراوي للخيانة، حتى من رفاقه، ويُحرَم من أي عَونٍ بشري، ليمضي في النهاية إلى الخواء.

في هذه الرواية، يبتدع كنزابورو أوي «بقوّة شعرية، عالـمًا متخيَّلًا تتكثّف فيه الحياة والأسطورة لتشكّل صورة مُقلِقة عن ورطة البشرية اليوم»، كما جاء في تنويه لجنة نوبل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كنزابورو أوي

أديب ياباني وشخصية ثقافية مثيرة للجدل في اليابان، وُلد في 31 كانون الثاني/يناير عام 1935. حاز جائزة نوبل للآداب لسنة 1994، وأعلن عندها اعتزاله، معلّلًا ذلك بأن ابنه هو الذي سيتابع المسيرة من خلال مؤلّفاته الموسيقية. رُشّح للحصول على وسام الثقافة؛ لكنه رفض الوسام. جعله أسلوبه في الكتابة واحدًا من أبرز ممثلي جيل ما بعد الحرب في الأدب الياباني.

لدى أوي كثير من المؤلفات التي تُرجمت إلى لغات عالمية عدّة.

ISBN 978-6144-58-555-9
9 786144 585559

الجناح. شارع زاهية سلمان.
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375-11 بيروت - لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر